شخصية بشار

بقلم

الدكتور

محمد النويهي

رئيس قسم اللغة العربية بكلية الخرطوم الجامعية

المحاضر الأول بمعهد الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن (سابقا)

الطبعة الأولى ١٩٥١

ملتزمة النشر والطبع

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلي باشا - القاهرة

مقدمة

«تحليل الشخصية» تعبير يروج كثيرا بين متعلمى الأدب ومعلميهم، فله رنة فخمة تكسب مستعمله اعتباراً وزهوا ، أولا تنبىء عن إتقان للدراسة العصرية، وتمكن من طرق النقد الحديث؟ فالتلامذة يدبجون موضوعات إنشائية يسمونها « تحليل » شخصية هذا الأديب أو ذاك، ومعلموهم « يحللون» لهم شخصيات أربعين أديباً فى السنة الدراسية الواحدة، وواضعو كتب تاريخ الأدب المدرسية « يحللون » شخصيات كل أدباء العربية ، شعراء وناثرين ، من أقدم العصور إلى أحدثها ، بين دفتى كتاب واحد . وشيوخ المدرسة القديمة فى الأزهر أو فى دار العلوم يأبون أن يقصروا عن ميدان « النقد العصرى» الذى يتسابق فيه الجميع، فيطلعون علينا بأسفار محبّرة يقومون فيها هم أيضاً بـ«التحليل». ولم لا يفعلون ؟ ألم يصر جامعهم الأزهر جامعة أزهرية ودار علومهم كلية دار ؟

وكل محاولاتهم تلك فى « تحليل الشخصية » تثير الضحك والأسى معاً ، فهى لا تومىء إلى بصر صحيح بهذا الموضوع الصعب المعقد ، لا يظنون هذا «التحليل» شيئاً سوى لم أشتات مخلطة من أخبار الأديب، لا تنتج إلا ثوبا مرقعاً عجيب التنافر لا يخفى هلهلته وبلاه ما أضافوا إليه من خرق مستعارة فتنهم بريقها العصرى. والأسلوب الذى يتخذونه أسلوب انشائى منمق العبارة مكتظ بالتراكيب البدوية الضخمة أو

محشو بالمحسنات العباسية المتظرفة ، أو يجمع فى محاولته البلهاء تقليد
أساليب القدماء بين هذين العنصرين الشديدى التضارب . وليس يعنينا
الآن ما ينتج عن هذا المزج الكريه من أسلوب يقزّ منه الذوق
السليم ، لكن يعنينا أنهم يخدعون أنفسهم باصطلاح طنّان
لا يفقهون له معنى . فليس هؤلاء يفهمون المعنى الصحيح لـ « تحليل
الشخصية »

أما نقادنا المحدثون ممن نشأوا بعد الثلاثة العظام فمنصرفون عن
الدراسة المجدية للأدب العربى بانهماكهم فى تطبيق مقاييس النقد الأوربى
على هذا الأدب المسكين ، وعزوفون عن التحقيق الصحيح لشخصيات
أدبائه فى جهادهم فى تقسيم هؤلاء الأدباء بين واقعيين ومثاليين ،
وطبيعيين ورمزيين ، وكلاسيكيين ورومانتيكيين ، إلى آخر ما يلصقون
بالأدب العربى من اصطلاحات يجدونها متداولة فى النقد الغربى وهى
لا تمت إلى أدبنا بصلة قريبة ولا بعيدة .

حملتنى هذه الحقائق المحزنة على أن أتوخى فى وضع هذا الكتاب
أن يكون شرحا للخطوات التى يخطوها دارس الشخصية الأدبية ، كيف
يتفهمها ويقلب النظر فيها ويتعرف جوانبها المختلفة ويحاول استكشاف
الدوافع والقوى التى تعاونت على إنتاج عناصرها المتعددة المتضاربة
ويضم كل هذه العناصر على تنافرها فى وحدة حيوية مؤتلفة . لذلك لم
أكتف بعرض النتائج التى انتهيت إليها من دراستى لشخصية الشاعر
الذى اخترته بالدراسة ، بل حاولت أن أبين للقارىء كيف توصلت

إلى هذه النتائج من قراءتى لأخباره وأشعاره . على أن القارىء لن
يجدنى أعرض لمسائل الدراسة الشخصية بالشرح النظرى والمناقشة
العقلية المجردة ووضع الأحكام والأصول والمقاييس ، فهذه طريقة
قليلة الجدوى فى تبصير المتعلم وتدريبه . إنما الوسيلة التى ألجأ إليها هى
أن أتناول الشاعر الذى اخترته بالدراسة المباشرة ، فأدرسه مع القارىء
فى خطوات تدريجية متمهلة ، فأبنى معه مرحلة بعد مرحلة صورتى
الشاملة للشخصية التى أدرسها ، ثم انتهز هذه الدراسة العملية لأشرح
له واحدة بعد واحدة طائفة من أهم الحقائق فى الدراسة الشخصية .

هذه فى نظرى هى الطريقة المجدية . أما الكتب التى تتناول قواعد
النقد الأدبى وطرق الدراسة الأدبية بالشرح النظرى والمناقشة العقلية ،
فقد يقرأ المتعلم منها عشرات دون أن تعود عليه بجدوى ذات بال .

ولكن ان أردنا أن نحسن دراسة الشخصية الأدبية فلا بد لنا
أولا من أن نعرف : عم تنتج الشخصية الانسانية ؟

هى تنتج عن عوامل كثيرة عظيمة التنوع والاختلاف ، ولكننا
نستطيع أن نقسمها قسمين عامين: عوامل التكوين الفردى ، وعوامل
البيئة .

أما القسم الأول فنعنى به طبيعة الفرد نفسه ، أو جبلته التى خلق
عليها ، وما به من استعدادات ونزعات ومحاسن ومساوىء فطرته عليها
عوامل التكوين الوراثى ، من التكوين العقلى ، وطبيعة الجهاز العصبى ،

وطبيعة الجهاز الجنسى ، وغير هذين من الأجهزة الجسمانية ، ونصيبه من قوة البنية أو ضعفها ، وقدرة جسمه على مقاومة العلل أو استعداده لتقبلها . وهذه كلها عوامل عظيمة الأثر فى تكوين الشخصية ، ولكننا لن نخصها هنا بالحديث ، فقد تناولناها بالشرح المفصل فى كتاب سابق (١) .

أما القسم الثانى ، فهو عوامل البيئة ، وتأثير ظروفها الزمانية والمكانية . فى أى عصر ولد هذا الفرد ، وفى أى مكان ، وما حالة عصره وموطنه من الوجهة السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والخلقية ، والثقافية . وفى أى بيت ولد ، ولأى أبوين ، ومن كانوا رفاق صباه وأخدان شبابه ، وكيف كان تأثره بهم ، وأى نصيب ظفر به من ثروة عصره المادية أو الفكرية ، وبأى أوساط خاصة اختلط ، وأى أحداث حدثت له فى مراحل حياته المتعاقبة فجعلته ينزع منزعا خاصا من السلوك أو التفكير .

وهذه أيضا عوامل عظيمة الأهمية ، إلا أن الشخصية لا تتكون عنها وحدها ، كما أنها لا تتكون عن عوامل التكوين الطبيعى وحدها ، بل هى نتاج تفاعل هاتين الناحيتين . وفى بعض الشخصيات يتساوى أثرهما ، وفى بعضها يزيد أثر هذه الناحية أو تلك . وقد رأينا فى كتابنا الذى أشرنا إليه شاعرا زاد فيه تأثير التكوين الطبيعى ، وهو ابن الرومى ، فكانت دراسته مجالا لاستجلاء هذه الناحية من تكوين الشخصية . أما فى هذا الكتاب فسندرس شاعرا زادت فيه عوامل البيئة ، وهو

(١) ثقافة الناقد الأدبي.

بشار بن برد ، فتكون دراسته فرصة نتبين فيها أهمية هذه العوامل ونصيبها الصحيح فى تكوين كثير من الشخصيات الأدبية ، وتكون أيضا نوعا من التصحيح والموازنة للكفة الأخرى التى رأيناها رجحت فى تحقيقنا لشخصية ابن الرومى.

وهذا هو السبب الأول الذى دفعنى إلى اختيار بشار ، ولكن هناك أسبابا أخرى ، منها أن شخصيته عظيمة النضوج شديدة التعقد وعناصرها كثيرة التضارب ، فمحاولة حلها تقدم لنا ميدانا واسعا تجبهنا فيه أهم المشاكل والصعوبات التى يواجهها دارس الشخصية الأدبية. ومنها أن مؤلف هذا الكتاب يعتقد أن نقادنا أخطأوا فى فهم شخصيته ، فدراسته مجال طيب للمقارنة بين اختلاف الآراء فى فهم الشخصية الواحدة ، ثم للقارىء أن يفضل منها ما يفضل ، وهو على أى حال سيجد فى وجهات النظر المتعارضة ما يساعده على أن يحدد وجهة نظره الخاصة ويكون رأيه فى التناول الصحيح للشخصية الأدبية .

وقد فرضت فى وضعى هذا الكتاب أن قارئه قد ألم بأهم ما قيل عن بشار فى القديم والحديث ، فإن أراد القارىء أن يعيد النظر فيه قبل أن يمضى فى قراءة الكتاب فاليه ثبتا بأهم المراجع عن بشار .

أوفى هذه المراجع سيرته فى الجزء الثالث من الأغانى ، ومنها تستمد معظم المراجع القديمة الأخرى . ولكن بالأغانى فصلين آخرين فيهما من أخباره وأشعاره مالا يوجد فى سيرته الرئيسية ، أحدهما فى الجزء السادس تحت عنوان « أخبار بشار وعبدة خاصة » ، والثانى هو سيرة حماد عجرد ، وهو شاعر طال تهاجيه مع بشار ، فى الجزء الثالث عشر .

يلى هذا فى الأهمية سيرته فى « طبقات الشعراء المحدثين » لابن المعتز . أما ما عدا هذا من المراجع القديمة فلا تكاد تضيف إلى أخباره شيئاً جديداً .

كذلك شعره ، أهم ما بقى لنا منه هو ما نجده فى أخباره فى الأغانى إلا أن بكتاب « المختار من شعر بشار » اختيار الخالديين ، بضع مقطوعات أخرى لها أهميتها .

وما يرد فى كتابى هذا من أخباره وأشعاره غير محال إلى مصدر فهو مأخوذ من سيرته فى الجزء الثالث من الأغانى. إلا أننى فى رواية بعض أبياته آثرت قراءات وجدتها فى غير الأغانى ، أو أضفت إلى ما يرويه الأغانى أبياتاً تعطيها مصادر أخرى .

أما الدراسات التى وضعت عنه فى نقدنا الحديث فأهمها ما كتبه طه حسين فى « حديث الأربعاء » وما كتبه العقاد فى « مراجعات فى الآداب والفنون » وما كتبه المازنى رحمه الله فى كتاب مستقل عن بشار نشر فى سلسلة « أعلام الإسلام » . والمازنى فى كتابه هذا يبذل جهدا مشكورا فى تصحيح النظرة الشائعة إليه ، وإن لم يعطه الإنصاف الذى نظنه جديرا به ، ولكن محاولته صادقة ، وهى عندى خير ما كتب عن بشار فى نقدنا الحديث .

ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا .

محمد محمد الدسوقى النويهى

الخرطوم فى ١٥ مارس ١٩٥١

فهرس

الجانب الثانى : نور

القسم الثانى : الشاعر

الجانب الأول : ظلام

الجانب الثانى : نور

النهاية :

القسم الاول

الرجـــل

الجانب الاول : ظلام

الصورة الشائعة

رجل غليظ القلب قاس لا يرحم ، يزدرى النـاس ويسرف فى بغضهم ولا يتمنى لهم إلا الشر ، يتلذذ بإيذائهم ويفحش فى هجائهم ، لاذع اللسان سفيه سريع إلى الشره رجل داعر عظيم الافساد لايعرف التعفف ، فاجر مفطور على الفجور ، شديد التهالك على النساء هاتك للحرمات لا يروعه دين أو خلق أو استحياء ، عنيف الشهوة غليظها لم تعد شهوته شهوة انسانية بل صارت اندفاعا حيوانيا شنيعا يشمئز منه الذوق فضلا عن الخلق — ثم لا يكتفى بدعارته هو بل يحرض الشبان على الفسق ويغرى النساء بالفاحشة .

رجل ثقيل الظل بغيض لاحظ له من لطف الشعور أو خفة الروح ، ليس محببا ولا جذابا ولا لينا رقيق الطبع والحاشية ، بل هو غليظ جهم متبذل مبتذل . رجل مغرور تياه شديد الجبروت والغطرسة ، وهو مع ذلك فى صميمه جبان يرتعد فرقا أمام التهديد فيصير ذليـــلا منكسرا ، بل هو أشد الناس فى عصره جبنا وفرقا ، يخاف كل شىء ، يخاف السيف ويخاف السوط ويخاف اللسان .

رجل دنىء خسيس النفس لئيم الطبع ، متلون الرأى ، يمدح ثم لا يلبث أن يهجو ، يهدد الأغنياء بالهجاء إن لم يجودوا عليه ولا يعرف فى تهديده معنى للخجل ، غدار خوان لم يخلص لإنسان ، يخون أصدقاءه يشاركهم الالحاد ثم يهجوهم بالحادهم ، ولا يكتفى بهذا فيدفع عن نفسه تهمة الزندقة بالطريق التى يسلكها الجبناء وأنذال الناس فيتهم بها غيره من خصومه ومن أصدقائه أيضا ـ رجل كاذب منافق مسرف فى النفاق ، بخيل زائد الجشع ، أنانى عظيم الأنانية ، يرى أن الخير يجب أن يكون موقوفا عليه .

أضف إلى هذا كله أموراً ثلاثة : أنه زنديق فاسد الرأى خبيث العقيدة ، وأنه شعوبى يحقد على العرب ولا يخفى حقده ، وأن فظاعته لم تقتصر على الناحية الخلقية بل تجلت فى تكوينه الجسمى كذلك ، فقد كان فى جسمه أقرب إلى الوحش ، كان ضخم الجثة غليظا أعمى قبيح العمى بشع الوجه كريه المنظر — فأى صورة تكونها كل هذه العناصر ؟

صورة حالكة تامة الحلكة ، ليس فيها بصيص من نور ، صورة إنسان خليق بالاحتقار والمقت الشديد ، لا يستحق قدراً تافها من الأشفاق أو التسامح أو المغفرة ، فقد خرج هذا المخلوق عن نطاق الانسانية فليس له أن ينتظر منها صفحا ولا قبولا .

فان كنت فى شك من هذا فيكفيك أن تعرف أن معاصريه جميعا كرهوه كرها خالصا ، حتى إذا مات تباشروا وهنأ بعضهم بعضا وحمدوا

الله وتصدقوا ، وأخرجت جنازته فما تبعها أحد إلا أمة له سوداء سندية عجماء ما تفصح ، أفبعد هذا تحتاج إلى تدليل ؟

هذه هى صورة بشار الشائعة لدى أساتذة الأدب ومتعلميه ، وهى صورة خاطئة ، ظالمة ، وعملى فى كتابى هذا أن أحاول إثبات خطأها ، ورسم صورة مغايرة أظنها أقرب إلى الصحة وإلى الانصاف .

ولكنى قبل أن أبدأ مناقشتى المفصلة ألفت القارىء إلى حقيقة هامة كان ينبغى أن تكون كافية لحملنا على الشك فى هذه الصورة الشائعة ، وهى هذه : إننا لا نستطيع أن نصدق أن إنسانا يبلغ هذا الحد من الشر الكامل الذى لا يخالطه ذرة هينة من الخير ، فهذه الصورة الحالكة التامة الحالكة التى لا نجد فيها بصيصا من نور لا يمكن بحال أن تتحقق فى إنسان حقيقى من دم ولحم يعيش فعلا فى المجتمع الانسانى .

نحن بشر ، ليس أحدنا ملكا ، وليس أحدنا وحشا ، فان قرأنا عن شخصية ما دراسة تصورها كأنها مجموعة من الفضائل التى لا شية فيها شككنا فى هذه الدراسة ، فمثل هذا الفرد الكامل لا وجود له فى حقيقة الحياة ، إنما يوجد فى الأساطير الشعبية أو قصص المغامرات الرخيصة التى تروج لدى العامة ، والتى تتخذ لحوادثها بطلا يجمع كل المحاسن ويتنزه عن جميع المساوىء ، فيفوز من قراء القصة السذج العقول بأكمل الحب وأتم الأعجاب .

وإن قرأنا عن شخصية أخرى دراسة تصورها كأنها مجموعة من الرذائل التى لا تقترن بنصيب هين من الخير شككنا فيها كذلك ، فمثل

هذا الشيطان لا يوجد فى واقع الحياة إنما يوجد فى نفس الأساطير والمغامرات الخيالية التى أشرنا إليها ، فانها تجمع إلى بطلها الذى يتحلى بكل الفضائل مجرما أثيما يتصف بكل المساوىء وتصدر عنه جرائم القصة ومصائبها فيصب عليه قراؤها كل كرههم واحتقارهم .

فهذه الصورة المبالغة فى فساد بشار وشره تحملنا — حتى قبل أن نحققها — على الظن بأن الناس قد أخطأوا فهم بشار فتحاملوا عليه ، قدماءهم ومحدثيهم معا ، فعملنا ليس أن نحقق الصورة فقط ، بل أن نبحث عن الأسباب التى دفعتهم إلى هذا الكره التام ، فلعل بحثنا هذا يعيننا بدوره فى محاولتنا استكشاف الصورة الصحيحة .

أعمى

العنصر الأول الذى تكونت منه نفسية بشار هو عماه .

نحن المبصرين نتحدث كثيرا عن نعمة البصر وعن مصيبة فقده . ولكن معظم حديثنا هذا كلام شفاه ، قل منا من يدرك هذه النعمة أو ضخامة فقدها حق الادراك ، اللهم إلا إذا حدث ما يهدد بصرنا نحن بالفقد أو بصر عزيز علينا .

وسبب هذا أن معظمنا لا يفكر فى هذا الأمر تفكيرا جديا ، تفكيرا حقيقيا مخلصا . أغلب ظنى أنى لو طلبت إلى القراء أن يتدبروا هذه

المسألة لابتسم أكثرهم هازئين(١) ، وقالوا هذا شىء بديهى يستطيعه صبى المدارس ويحسن الحديث فيه حين يكلف بأن يكتب موضوعا انشائيا عنوانه « تصور حال رجل حرم نعمة البصر » ، فانظر أى وصف بليغ يستطيعه ذلك الصبى ، وأى تصوير باك متحسر ، عنيف ثائر .

ولكن هذا عين ما لا أريده ، لا أريد الوصف « البليغ » ولا التصوير الباكى العنيف ، فهذا لن يقود إلى إدراك صادق بل كل ما يؤدى إليه هو الانفعال الكاذب المائع الذى يلجأ إلى حشد عبارات الإنشاء المحفوظة وأكليشيهات البلاغة المرصوصة يستعيض بها عن

---

(١) وليس هذا مجرد ظن منى ، ففى كتاب سابق حاولت فى أحد فصوله أن أطلع القارىء على مدى حزن الوالد الذى يفقد ولده ، وكانت طريقتى أن أقص على القارىء قصصا واقعية عن آباء وأمهات عرفتهم وأن أسجل ما قالوا وما فعلوا . فكتب مدرس للغة العربية باحدى المدارس الثانوية مقالا عن الكتاب يقول فيه ان هذه الأمور « بدهيات لا تغيب عن عامة الناس » ويقول « وكنت أود من المؤلف قبل أن يقوم على هذه الطريقة أن يكلف الطلاب كتابة موضوع انشائى (عن تصوير حال أم فقدت ولدها) ثم ينظر بعد ذلك فى الآفاق التى امتدت إليها أقلامهم » . وهذا دليل محزن على نصيب أغلبنا من فهم الحياة وفهم الأدب ، فهل ادعاؤه صحيح ؟ حين يكلف الطالب بمثل هذا الموضوع لا يجلس أولا يفكر فى أحداث حياته هو وحياة أبويه وأقاربه ثم يحاول أن يسطرها بصدق وبساطة ، بل يبادر إلى الأسلوب البلاغى الصاخب الكاذب الذى يحمله عليه مدرسوه الثانويون ، فيحشد لهم حيل البلاغة حشدا ، ويبدى براعته برص التشبيهات والاستعارات والكنايات ، ويتحذلق فى تنميق العبارات عن فداحة الخطب وهول المصاب ويصف اضطراب الأكوان وهوى النجوم وزلزلة الجبال حزنا على المفقود . وما أبعد هذا كله عن الألفاظ البسيطة الصادقة المؤثرة التى أوردتها عن أم تستغرب موت ولدها وتأبى أن تصدقه . هذه ألفاظ تقطع قلوبنا أربا ان كنا ممن يهتز للكلام الصادق المعبر عن عاطفة حقيقية ، أما تلك فشعوذة وألاعيب حواة .

التفكير الشخصى الجاد . ومعظمنا فى بلداننا العربية لايزال للأسف الشديد يقنع فى كل مسائل الحياة والأدب بحشد هذه التعبيرات المنمقة التقليدية لايحاول تفكيرا حقيقيا من عنده هو ، والنتيجة المحزنة هى أن معظمنا عاجز فى معظم أوقاته عن تفهم مصائب الآخرين تفهما صادقا ، ومعنى هذا أنه يظل مغلقا فى دائرة نفسه لايكاد يدرك صلته بالحياة الانسانية الشاملة له ولسواه من بنى البشر .

ليس هذا الأسلوب الانفعالى الكاذب هو ما أريده ، بل أن يجلس القارىء جلسة هادئة فيفكر تفكيرا متزنا متمهلا فى كل النعم والملذات والمنافع التى يستطيعها لأنه مبصر ، والتى يحرمها من لا يرى ، ولو فعل ذلك ساعة أو بعض ساعة لأدرك أى رعب حقيقى يستولى عليه من مجرد التفكير فى احتمال فقده بصره ، رعب لاتستطيع استثارة معشار معشاره تلك البلاغيات الكاذبة والخطابيات المهرجة ، ولبدأ يتفهم مقدار اللوعة الحقة ، مقدار الحسرة والسخط والأسى ، الذى يداخل نفس كل أعمى .

كل أعمى فهو لايخلو طول حياته من الحسرة ، ولكن العميان يختلفون فى نصيبهم من الحكمة والرضوخ للواقع وقبول ما لا يمكن تغييره . فمنهم من ينتهى إلى كبت حسرته فلا تزيد فى معظم أوقاته عن أن تكون أسى دفينا مختزنا لايهيج ويشتد الا بين الفينة والفينة ، ومن هذا النوع كان أبو العلاء .

ولكن منهم من يظل هائجا ساخطا طول حياته ، وفى كل يوم من أيام عمره ، لايستطيع أبدا أن يرضى أو يرضخ للأمر الواقع . كل

مايحدث له منذ أن يهب من نومه فى الصباح إلى أن يأوى إلى فراشه فى المساء يذكره بمصابه ، يذكره بهذه النعمة التى يستمتع بها غيره وهو قد حرمها . ومن هذا النوع كان بشار لسوء حظه .

من هذا النوع كان بشار . ما قبل عماه قط ، بل ظل طول حياته برما به مغتاظا ثائرا ، ويكاد هذا يتجلى فى كل خبر من أخباره التى وصلتنا ، ولكن قبل أن نتأمل فيها نشير إلى عوامل أخرى اقترنت بعماه فضاعفت عليه من جسامة هذا الرزء .

فأولها أن بشارا لم يكن أعمى عاديا . لم يكن فردا من سوقة الناس . بل كان - كما سترى بعد - إنسانا ممتازا ، مفكرا عميق التفكير واسع الثقافة ، فنانا حاد الاحساس ، شاعرا بارعا من الطراز الأول . يتأمل هذا الرجل الممتاز فى نفسه ، فيرى أنه برغم كل امتيازه ، برغم فكره وثقافته وشاعريته ، قد ضنت عليه الطبيعة بما أسدت إلى غيره من الناس . ثم يتأمل فى هؤلاء فيرى أكثرهم رعاعا أوشابا أغبياء ، يراهم مخلوقات أقرب فى بلادتها وغبائها إلى الحيوان الأعجم . ولكن الطبيعة قد تكرمت عليهم بما بخلت عليه به . أى عدل هذا ، وهو لو رزق البصر لاستعمله واستفاد منه أضعاف مايستطيعون ، وهم لو حرموه لما زادهم انحطاطا أن يزدادوا إلى عمى القلوب التى فى الصدور عمى الأبصار التى فى الرؤوس .

وثانيها أن بشارا كان مولى ، اضطهد كثيرا من أجل أصله الأعجمى وتعذب صنوفا من العذاب بسببه . ففكر كيف انضم عماه إلى أعجمية

أصله ليزيدا فى محنته . ولو كان أعمى عربيا لخف بلاؤه ، أو لو كان مولى مبصرا .

ولنفكر أخيرا فى البيئة التى وجد فيها بشار ، وهى بيئة كان يعد فيها العمى نقصا شديداً بالرجل ، لست أعنى أنه كان يعد نقصاً جسمانياً فقط ، بل كان يعد نقصاً خلقياً أيضاً ، ولكنك لن تحتاج فى هذا إلى تفكير طويل ، فنحن لا نزال نجد فى ريفنا وباديتنا مثل هذه البيئة الساذجة التى تعد عاهة الفرد ذنباً عليه، تعدها شيئا مشينا، وتستنكرها استنكارا خلقياً ، وتقرن بين العمى أو العرج أو العور أو غيرها من العاهات وبين رذائل أخلاقية تعتبرها لازمة لها ، وتعتقد أن هذا الفرد لم يبتل بعاهته إلا عقابا عادلا من الله على إثم لا بد أنه أتاه، وتنفر من كل ذوى العاهات . لا نفورا جماليا فحسب ، بل نفورا خلقياً كذلك .

مثل هذه البيئة تحتقر ذا العاهة وتذمه وتكرهه ، ثم يدفعها هذا إلى أن يؤذيه رعاعها وينالوا منه بالسب بل بالأيذاء الجسمى فى كثير من الأحيان ، لأنها لم تصل بعد فى صحة التفكير إلى المدى الذى يريها أن ذا العاهة لا ذنب له فى عاهته، ولم تبلغ بعد فى التمييز بين الحكم الجمالى والحكم الخلقى إلى الحد الذى يهديها إلى أن ذا العاهة الجسمية لا يكون بالضرورة وغدا من شرار الناس .

ولعل خير شاهد على هذا أن لفظ «أعمى» لا يزال فى لغتنا صفة ذم ، لا نصف بها امرءا إلا إذا أردنا شتمه ، أما إذا أردنا مجرد ذكر الحقيقة أنه لا يبصر فأننا نلجأ إلى تعبيرات أخرى، فنقول فلان الكفيف

أو فلان الضرير ، أو فلان المتطبع بغيره ، وما إلى هذا من المهارب التى نفر إليها من كلمة «أعمى» . ويزداد هذا وضوحا إذا قارنت «أعمى» العربية بنظيرتها (blind) الإنجليزية . فنظيرتها الإنجليزية لا تحمل بالضرورة رنة السباب التى تحملها الكلمة العربية . فلك فى الأسلوب الأنجليزى أن تتحدث عن معاصر فتذكر أنه (blind) دون أن يكون فى هذا إيذاء له أو نيل منه . ولا أزال أذكر دهشتى وألمى حين قرأت فى صحيفة إنكليزية راقية وصفاً لأديب مصرى كبير قيل فيه «هذا الأديب المصرى الأعمى العظيم» لأنى كنت لا أزال أقرن بين اللفظ وبين رنة السباب المقترنة به فى العربية .

من هذا كله كان رزء بشار فى عماه عظيما ، فلو أنه كان أعمى عاديا لا امتياز له فى العقل أو الثقافة أو الذوق الفنى لما تعذب كل عذابه . ولو أنه عاش فى عصرنا هذا فى وسط راق مهذب لما ناله ما ناله من ألوان الأذى بسبب عماه . لست أعنى أن هذا الوسط الراقى يرحمه ويغض النظر عن عاهته ولا يسبه بها ، لست أعنى هذا وحده ، بل أهم من هذا أن مثل هذا الوسط المتحضر لا يحتقره لعاهته ولا يعدها عليه ذنبا ولا يأخذ نقصه الجسمى عليه جريرة أخلاقية ولا يعتقد أنه لابد مقترن برذيلة نفسانية .

لا عجب إذن أن نرى بشارا فى أخباره التى يرويها القدماء دائم السخط دائب الهياج ، لا يفتأ يتذكر عماه يذكره به كل حدث من أحداث عيشته ، ويذكره به الناس لسبب ولغير سبب ، عن قصد أو عن غير قصد .

فيزيد بن منصور الحميرى الذى دخل على المهدى وبشار بين يديه ينشده قصيدة امتدحه بها ، ثم أقبل عليه بعد أن فرغ منها فقال له : يا شيخ ، ماصناعتك؟ فأجابه بشار : أثقب اللؤلؤ ! — يزيد هذا لم يكن يتعمد إيذاءه أوتذكيره بعاهته ، إنما كان كما يقولون شيخا به غفلة . ولكن بشار غاظه هذا السؤال الغبى وتأذى منه كما لو كان الأيذاء متعمدا ، فأجابه بهذا التهكم اللاذع . يقولون : — فضحك المهدى ثم قال لبشار : أعزب ويلك ، أتتنادر على خالى ؟ فقال له : وما أصنع به ! يرى شيخاً أعمى ينشد الخليفة شعرا ويسأله عن صناعته !

وغلامه الذى رفع إليه فى حساب نفقته جلاء مرآة عشرة دراهم ، فصاح به بشار وقال : والله ما فى الدنيا أعجب من جلاء مرآة أعمى بعشرة دراهم . والله لو صدئت عين الشمس حتى يبقى العالم فى ظلمة ما بلغت أجرة من يجلوها عشرة دراهم ـ هذا الغلام لابد أنه دهش من هذه الثورة وتألم لها كثيراً . فهو لم يذنب ذنباً يبرر هذا الأسلوب الهائج . والحق أن بشارا ليس ساخطاً بالغلام ، ولا هو متأفف من المبلغ الذى عليه أن يدفعه، إنما هو ساخط على عماه، ساخط على «الدنيا» و « العالم » و « الشمس » ، ساخط على ظلمته التى تحرمه شمس الدنيا ونور العالم . وتحرمه القدرة على أن ينظر فى هذه المرآة فيرى نفسه ، وتهب فى نفس الوقت هذه القدرة لخادمه .

وقصة الجام (١) التى تروى عنه :

---

(١) الجام : إناء للفضة .

« كان بالبصرة رجل يقال له حمدان الخراط . فاتخذ جاما لإنسان كان بشار عنده . فسأله بشار أن يتخذ له جاما فيه صور طير تطير . فاتخذه له وجاءه به . فقال له : مافى هذا الجام ؟ فقال : صور طير تطير . فقال له : قد كان ينبغى أن تتخذ فوق هذه الطير طائرا من الجوارح كانه يريد صيدها ، فانه كان أحسن . قال : لم أعلم : قال : بلى قد علمت ولكن علمت أنى أعمى لا أبصر شيئا » .

واضح أيضا فى هذه القصة أى سبب حقيق أغضب بشارا : انه لا يستطيع أن يرى هذه الطير التى صورها الخراط (١) .

وبقية هذه القصة : علام تدل ؟ تستمر القصة :

« وتهدده بالهجاء : فقال له حمدان : لا تفعل فانك تندم : قال : أو تهددنى أيضا ؟ قال : نعم . قال : فأى شىء تستطيع أن تصنع بى أن هجوتك ؟ قال : أصورك على باب دارى بصورتك هذه وأجعل من خلفك قردا ينكحك حتى يراك الصادر والوارد . قال بشار : اللهم اخزه ! أمازحه وهو يأبى إلا الجد ! » .

يستدل بها النقاد على جبن بشار ولؤمه . وقد تستدل بها نحن على

---

(١) ولكن نسأل: لم اختار بشار صور طير تطير دون غيرها مما كان يستطيع طلبه من التحلية ؟ لعل عالما نفسانيا لو قرأ هذه القصة لرأى فى الطير التى تطير (لاحظ أنها ليست جاثمة على الأرض) محاولة من بشار دون أن يدرى فى الارتفاع على نقائصه والتحليق فوق همومه ، فلما صورها الصانع فلم يستطع رؤيتها لم يجد بها كفاء ، بل ذكرته مرة أخرى بنقصه الأعظم ، فعاد يتطلب جارحا يغلبها ويقهرها جميعا ، ولسنا نحتاج إلى أن نكون علماء نفسانيين لندرك أن هذا الجارح هو بشار نفسه .

شىء آخر حين نزداد لنفسيته فهما : على عظم إدراكه لبليته فى عماه وقبح خلقته ، وشدة تأذيه من إشارة الناس إليها ، تأذيا ليس يصدر عن جبن بل عن فرط حساسيته وإرهاف شعوره .

أما تعمد الناس إيذاءه بذكر عماه فكان كثيرا . يروى صاحب الأغانى لشاعر يهجوه اسمه أبو هشام الباهلى بيتا شنيعا لانستطيع روايته[1] مضمونه أنه يدعى أن سبب عمى بشار هو أن عبدا لأبى هشام اتصل بأم بشار وهو جنين ، ففقأ عينيه . وقوة هذا الهجاء تغيب عليك إن لم تدرك أن الناس فى عصره كانوا يعتقدون ان هذا ممكن ان يكون، فهم لم يكونوا يعرفون ما نعرفه الآن من تكوين الجنين ووضعه فى الرحم واستحالة حدوث ما يدعيه ذلك الشاعر . فلا غرو أن يروى صاحب الأغانى أن بشارا لم يزل منذ قيل فيه هذا الشعر منكسرا .

ولكنك قد تقول : شاعر بذىء يهجو خصما له بالهجاء العربى المعهود البذاءة ، ولا يستدل بهذا على سائر أهل عصره . فما رأيك فى عالم جليل فاضل هو واصل بن عطاء ، يغيظه من بشار زيغه الدينى فيأبى إلا أن يقحم عماه أيضا فيقول : ان من أخدع حبائل الشيطان وأغواها لكلمات هذا الأعمى الملحد . ويقول فى خطبة خطبها يحرض بها الناس عليه : أما لهذا الأعمى الملحد ، أما لهذا المشنف المكنى بأبى معاذ من يقتله ؟ . . . إلى آخر ذلك التحريض الكريه .

بل هم حين يريدون امتداحه يأبون إلا أن يذكروه بعماه . يقول

---

(١) أغانى دار الكتب ٣ / ١٤١ .

بشار شعرا جميلا فيستكثرونه على أعمى . عن الأصمعى قال :

«ولد بشار أعمى فما نظر إلى الدنيا قط . وكان يشبه الأشياء بعضها ببعض فى شعره فيأتى بما لا يقدر البصراء أن يأتوا بمثله . فقيل له يوما وقد أنشد قوله :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا   وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

ما قال أحد أحسن من هذا التشبيه ، فمن أين لك هذا ولم تر الدنيا قط ولا شيئا فيها »

فيجيب بشار جوابا شديد التأثير فى نفوسنا ، أو ينبغى أن يكون، لا يحتد فيه ولا يثور ، ظاهره أنه يشرح لهم المسألة التى سألوها ، وحقيقته أنه يعزى نفسه عن مصابه :

« فقال : إن عدم النظر يقوى ذكاء القلب ويقطع عنه الشغل بما ينظر إليه من الأشياء فيتوفر حسه وتذكو قريحته » . ثم ينشدهم قوله :

عميت جنينا والذكاء من العمى   فجئت عجيب الظن للعلم موئلا
وغاض ضياء العين للعلم رافدا   لقلب إذا ما ضيع الناس حصلا
وشعر كنور الروض لاءمت بينه   بقول إذا ما أحزن الشعر أسهلا

محاولته تعزية نفسه فى هذه الأبيات ظاهرة ، والحسرة الكامنة فيها لا تحتاج إلى امعان كثير لكى نتبينها . وقوله إذا ماضيع الناس، فيه حنق على القدر الظالم الذى حرمه نعمة أعطاها سائر الناس وهم لبلادتهم وغبائهم ليسوا بها جديرين . يعزى نفسه بثلاثة أشياء : أولها ما يعبر عنه بقوله « عجيب الظن » وهو تعبير فذ ، ويعنى « بالظن » ما نسميه

الآن ملكة الخيال ، أى القدرة على التخيل الواسع العميق المبتكر .

ويصف خياله هذا بأنه خيال « عجيب » ، وهو وصف جد جميل ، ويعلل هذا الوصف بأنه لما حرم البصر اضطر إلى اشتقاق صور فنية أخرى لا تقوم على هذه الحاسة ليعبر بها عن خواطره فاستكشف وسائل للتعبير جديدة غريبة على المبصرين . وثانى ما يعزى به نفسه أنه جيد الذاكرة « للعلم موئلا » . ويشرح هذا فى البيت الثانى شرحا لا نحتاج بعده إلى تفصيل . أما ثالث عزاء له فهو شعره ، ومن الطريف أن نلاحظ هنا أنه لا يفخر بشعره التقليدى الذى يجارى به فخامة القدماء ومتانة أساليبهم ، بل يفخر بشعره الحديث المجدد ، شعره السهل المتعمد السهولة . فبشار إذن كان يدرك ميزته الحقة فى تاريخ الشعر العربى ؛ ليست فيما بارى به أساليب القدماء فلم يقصر عن شأوهم ، بل هى فيما أتى به من شعر تجديدى سهل .

ولكن هذا كله محاولة فى التعزى ان دلت على شىء فعلى فداحة شعوره برزئه . وهى نفس المحـــاولة التى نجدها فيما يروون عنه إذ يقولون : كان من أشد الناس تبرما بالناس ، وكان يقول : الحمد لله الذى ذهب ببصرى . فقيل له : ولم يا أبا معاذ ؟ قال : لئلا أرى من أبغض .

حتى أصدقاؤه حين يريدون أن يمازحوه :

« قال هلال الرأى ، وهو هلال بن عطية ، لبشار وكان صديقا يمازحه : ان الله لم يذهب بصر أحد إلا عوضه بشىء ، فما عوضك ؟

قال : الطويل العريض . قال : وما هذا ؟ : أن أراك وأمثالك من الثقلاء » .

والأمير العربى عقبة بن سلم ، الذى مدحه بشار بمقطوعات من من أروع المديح العربى ، والذى لم يبق لنا ذكره إلا ما قاله بشار فيه من شعر أريحى تهتز له النفوس ، يغضب على بشار لا لسبب سوى صمته فى مجلسه . فيقول له فى رواية مالك يا أعمى لا تتكلم ! أعمى الله قلبك !

بل بنية له تؤذيه دون أن تدرى . تقول له : يا أبت مالك يعرفك الناس ولا تعرفهم . قال : هكذا الأمير يا بنية . تأمل ما فى جوابه من حزن مكظوم ومن حنان ورأفة على طفلته الجاهلة .

ولنختم هذا الموضوع ببيت يستعر حسرة وسخطا ، بيت واحد يضمنه بشار كل تبرمه وغيظه ، وينفس به عن حنقه على القدر الذى حرمه ما وهبه سفلة الناس . وهو البيت الوارد فى القصة الآتية :

« كنا مع بشار فأتاه رجل فسأله عن منزل رجل ذكره له ، فجعل يفهمه ولا يفهم ، فأخذ بيده وقام يقوده إلى منزل الرجل وهو يقول :

أعمى يقود بصيرا لا أبا لكمو قد ضل من كانت العميان تهديه

حتى صار به إلى منزل الرجل ، ثم قال له : هذا هو منزله يا أعمى .

فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور .

دميم

من العميان من لا أثر لعماه فى تشويه منظره ، فعيناه لا تزيدان على

أن تكونا مطبقتين كأنه قد أغمضهما ليستسلم إلى النعاس ، أو هما
مفتوحتان عاديتا الشكل يخيل إليك أنهما تريان لولا خلوهما من البريق
الحي الذي ينعكس في العين المبصرة ، وفي كلا الحالين لا يكون للأعمى
منظر كريه تنفر منه النفس .

ولكن بشارا لنكد طالعه لم يكن من أحد الصنفين ، بل كان كما
يروي القدماء « جاحظ المقلتين قد تغشاهما لحم أحمر ، فكان أقبح
الناس عمى وأفظعه منظرا » .

ولم يقتصر خطبه على هذا العمى الشنيع ، بل كان وجهه أيضا كريه
المنظر بما تغشاه من آثار الجدري ، فان كنت رأيت وجه رجل مجدور
فانك تعرف مبلغ الدمامة دون حاجة إلى الشرح .

وكأن هذا أيضا لم يكن كافيا ، فإن جسمه كان مفرط الضخامة
زائد الطول . فاقرن الآن بين عماه الكريه وبين هذا الجسم الضخم
الطويل ، يتبين لك كيف كره معاصروه منظره وخافوه ورعبوا منه ،
ورأوه أقرب إلى « الوحش » منه إلى الانسان . فهو « كالبعبع » الرهيب
الذي تخيف به الأمهات أولادهن : جثة عالية كأنها المارد الجبار ،
ضخمة كأنها الفيل العظيم ، فان تطلعت إليها وجدت عليها وجها مجدورا
بشعا وعينين لا نطيل في وصفهما . .

ولسنا نلوم معاصريه لنفورهم الذوقي من مثل هذا الخَلْق ، فهو
لسوء حظ صاحبه لا يثير إلا الاشمئزاز والكراهية الجمالية ، ولو وجد
في عصرنا لنفرنا منه أيضاً . ولكن المصاب الأجل هو أنهم تعدوا
النفور الذوقي إلى النفور الخلقي ، فاعتقدوا أن مثل هذا « الوحش »

الممسوخ لا بد أن يكون « وحشا » من الناحية الخلقية أيضاً . ولو
كان بشار أعمى ضئيل الجسم أو عاديه ، أو ضخم الجثة مبصرا ، لما
اجتمع في خلقه ما رأى فيه معاصروه من القبح والتخويف . أما وقد
جمع بين الصفتين ، العمى الكريه والضخامة المفرطة ، فقد وصل سوء
حظه إلى نهايته .

وقد طالما عيَّره معاصروه بكراهة منظره . يروون عن أحد
الكوفيين يقول « مررت ببشار وهو متبطح في دهليزه كأنه جاموس .
فقلت له : يا أبا معاذ ، من القائل .

في حلتي جسم فتى ناحل   لو هبت الريح به طاحا

قال : أنا . قلت : فما حملك على هذا الكذب ؟ والله إني لأرى أن لو
بعث الله الرياح التي أهلك بها الأمم ما حركتك من موضعك ! فقال
بشار : من أين أنت ؟ قلت : من أهل الكوفة . فقال : يا أهل الكوفة
لا تدعون ثقلكم ومقتكم على كل حال » .

هذه القصة تبين شيئين : أولهما سوء أدب الكوفي ، يتعرض لبشار
بالسباب دون اثارة أو داع وبشار هادىء قار في عقر داره مسالم ،
ويأخذ عليه أنه نظم معنى عاديا مألوفا تراوحه الشعراء واستحلوه جميعاً
ضخاما كانوا أو نحافا . وثانيهما صبر بشار وكبته غيظه واكتفاؤه بذلك
التأنيب المظلوم ، وهو صبر كثيرا ما لجأ إليه .

بل أصدقاؤه أيضاً يتخنون في إيلامه :

« جلس إلى بشار أصدقاء من أهل الكوفة كانوا على مذهبه .

فسألوه أن ينشدهم شيئاً مما أحدثه، فانشدهم قوله :

أنى دعاه الشوق فارتاحا   من بعد ما أصبح جحجاحا

حتى أتى على قوله :

فى حلتى جسم فتى ناحل   لو هبت الريح به طاحا

فقالوا : يا ابن الزانية، تقول ذلك وأنت كأنك فيل عرضك أكثر من طولك ! فقال : قوموا عنى يابنى الزناء فانى مشغول القلب لست أنشط اليوم لمشاتمتكم . »

تأمل فى هذه القصة نفس الحقيقتين اللتين رأيتهما فى القصة الماضية .

لكن هناك عاملا آخر أريد أن أشرحه الآن، زاد من تبرم بشار بعماه ودمامته . وذلك أن بشارا كان - كما سنرى بعد - شديد الشهوة الجنسية، ثم اجتمعت أسباب مختلفة كثيرة على جعل التلذذ الجنسى ضرورة ألزم له مما تكون للفرد العادى . فكانت عاهته وقبحه عقبة عسيرة دون استمتاعه بمن هويهن من النساء فى أحيان كثيرة . وقد سبب له هذا حسرة شديدة . ونكتفى فى هذا الموضوع بقصة واحدة :

« كان النساء المتظرفات يدخلن إلى بشار فى كل جمعة يومين، فيجتمعن عنده ويسمعن من شعره . فسمع كلام امرأة منهن فعلقها قلبه وراسلها يسألها أن تواصله . فقالت لرسوله : وأى معنى فيك لى أو لك فى ، وأنت أعمى لا ترانى فتعرف حسنى ومقداره ، وأنت قبيح الوجه فلا حظ لى فيك ! فليت شعرى لأى شىء تطلب وصال مثلى

وجعلت تهزأ به فى المخاطبة . فأدى الرسول الرسالة، فقال له : عد إليها فقل لها ... »

ويلى ذلك أبيات شديدة الشناعة(١) ، ولست أحاول أن أبرر قول بشار إياها أو أسامحه عليها . ولكن شناعتها ينبغى ألا تنسينا سوء أدب تلك المرأة، فما كانت تحتاج إلى كل هذا البذاء والتجريح فى رفض طلبه . لاحظ أولا أنها لم تكن امرأة شريفة، فهذه المرأة «المتظرفة» لا ترفض وصال بشار لأن هذا فسق محرم، بل لأن بشارا أعمى قبيح الوجه . ولو كانت امرأة شريفة لما أطالت كل هذه الأطالة على أى حال، فانك تكاد تراها فى كلامها تنثنى وتتخلع فى وقاحة جنسية سافرة .

قالت امرأة لبشار، وواضح من الرواية أنها بدأته دون ما سبب: ما أدرى لم يهابك الناس مع قبح وجهك ! فقال : ليس من حسنه يهاب الأسد ! وهو جواب مفحم نرجو ألا تكون براعته ضاعت على تلك المرأة الصفيقة .

والعجيب أن معاصريه لم ينكروا عليه أن يستمتع بوصال النساء فحسب، بل أنكروا عليه أن يحب وأن يتغزل فى شعره وهو أعمى وله شعر كثير يحاول أن يرد عليهم وأن يثبت لهم أن الأعمى يستطيع تقدير الجمال والاهتزاز له، وسنعرض لهذا الشعر بعد قليل .

مولى

كان بشار مولى اضطهده العرب كما اضطهدوا كل الموالى . وهذا

(١) أغانى دار الكتب ٣/٢٠٢ .

عنصر مهما نقل عن أثره فى تكوين شخصيته فلن نبالغ . وهو بعد
عنصر يستطيع قرائى أن يفهموه دون صعوبة كبيرة إذا أخلصوا
التفكير ، فبعض الأمم العربية لا يزال يرزح تحت نير الحكم الأجنبي ،
وبعضها لم يتحرر إلا من مدة قريبة ، وجميعها لا يزال يذكر العسف
والمهانة التى يوقعها الحكم الأجنبي بالمحكومين . ولكن ما لقيه بشار
وسائر الموالى من إذلال العرب واضطهادهم الاجتماعى لا تزال تجد له
النظائر فى المعاملة التى يلقاها الزنوج من الأمريكيين فى الولايات المتحدة ،
وتلقاها الأجناس الملونة من البيض فى جنوب أفريقا .

كان العرب فى جاهليتهم قوما شديدى الرعونة والعنجهية ، يعدون
ما سواهم من الأمم « أعاجم » أى مخلوقات بكماء لا تتكلم بالكلام
البشرى ، ثم كانوا شديدى الاعتزاز بالنسب فيما بينهم . ثم جاءهم دين
سمح عادل يذهب عنهم حميتهم الجاهلية ويصدهم عن التفاخر بالأنساب .
ولقد كان قصد هذا الدين منذ بدايته أن يخلطهم بالأجانب فى دعوته
الدينية ، فاحترس لهذا أعظم الاحتراس ومضى يثبطهم عن التعالى على
سائر الأجناس البشرية ، ويؤكد لهم تساوى هذه الأجناس كلها جميعا .
ولكن العرب بعد أن قبلوا هذا الدين المسوى لم يراعوا مبادئه بل
ضربوا بتعاليمه فى هذه المسألة عرض الحائط وأبوا أن يصيروا مسلمين
وفضلوا أن يظلوا عربا .

أبى العرب أن يصيروا مسلمين وفضلوا أن يظلوا عربا . فالذى
لاشك فيه أبدا هو أن الاسلام دين التسوية ، التسوية التامة المطلقة
بين جميع معتنقيه ، لا يفرق فيهم بين لون ولون أو بين سلالة وسلالة .

وكل قارىء من قرائى يعرف الآيات القرآنية والأحاديث المتعددة
التى ترد فى هذا الموضوع . من قوله تعالى إنما المؤمنون إخوة (لم يقل
إنما العرب إخوة) . وقوله : إن أكرمكم عند الله أتقاكم (لم يقل أعربكم)
وقول رسوله الكريم كلكم لآدم وآدم من تراب لا فضل لعربى
على عجمى إلا بالتقوى . وقوله المؤمنون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم
أدناهم وهم يد على من سواهم (تأمل جيدا فى كل حكم من هذه الأحكام
الثلاثة) . وغيرها من الآيات والأحاديث القاطعة التى لا تحتمل تأويلا
والتى ليس بعد تصريحها تصريح ، فالخطاب فى الآيات إلى البشر جميعا
لا إلى العرب وحدهم ، والرسول الأمين على وحى ربه زاد الأمر
تفصيلا باستعماله كلمة « آدم » ، فأحكامه تنطبق على بنيه جميعا ، ثم ختم
حكمه باستعماله كلمتى « عربى » و « عجمى » فقطع آخر مبعث للشك .

فكيف أطاع العرب هذه التعاليم القاطعة ؟ هنا أواجه صعوبة
شديدة ، منشأها الحقيق — إن أراد القارىء منى المصارحة التامة —
هو أن الكثيرين منا لا يزالون فى صميمهم متشبعين بالروح الجاهلية
يغلبونها على روح الاسلام ، فينتصرون للعرب فى كل سلوك صدر
عنهم وإن كانت به مخالفة بينة لتعاليم الاسلام . فأغلب الفضائل التى
لا نزال نعطيها الصدارة فى معيارنا الأخلاقى هى الفضائل الجاهلية ،
من الأخذ بالثأر ، واعتبار الشرف الرفيع لا يسلم من الأذى حتى يراق
الدم على جوانبه (كم منا استشهد بهذا البيت الوحشى فى مختلف أطوار
حياته !) والتفاخر بالكرم الجنونى المسرف الذى ينشأ عن التطاول
الاجتماعى لا عن العطف القلبى الصادق ، وأمثالها مما كان الجاهليون

يعدونه فضائل ولا نزال نغلبها على مقاييس الاسلام من الصفح والعفو والمرحمة ، والتواضع والرفق وخفض الجناح والصوت ، والاقتصاد والتعقل فى الانفاق والتوسط بين الغل الكامل والبسط الكامل (كم من أهل قرانا وباديتنا لا يزالون يسرفون فى إكرام الضيف ويفخرون بهذا الاسراف وإن أصاب أهليهم بالضرر البليغ !) ولكننا نكف عن هذا الحديث فلسنا فى مجال الوعظ الدينى ، إنما نكتفى بأن نقول : إن من أجود الأمثلة على أصرارنا على النعرة الجاهلية انحياز الكثيرين منا إلى صف العرب فيما صدر عنهم من ظلم الموالى .

لاشك عندى أن كثيرين من القراء سينفرون من هذا اللفظ الذى وصفت به العرب ، « الظلم » ، فهم قد قرأوا كثيراً وسمعوا كثيرا عن عدل العرب ، وسيبادرون إلى تذكيرى بالوقائع التاريخية التى تبين أن العرب جلبوا إلى الأمم المفتوحة من العدل مالم تعرفه قبل الفتح العربى بقرون طويلة . وكل هذه الوقائع ثابت لا شك فيه ، ولكن « الظلم » الذى أتحدث عنه وأعنيه هو نوع لا ينفيه « العدل » الذى تدل هذه الوقائع عليه ، فالذى أعنيه هو الظلم الاجتماعى ، أى معاملة العرب كأشخاص لأفراد الرعايا التى دخلت تحت نفوذهم كأفراد بشريين .
أما العدل الذى تصوره تلك الوقائع التاريخية فهو العــدل القضائى المحض . فلو قتل عربى أعجميا لاقتص منه القاضى كما لو قتل عربيا مثله ، ولو أصابه بإيذاء جسمى ، أو سرق منه مالا ، أو غمطه فى حق من حقوق الملك ، فشكاه الأعجمى إلى القاضى ، لأعطاه القاضى نصيبه الوافى من الانصاف دون أن يراعى أعجميته أو عروبة خصمه .

فهذا هو نوع العدل الذى حققه العرب ، وهو — بالمناسبة — نوع العدل الذى تفخر بعض الأمم الأوربية الحديثة بأنها حققته فى مستعمراتها ، ولكن هل حققوا العدل بالمعنى الشامل الذى أعنيه ؟ أكانوا يعاملون الأعاجم كأنهم بشر مساوون لهم فى البشرية ؟ أكانوا يلقونهم فى مجالسهم وحفلاتهم ومجتمعاتهم وأنديتهم على قدم المساواة ؟ أكانوا يعطونهم من الاحترام والأدب ما هو حق كل مخلوق بشرى يسمو على الدرك الحيوانى ؟

أما مبادىء الاسلام فى هذا الموضوع فقد رأيتها صريحة قاطعة ، فان أردت أن تعرف مدى استماع العرب لهذه المبادىء الرفيعة فيكفيك أن تقرأ فى الجزء الثانى من العقد الفريد الفصول الأربعة التى يختم بها كتاب اليتيمة فى النسب وفضائل العرب ، لترى شيئين : كيف عامل العرب الموالى ، سواء من العرب عامتهم وخاصتهم ، رعاعهم وفضلاؤهم ، سوقتهم وحكامهم . وكيف حاول بعض مفكرى العرب أن يؤولوا الآيات والأحاديث كى يتخلصوا من أحكام الإسلام فى التسوية المطلقة بين الأجناس بالسفسطة المحضة . وإلا فما ترى فى القطعة الآتية ؟ أليست سفسطة خالصة ؟ :

« رد ابن قتيبة على الشعوبية . قال ابن قتيبة فى كتاب تفضيل العرب : وأما أهل التسوية فان منهم قوما أخذوا ظاهر بعض الكتاب والحديث ، فقضوا به ولم يفتشوا عن معناه . فذهبوا إلى قوله عز وجل إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، وقوله إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ، وإلى قول النبى عليه الصلاة والسلام فى خطبته فى حجة الوداع

أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتفاخرها بالآباء ليس لعربى على أعجمى فخر إلا بالتقوى كلكم لآدم وآدم من تراب ، وقوله المؤمنون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم . وإنما المعنى فى هذا أن الناس كلهم من المؤمنين سواء فى طريق الأحكام والمنزلة عند الله عز وجل والدار الآخرة !! لو كان الناس كلهم سواء فى أمور الدنيا ليس لأحد فضل إلا بأمر الآخرة لم يكن فى الدنيا شريف ولا مشروف ولا فاضل ولا مفضول !!! الخ ... » .

أما معاملة العرب للموالى فيكفى فى توضيحها أن أنقل هذه الفقرات من العقد الفريد ، ويجب أن تلاحظ انها ليست مظالم اخترعها الموالى وألصقوها بالعرب ، بل هى مايقره العرب أنفسهم بل هم يسوقونها فخورين بهذا الأذلال الذى كالوه للموالى :

« وقدم نافع بن جبير بن مطعم رجلا من أهل الموالى يصلى به ، فقالوا له فى ذلك ، فقال انما أردت أن أتواضع لله بالصلاة خلفه . وكان نافع بن جبير هذا إذا مرت به جنازة قال من هـذا ؟ فاذا قالوا قرشى قال واقوماه ، وإذا قالوا عربى قال وابلدتاه ، وإذا قالوا مولى قال هو مال الله يأخذ ما شاء ويدع ما شاء . وكانوا يقولون لا يقطع الصلاة إلا ثلاثة : حمار أو كلب أو مولى . وكانوا لايكنونهم بالكنى ولا يدعونهم إلا بالأسماء والألقاب ولا يمشون فى الصف معهم ولا يتقدمونهم فى الموكب ، وان حضروا طعاماً قاموا على رؤوسهم وان أطعموا المولى لسنه وفضله وعلمه أجلسوه فى طريق الخباز لئلا يخفى على الناظر أنه ليس من العرب . ولا يدعونهم يصلون على الجنائز

إذا حضر أحـد من العرب وإن كان الذى يحضر غريرا . وكان الخـاطب لايخطب المرأة منهم إلى أبيها ولا إلى أخيها وانما يخطبها إلى مواليها فان رضى زوج والا رد ، فان زوج الأب أو الأخ بغير مواليه فسخ النكاح ، وان كان دخل بها كان سفاحا غير نـكاح .. وروى أن عامر بن عبد القيس فى نسكه وزهده وتقشفه وإخباته وعبادته كلمه حمران مولى عثمان بن عفان عند عبدالله بن عامر صاحب العراق فى تشنيع عامر على عثمان وطعنه عليه ، فأنـكر ذلك ، فقال له حمران لا كثر الله فينا مثلك ، فقال له عامر بل كثر الله فينا مثلك . فقيل له أيدعو عليك وتدعو له ؟ قال نعم يكسحون طرقنا ويخرزون خفافنا ويحوكون ثيابنا . فاستوى ابن عامر جالسا وكان متكئا فقال : ما كنت أظنك تعرف هذا الباب لفضلك وزهادتك ، فقال : ليس كل ماظننت أنى لا أعرفه لا أعرفه .... » .

يتجلى فى هذه الفقرات مقدار استهانة العرب بالموالى ، فهم لم يعاملوهم كأنهم خدم أو عبيد بل عاملوهم كأنهم حيوانات احط من جنس الانسان فسووهم بالحمار وبالكلب . ويتضح ان الذين اضطهدوا الموالى لم يكونوا رعاع العرب وحدهم بل جلة علمائهم وأفاضل عبادهم ونساكهم ويتبدى أيضا أنهم لم يقصروا احتقارهم على سوقة الموالى بل أنزلوه برجال الفضل والعلم منهم . فإن يكن منا من يقر هذه المعاملة ويرى مطابقتها لروح الاسلام ونصوصه فهو متعصب أعمته النعرة البغيضة فأثر تعصبه الجاهلى على دينه الاسلامى .

وإليك نصا آخر ينقله(١) الأستاذ أحمد أمين عن الأصفهانى :

---

(١) ضحى الاسلام الطبعة الثالثة ١/٢٦ ، وليرجع القارىء الى هذا الفصل الجيد ففيه أمثلة أخرى كثيرة .

« كانت العرب إلى أن جاءت الدولة العباسية إذا أقبل العربى من السوق ومعه شىء فرأى مولى دفعه إليه ليحمله عنه فلا يمتنع ، ولا السلطان يغير عليه . وكان إذا لقيه راكبا وأراد أن ينزل فعل » .

وتصور مولى جليلا فاضلا راسخ القدر فى العلم يلقاه وضيع من أوشاب العرب فيجرعه هذه المهانة . تصور ماذا يكون شعوره .

فإن أردت نظيرا لهذه المعاملة فى عصرنا الحديث فاقرأ القطعة الآتية أترجمها لك من مقالة نشرت بصحيفة انجليزية[1] يتحدث فيها الكاتب عن اضطهاد الأوربيين للشعوب الملونة فى جنوب أفريقيا ، فيصف جهود الحكومة فى العزل التام بين الأجناس البيضاء والأجناس الملونة كأن هذه نجس يتحاشى البيض أن يدنسهم :

« محطات السكك الحديدية لها أبواب منفصلة وشبابيك للتذاكر منفصلة ، والقطارات بها عربات معزولة ، وبالمحطات كراسى معزولة بل فى دارى البرلمان كراسى معزولة أيضاً . وفى دور البريد شبابيك منفصلة وأكشاك التليفون أيضاً فيها فصل ، وفى العربات العمومية (أتوبيس) مقاعد معزولة . وغير الأوربيين لا يسمح لهم بالاستحمام على شاطىء البحر إلا فى « بلاجات » منفصلة تكون فى العادة قذرة ، ويحرم عليهم دخول البلاجات الواسعة الجميلة المخصصة للبيض . وفى الألعاب الرياضية

---

(١) New Statesman and Nation عدد ٥ أغسطس سنة ١٩٥٠ صفحة ١٤٤ .

بجميع أنواعها يحشد غير الأوربيين فى حظيرة منفصلة ولا يسمح لهم أبداً بمباراة الأوربيين . . . كذلك الفنادق ، والمطاعم ، والمقاهى ، وكل دور السينما الراقية ، ومعظم المسارح . تغلق أبوابها إغلاقا تاما دون غير الأوربيين »[1] .

والعجيب أننا إذ نقرأ هذا الكلام يغلى دمنا غضبا وسخطا على اضطهاد البيض للملونين ، ونصرخ بأعلى صوتنا ضد الاستعمار وآثام الاستعمار وظلم الاستعمار ، ثم يقرأ بعضنا عن استذلال العرب لغير العرب فيرضون به ويبررونه ولا يستثير فيهم غضباً ولا استنكارا . والحقيقة أنه إن كانت النعرة الجنسية قبيحة فهى كذلك بجميع أنواعها ، والذى يستنكر نعرة الأوربيين ولا يستنكر نعرة العرب رجل ما أبعده عن الأنصاف :

ولكن دعك من الأنصاف والعدل والأنسانية . ان رضى أحدنا بانتها كها فهل يرضى أيضاً بتحدى قوانين الشريعة الأسلامية فى مثل المسألة التى تدور حولها القصة الشنيعة الآتية ؟ يرويها صاحب الأغانى فى سيرة الشاعر البدوى الأموى محمد بن بشير الخارجى[2] :

---

(١) لو سمح لنا الفراغ لنقلنا أوصافا أخرى كثيرة لما يحدث فى جنوب أفريقيا وما يحدث فى أمريكا ، وهناك عزل أشنع لم يذكره الكاتب وهو الذى يحدث فى الكنائس ! حتى فى العبادة أمام الله رب الناس جميعا لا يسمحون للزنجى أو الملون بمخالطة سادته البيض ، ومن يدرينا لعل القس يقوم على منبره فيتلو عبارات الإنجيل فى العدل والمساواة . ونظير هذا فعله العرب حين كانوا يقدمون العربى الغرير على المولى المسن فى الصلاة على الجنائز .

(٢) أغانى ساسى ١٤/١٤٤

«قدم أعراب من بنى سليم أقحمتهم السنة إلى الروحاء فخطب إلى بعضهم رجل من الموالى من أهل الروحاء فزوجه ، وركب محمد بن بشير الخارجى إلى المدينة وواليها يومئذ إبراهيم بن هشام بن اسماعيل بن هشام بن المغيرة ، فاستعداه الخارجى على المولى فأرسل إليه ابراهيم والى النفر المسلمين ففرق بين المولى وزوجته وضربه مائتى سوط وحلق رأسه ولحيته وحاجبيه . »

فيمدحه محمد بن بشير بقصيدة يقول فيها: قضيت بسنة وحكمت عدلا.
قضى بسنة وحكم عدلا ! أى سنة قضى بها وأى عدل حكم ؟

ولكن دعك من العدل فمقاييسه قد تختلف وقد يتجادل فيها وخبرنى هل يجيز الأسلام مثل هذا التفريق فى زيجة شرعية صحيحة ؟ أو يحرم الأسلام زواج العربية المسلمة بالمولى المسلم لمجرد أنه مولى ان لم تكن هناك مبطلات أخرى للزواج ؟ بل نظير هذا تجده فى القانون الذى سنته حكومة جنوب أفريقيا فى السنة الماضية تحرم فيه زواج البيض والملونين .

ولو سمح لى حجم الكتاب لملأت خمسين صفحة أخرى بأمثال هذه الشواهد ، ولكنى أكتفى بما تقدم وبإحالة القارىء إلى المرجع الذى ذكرته فسيجد فيه أمورا أخرى .

كان من الموالى أفراد استكانوا للظلم العربى ، كما أنه كان منا أفراد رضوا بالظلم الأوربى وصاروا للاستعمار أذنابا . ولكن الموالى كان منهم أيضاً رجال أبت كرامتهم البشرية أن يعاملوا كالكلاب والحمير ، أبوا أن يذلوا لهذا التعدى فثاروا عليه ولقوا فى ثورتهم هذه صنوف الاضطهاد . ومن هؤلاء بشار .

وهنا أنبه القارىء إلى أن جزءا عظيما من الكراهية التى أثارها بشار فى نفوس معاصريه كان راجعاً إلى اصراره على المحافظة على عزته البشرية ، ورفضه أن يرضخ لتلك المهانة .

ولا بد أن يدرك القارىء أن بشارا لم يبادىء العرب بالخصومة والتعالى ، بل هو قد بذل جهداً كبيرا فى مجاملتهم إلى الحد الذى ترضى به كرامته ، فلما اتضح له من طول ازدرائهم به وتغطرسهم عليه أنهم لن يكتفوا بهذا ، اذ ذاك ثار وأعلن ثورته .

فالقدماء يروون له شعرا يجامل فيه العرب ولا يطعن فيهم . يروى راوية بشار عنه :

« قال . لما دخلت على المهدى قال لى : فيمن تعتد يا بشار ؟ فقلت: أما اللسان والزى فعربيان ، وأما الأصل فعجمى ، كما قلت فى شعرى يا أمير المؤمنين :

ونبئت قوماً بهم إحنة   يقولون من ذا وكنت العلم
الا أيها السائلى جاهدا   ليعرفنى انا أنف الكرم
نمت فى الكرام بنى عامر   فروعى وأصلى قريش العجم
فإنى لأغنى مقام الفتى   وأصبى الفتاة فما تعتصم

لاحظ أولا هذا السؤال الذى يجبهه به المهدى دون ما سبب : فيمن تعتد يا بشار . وأقل مايقال فيه أنه سؤال عديم اللباقة ، فهو يعرف جيد المعرفة أنه مولى ، هذا ان لم يكن يتعمد النيل منه ، وهو فرض قد يؤيده مخاطبته إياه باسمه دون كنية . ثم لاحظ تأدب بشار

فى الجواب ، ومجاملته العرب فى رده النثرى وفى شعره ، يعتز بأصله الأعجمى ولكنه لا يغمط مواليه العامريين حقهم من الثناء ثم أقرأ بقية القصة (١) لتدرك مدى تمسكه بعزة نفسه حتى أمام المهدى لا يخشاه ، حتى هابه فلم يرد عليه .

ويروون له شعراً آخر يمدح فيه قيس عيلان ، والعجيب أنهم يسوقون هذا الشعر شاهدا على تلونه ونفاقه ! ولكن بشارا مافتئت تحدث له أمثال الحادثة الآتية :

« دخل أعرابى على مجزأة بن ثور السدوسى وبشار عنده وعليه بزة الشعراء . فقال الاعرابى : من الرجل ؟ فقالوا : رجل شاعر . فقال : أمولى هو أم عربى ؟ قالوا : بل مولى . فقال الاعرابى : وما للموالى وللشعر ! فغضب بشار وسكت هنيهة ، ثم قال : أتأذن لى يا أبا ثور ؟ قال : قل ما شئت يا أبا معاذ . فأنشأ بشار يقول :

خليلى لا أنام على اقتسار	ولا آبى على مولى وجار
سأخبر فاخر الأعراب عنى	وعنه حين تأذن بالفخار
أحين كسيت بعد العرى خزا	ونادمت الكرام على العقار
تفاخر ، يابن راعية وراع	بنى الأحرار حسبك من خسار
وكنت إذا ظمئت إلى قراح	شركت الكلب فى ولغ الأطار
تريغ بخطبة كسر الموالى	وينسيك المكارم صيد فار
وتغدو للقنافذ تدريها	ولم تعقل بدراج الديار

(١) أغانى دار الكتب ٣ / ١٨٣

وتتشح الشمال للابسيها	وترعى الضأن بالبلد القفار
مقامك بيننا دنس علينا	فليتك غائب فى حر نار
وفخرك بين خنزير وكلب	على مثلى من الحدث الكبار

فقال مجزأة للأعرابى : قبحك الله ، فأنت كسبت هذا الشر لنفسك ولأمثالك » .

هذه قصيدة تقطر سما وتتلظى غضباً . ولكن أى غضب هو؟ غضب النفس الأبية لا تقبل الهوان ، والرجولة الحقة ترفض الأذلال . لاحظ أولا من البادىء فى هذه القصة . هذا بشار يجلس فى مجلس الأمير العربى آمنا مسالما ، فيدخل عليه ذلك الأعرابى الجلف الأرعن ويأبى إلا إساءته دون ما استفزاز . ثم لاحظ أدب بشار ، يستأذن الأمير العربى أولا ، فاذا أذن له قصر ذمه، حتى فى هذه الحالة النفسية الهائجة ، على الأعراب ولم يعمم الحديث عن العرب .

فان أردت أن تفهم عاطفة هذه القصيدة حق الفهم فلا بد أن تتذكر أن بشارا لم يكن مولى عاديا ، بل كان مفكراً ممتازا ومثقفا واسع الثقافة ، وكان شاعرا فى اللغة العربية من أقطاب شعرائها دون ما شك . والذى لاشك فيه أن اتقانه للسان العربى . وبصره باللغة وأسرارها ، وامتلاكه للأسلوب العربى وقدرته على تصريفه ، وعلمه بتاريخ الأدب العربى وحفظه لنثره ولشعره ، كان أعظم بكثير مما أتيح لذلك الأعرابى الجاهلى الشرس المعتز بعروبته . ولعل بشارا فى

اتقانه للثقافة العربية الأصيلة أجدر بأن يعتز بها من ذلك الأعرابى القح وإن كان أصله نصف فارسى ونصف عربى .

وهذا هو الذى يغيظ بشارا أعظم الغيظ ، أن يفخر عليه مثل هذا البدوى الجاهل الخشن . لو فخر عليه عربى مثقف لما آلمه بهذه الدرجة .

لا جرم أن ينتهى بشار إلى الحقد على العرب جميعاً ، وإعلان ثورته عليهم » والتبرؤ من ولائهم ، ودعوة سائر الموالى إلى مثل هذا التبرؤ ، فيقول هذه الأبيات الرفيعة :

أصبحت مولى ذى الجلال وبعضهم	مولى العريب فخذ بفضلك فافخر
مولاك أكرم من تميم كلها	أهل الفعال ومن قريش المشعر
فارجع إلى مولاك غير مدافع	سبحان مولاك الأجل الأكبر

لست أعرف فى الشعر العربى كله ما يفوق هذه الأبيات فى جلالها ، ولا أعرف ما يقاربها فى مناداتها بالكرامة الانسانية واصرارها على التمسك بالعزة البشرية . لاحظ قول بشار « أصبحت » ، فهو يدل على أنه لم يبدأ بمعاداة العرب إنما انتهى إلى هذا بعد أن أعيته محاولته فى مجاملتهم والاحتفاظ بمستلزمات المودة والتحاب معهم . ولاحظ أنه هنا ليس يفخر — كما فخر فى أبيات سابقة — بأصله الفارسى ، إنما يفخر بإنسانيته ، يفخر ببشريته العزيزة التى وهبها له الله . فهو هنا لا يغلب فرساً على عرب ، إنما ينادى بالكرامة الانسانية جمعاء ، ولا يدعو الموالى إلى انتباذ ولاء العرب كى يعتزوا بأصلهم الفارسى ،

إنما يدعوهم إلى أن يعتزوا ببشريتهم ، هذا القبس السامى الذى تكرم به عليهم خالقهم الله جل وعلا هو وحده المولى[1] .

مضطهد

لن أحاول فى دراستى هذه تبييض صفحة بشار من كل عيب . إنما الذى أريد أن أدعيه هو أن بشارا قد أسىء إليه أكثر مما أساء هو إلى غيره ، وأنه لو لقى معاملة خيرا مما لقى لتغيرت شخصيته تماما ، فالحقيقة التى ينبغى أن يدركها القارىء الآن هى أن بشارا ظل طول حياته — منذ صباه إلى مماته — مضطهدا ، بكل ما تحمل هذه الكلمة من معان .

---

(١) هناك حقيقة هامة أحب أن أنبه إليها القارىء . وهى أن اضطهاد العرب للموالى لم ينته بانتهاء الحكم الأموى ، فقد بقى بعد هذا زمنا طويلا برغم أن السلطة الفعلية زالت من أيديهم بانقضاء ذلك الحكم . والحوادث التاريخية التي أشرنا إليها وسقنا بعضها تشهد بذلك ، وسببه ليس صعب الفهم ، فان العرب لم يفهموا المغزى الحقيقى لانهيار الحكم الأموى بمجرد حدوثه ، بل ظنوه مجرد تحول الحكم من بيت قرشى إلى بيت قرشى آخر . فظلوا فى غطرستهم واضطهادهم حتى حوالى عهد المأمون وهو العهد الذى تحقق فيه قدر عظيم من المساواة الجنسية ، وشجعهم على هذا أن الخلفاء العباسيين الأول كانوا عربا تعصبوا للعرب ؛ وإذا نحن الآن فى دراستنا التاريخية المتعمقة الذين نستطيع أن نفهم المغزى الحقيقي لزوال الحكم الأموى . ونظير هذا تجده فى العصر الحديث فى الغطرسة التى لاتزال تصدر عن كثير من البريطانيين ، لا يفهمون بعد أن عهد التسلط البريطانى قد انتهى ، وأن امبراطوريتهم قد بدأت فعلا فى الانحلال . فبشار إذن لم يضطهد من أجل أصله الأعجمى فى زمن الأمويين وحدهم ، بل ظل يضطهد فيما عاشه من حياته تحت العباسيين .

نقرأ مثل هذه القصة :

« عن الحكم بن مخلد بن حازم قال : مررت أنا ورجل من عكل من أبناء سوار بن عبد الله بقصر أوس . فاذا نحن ببشار فى ظل القصر وحده ، فقال لى العكلى : لا بد لى من أن أعبث ببشار ، فقلت له : ويحك ! مه لاتعرض بنفسك وعرضك له . فقال : انى لا أجده فى وقت أخلى منه فى هذا الوقت . قال : فوقفت ناحية ودنا منه فقال : يا بشار ! فقال : من هذا الذى لا يكنينى ويدعونى باسمى ؟ قال : سأخبرك من أنا ، فأخبرنى أنت عن أمك ، أولدتك أعمى أم عميت بعد ما ولدتك ؟ قال : وما تريد إلى ذلك ؟ قال : وددت أنه فسح لك فى بصرك ساعة لتنظر الى وجهك فى المرآة ، فعسى أن تمسك عن هجاء الناس وتعرف قدرك . فقال : ويحكم ! من هذا ؟ أما أحد يخبرنى من هذا ؟ فقال له : على رسلك ! أنا رجل من عكل وخالى يبيع الفحم بالعبلاء ، فما تقدر أن تقول لى ؟ قال : لاشىء ، اذهب بأبى أنت فى حفظ الله » .

فنقول : فرد من سفلة الناس يعبث بأعمى كما يعبث أمثاله بالعميان ولا يستشهد به على كل بيئة بشار . ولكننا نعود فنتأمل القصص الأخرى التى رويناها فى الصفحات الماضيات ، ونتأمل أمثالها مما تفيض به سيرة بشار ، فننتهى مرغمين إلى أن نقرر أن الاضطهاد الذى لقيه بشار كان اضطهادا عاما لقيه من مختلف طبقات الناس فى عصره . اضطهده سفلتهم لعماه ، واضطهده جميعهم لقبحه وفظاعة منظره ، واضطهده العرب منهم لمولويته واصراره على كرامته ، واضطهده جميع

المسلمين لما اعتقدوه فيه من الزندقة والالحاد . ورجل يلقى مثل هذه المعاملة طول حياته يندر جدا أن يحتفظ على الرغم منها بعاطفة الصفح والمسامحة ، بل يغلب عليه أن يصير عظيم المرارة شديد الحقد على مجتمعه ، وان يتسمم شعوره نحو الانسانية عامة . فان انتهى الى مثل هذا فهل نستطيع منصفين أن نلومه ؟

مبخوس

ولكن الاضطهاد الذى لقيه بشار لم يقتصر على كرامته كرجل ، بل تعداه إلى منزلته كشاعر . وهذا ادعاء منى سيدهش الكثيرين ، فهم يقرأون عن اعجاب القدماء بشعره واعترافهم له بتقدمه طبقات المحدثين فيظنون أنه نال هذا التقدير الاجماعى فى حياته . ولكننا ان أنعمنا النظر فى هذه الأحكام فسنجد كثرتها الغالبة مما قيل بعد وفاته ، أما فى حياته فقد ظل مبخوسا ، فان كان نال نصيبا من التقدير ففى أواخر أيامه ، ولم يكن قط باجماع العلماء ، والذين سلموا له بشىء مما يستحقه انما فعلوا ذلك مضطرين إذ تخوفوا هجاءه ، فثناؤهم ثناء غير مخلص .

وقد كان لذلك البخس الذى منى به شعر بشار أسباب متعددة . منها أن علماء عصره لم يستطيعوا التفريق بين شخصيته البغيضة إليهم وبين قيمة شعره فى ذاته ، وهذا عامل لا نستطيع أن نسرف فى لومهم من جهته ، فكثيرون من عظام الأدباء لايظفرون بالتقدير الصحيح الذى يستحقونه فى حياتهم ، والحزازات الشخصية كثيرا ما تطغى على نظرة المعاصرين ، نجد هذا لا فى الأدب العربى وحده بل فى آداب

أخرى كذلك ، بل نقادنا الأحياء لا يزالون يظلمون بشارا برغم انقضاء تلك الحزازات وزوال أسباب العداوة الشخصية ، فما بالك بمن عاشروه وآذوه ونالهم منه الأذى .

ومنها النزعة التجديدية الشديدة التى تجلت فى الكثير من شعره ، وهى نزعة لم ترض أئمة اللغة والأدب فقد كانوا محافظين ازعجهم هذا الأسلوب الجديد المبالغ فى السهولة وظنوه ركاكة وضعفا ، فالحق انك ان تدبرت سيرة بشار وجدت الرواج الذى لقيه شعره فى عصره كان مقصورا على اوساط العامة والشبان والنساء لم يتعدها إلى اوساط العلماء المتخصصين فى الرواية والشعر . بل لعل رواجه بين العامة زاد من انتقاص العلماء له ، اما هؤلاء العلماء فقد حملوا عليه حملة طويلة وكثر انتقادهم لما اعتقدوا فيه من التهافت والحشو والركاكة ، ولم يغير بعضهم رأيه إلا بازاء هجاء بشار كما ذكرنا . ولم يبدأ هؤلاء العلماء فى تغيير رأيهم عن إخلاص واقتناع إلا بعد وفاته ، حين زالت شخصيته البغيضة التى طالما أقضت مضاجعهم ، ومضى زمن كاف يتروون فيه وينعمون النظر فى شعره ويستكشفون ميزاته الحقة ويقبلون تجديداته ويتغلبون على عدائهم الغريزى لكل جديد . بل بعد وفاته بزمن طويل ظل بعضهم يعيب شعره ويرفضه لخروجه عن جادة الأسلوب البدوى المتين ، فيروى أن اسحق الموصلى كان لا يعتد ببشار ويقول هو كثير التخليط فى شعره وأشعاره مختلفة لا يشبه بعضها بعضا . ومعنى هذا أنه رفض شعر بشار التجديدى ولم يقبل إلا قصائده التى يقلد فيها أسلوب البدو . ويروى أيضا أن اسحق هذا كان يقدم على بشار مروان

ابن أبى حفصة ويقول هذا أشد استواء شعر منه وكلامه ومذهبه أشبه بكلام العرب ومذاهبها . وليس بعد جملته هذه حاجة إلى التدليل على سبب رفضه لشعر بشار ، وهو النزعة التقليدية المسرفة . ومن الطريف أن نرى أن اسحق كان يرفض أيضا أبا نواس ، وهو المجدد الثانى العظيم فى الشعر العربى ، فيروى أنه « كان لا يعد أبا نواس البتة ولا يرى فيه خيرا » .

ومنها أنه مولى ، ولم يكن العرب قد أدركوا بعد أن الثقافة العربية بجميع فروعها لم تعد ارثا موقوفا على العرب الأقحاح بل صارت ملكا مشاعا لكل الأجناس التى تعلمت العربية ، ولا هم أدركوا أنه قد بدأ عهد سيكون عظام شعرائه وأدبائه من الموالى ، أو أن معظم رجال الفكر والفلسفة والعلوم سيكونون من غير العرب . ظن بعض معاصرى بشار أنه بكونه مولى يستحيل عليه أن يبرز فى الشعر والأدب تبريز العرب . وهذا واضح فى القصة التى رويناها عن الأعرابى يقول وما للموالى وللشعر . وقد كانت عقيدتهم هذه متولدة عن ظنهم أن فى الأصل الجنسى ميزة طبيعية تقرر مدى اتقان الفرد للغة ، لم يدركوا أن الأمر كله محصور فى مدى تعلم الفرد للغة وتدربه منذ طفولته على أسلوبها الصحيح . وهذا منهم ظن لا نستطيع أن نبالغ فى لومهم عليه فالكثيرون منا فى عصرنا هذا لا يزالون يعتقدون أن للأصل الجنسى ميزات ثقافية بطبيعة الوراثة . ومن الطريف أن صاحب الأغانى يروى خبراً عن رجل يتعجب من صحة شعر بشار وسلاسته من الأخطاء اللغوية برغم أن العرب أنفسهم أتوا فى أشعارهم بألفاظ مشكوك

فى صحتها . فأجابه بشار : « ومن أين يأتينى الخطأ ؟ ولدت هاهنا ونشأت
فى حجور ثمانين شيخا من فصحاء بنى عقيل ما فيهم أحد يعرف كلمة
من الخطأ ، وإن دخلت إلى نسائهم فنساؤهم أفصح منهم ، وأيفعت
فأبديت (١) إلى أن أدركت ، فمن أين يأتينى الخطأ ! » ونحن فى ضوء
علمنا الحديث نسرع إلى قبول احتجاجه هذا ، فالذى ينشأ هذه النشأة
وتتوفر له هذه الفرص لتعلم الأسلوب العربى الصحيح يستطيع أن
يتقنه بما لا يقل عن أتقان أهله وأن يكن أصله غير عربى .

على أن أعجب الأسباب التى حملت معاصريه على الانتقاص من
شعره هو عماه . إذ ظنوا أن عاهته تقصر بالضرورة شأوه عن شأو
المبصرين ، واعتقدوا انه ان اجتمع شاعر مبصر وشاعر اعمى فالمبصر
بالضرورة اعلى كعبا فى الشعر ، فالذى يصف مايرى يكون اقدر واعظم
اتقانا من الذى يصف مالا يرى . ثم تأملوا فوجدوا معظم شعر بشار
فى الغزل ، فازدادوا فى عقيدتهم هذه يقينا : او ليس من البديهى ان
الغزل فن لا يستطيع ان يجيده إلا الذى يرى النساء ويبصر جمالهن ؟
بل بعض النسوة اللائى احبهن بشار استنكرن عليه ان يحبهن ويتغزل
فيهن وهو لا يراهن .

ولبشار شعر كثير يحاول فيه بإلحاح وتكرار ان يصحح هذه
الفكرة الخاطئة ، وأن يثبت أن الأعمى يستطيع أن يتصور وأن
يؤدى تصوره هذا . فالأعمى لايحرمه عماه ملكة الخيال ، بل له ملكة

(١) أخرجت إلى البادية .

خيال كما للمبصر ملكة خيال ، وإن كانت بالطبع مختلفة . فالخيال عند
المبصر مشتق معظمه من البصر والصور المنظورة ولكن البصر ليس
كل شىء ، فهناك احساسات أخرى وإن يكن هو أعظمها . فالأعمى
عنده حاسة السمع وحاسة الشم وحاسة اللمس والذوق ، والأعمى
يكون لنفسه من هذه الإحساسات صورة ذهنية تتداعى إلى مخيلته حين
يفكر فى شخص أو فى شىء كما يتداعى إلى مخيلة المبصر منظر ذلك
الشخص أو الشىء . وهذه الصورة الذهنية تكون جميلة إذا فكر فى
امرأة جميلة وقبيحة إذا فكر فى امرأة قبيحة ، وهو يستطيع أن يصف
هذه الصورة ويحاول اداءها وتحديدها بالألفاظ .

ثم يناقش بشار مسألة الحب خاصة . هل صحيح أن المبصر وحده
يستطيع تقدير جمال النساء وبالتالى يستطيع أن يغرم بهن ؟ بل الأعمى
أيضا يستطيع أن يقدر المرأة الجميلة ، بما يصل إلى إحساساته من
صوتها وعطرها ومس جلدها وذوق شفتيها ، دعك من استماعه لوصف
المبصرين لها واستطاعته تمثل هذا الوصف تمثلا خاصا . ويضيف بشار
إلى هذا كله حقيقة لاشك فيها . أن البصر لدى المبصرين أنفسهم ليس
له قيمة كبيرة فى تقدير حبهم للمرأة او نفورهم منها . فكم يحبون نساء
لسن جميلات الصورة ، وكم يظلون فاترين امام نساء رائعات المنظر ،
فالحب لا يمكن تفسيره بجمال المحبوبة المنظور ، بل هو نزعة وجدانية
ولهفة جسدية وروحية إلى الأنثى تتكون من عناصر كثيرة ليس البصر
سوى احدها .

وشعر بشار فى هذا الموضوع مشهور وقد جمعه نقادنا المحدثون ، فنكتفى هنا ببعضه . تأمل قوله :

يا قوم أذنى لبعض الحى عاشقة   والأذن تعشق قبل العين أحيانا
قالوا بمن لا ترى تهذى فقلت لهم   الأذن كالعين توفى القلب ما كانا
هل من دواء لمشغوف بجارية   يلقى بلقيانها روحا وريحانا

فقوله : الأذن كالعين توفى القلب ما كانا، معناه أن السمع مصدر للمعرفة كما أن البصر مصدرها . فالموجودات — ويعبر عنها بقوله : ما كانا — تصل إلى ملكتنا العارفة لا عن طريق العين وحدها بل عن طريق الأذن أيضاً . ويستعمل « القلب » حيث نستعمل نحن الذهن أو العقل . وقوله : يلقى بلقيانها روحا وريحانا ، معناه : صحيح أنى لا أستطيع ان أراها ولكن لها جمالا كثيرا آخر خلاف الجمال المنظور يصلنى عن طريق مالى من حواس .

وقوله :

قالت عقيل بن كعب إذ تعلقها   قلبى فأضحى به من حبها أثر
أنى ولم ترها تهذى ؟ فقلت لهم   ان الفؤاد يرى ما لا يرى البصر

فالشطر الأخير معناه أن الفؤاد ، أو كما نقول نحن الآن العقل أو الذهن، يستطيع أن يتقبل إحساسات أخرى غير الأحساس البصرى، وأن يتخيل موجودات لم يؤدها إليه البصر .

وقوله :

يزهدنى فى حب عبدة معشر   قلوبهمو فيها مخالفة قلبى

فقلت دعوا قلبى وما اختار وارتضى   فبالقلب لا بالعين يبصر ذو الحب
فما تبصر العينان فى موضع الهوى   ولا تسمع الأذنان الا من القلب
وما الحسن إلا كل حسن دعا الصبا   وألف بين العشق والعاشق الصب

الأبيات الثلاثة الأولى منها واضحة لا تحتاج إلى شرح . أما البيت الأخير فيزيد على كل الحجج الماضية حجة جديدة ، هى هذه : ليس الحسن الجسدى هو كل شىء فى الحب ، فعاطفة الحب لا يستثيرها مجرد جمال المرأة الجسمانى ، منظورا كان أو مسموعا او ملموسا او مشموما ، إنما تستثيرها دواع أخرى غريبة مبهمة ، من نشوة الشباب إلى الشباب ، وما ينتج بين المحبوبين من ألفة روحية عجيبة تزيد على مجرد الاستمتاع الجسدى . فدعاء الشباب إلى الشباب ، وحنين الحبيب إلى الحبيب ، وما إلى هذا من دوافع وجدانية تكون بين المحبين ذلك الشعور المعقد العميق الذى نسميه الحب، والذى ليس الاستمتاع النظرى، بل ليس الاستمتاع الحسى جميعه ، سوى عنصر واحد من عناصره .

قد نكون أطلنا فى هذا الموضوع وان يكن خارجا عما نحن بسبيله الآن من تحقيق شخصية بشار ، ولكننا اضطررنا إلى هذه الأطالة حتى نؤكد هذه الحقيقة الهامة التى كان لها أثر كبير فى تكوين شخصيته ، وهى أنه لم يفز فى حياته بما اعتقد انه جدير به من التقدير الأدبى . فشاعر يلجأ إلى كل هذا الاحتجاج الطويل المتكرر لا بد انه عانى كثيرا من انتقاص الناس لشعره بسبب عماه .

حساس

الحقيقة التى غابت على معاصرى بشار ، والتى غابت على ناقدينا المحدثين ايضاً ، هى ان بشارا برغم غلاظة جسمه وضخامة جثته كان عظيم الحساسية . امامعاصروه فى نقص معلوماتهم وثقافتهم فقد نسامحهم ، فهم رأوه ضخما هائل الجثة كأنه الفيل اوكأنه الجاموس ، فظنوا ان غلاظة الجسم تتبعها غلاظة الحس وبلادة الشعور . واما ناقدونا فلا نسامحهم ، فان لهم من وسائل العلم الحديث ما يريهم ان هذا لا يستتبع بالضرورة هذا . فكم من ضخم رقيق الشعور . وكم من نحيل فاتر بليد الحس .

أما حساسية بشار فكانت فى قدر منها الحظ الذى يتاح لكل أعمى من ارهاف الاحساسات الأخرى إذ يضطر الى استعمالها مستعيضا بها عن حاسة النظر فتنمو بالاستعمال المكثر . وهذا يتجلى فى القصص الآتية التى تروى عنه :

« مر ابن أخى بشار به ومعه قوم ، فقال لرجل معه : من هذا ؟ فقال : ابن أخيك . قال : أشهد أن أصحابه أنذال . قال . وكيف علمت ؟ قال . ليست لهم نعال » .

ولكنك لاتقدر مبلغ دلالة هذه القصة على دقة حسه ان لم تعرف أن النعال التى كان يلبسها العرب لم تكن كأحذيتنا الغليظة الثقيلة التى يسمع لها صوت لايخطأ ، بل كانت رقيقة خفيفة المس جدا تكاد لاتزيد عن وقع القدم الحافية . كذلك الطرق التى كانوايسيرون عليها فى مدنهم ، لم تكن كطرقنا المعبدة التى يرن عليها صوت القدم ،

بل كانت رملية وعثة تمتص معظم الصوت . فبشار برغم هذا يسمع صوت أقدامهم فيستطيع أن يحكم بأنهم يمشون حفاة لانعال لهم .

وقصة أخرى :

« عن أبى دهمان الغلابى قال : مررت ببشار يوما وهو جالس على بابه وحده وليس معه خلق وبيده مخصرة يلعب بها وقدامه طبق فيه تفاح وأترج . فلما رأيته وليس عنده أحد تاقت نفسى إلى أن أسرق مابين يديه . فجئت قليلا قليلا وهو كاف يده حتى مددت يدى لأتناول منه . فرفع القضيب وضرب به يدى ضربة كاد يكسرها . فقلت له : قطع الله يدك يابن الفاعلة ! أنت الآن أعمى ! فقال : ياأحمق فأين الحس ! »(١) .

والقصة التى رويناها عن بشار يهدى فيها مبصرا إلى منزل لايعرفه تدل أيضا على هذا النصيب من الحس الدقيق الذى ينمو فى معظم العميان تعويضا عما فقدوه . ولكن الارهاف الحسى لايكون كل شىء بل يتبعه فى العميان ارهاف نفسانى ، فتجد أغلبهم على درجة من قابلية التأثر والانفعال أكبر مما يتوفر لمعظم المبصرين . وهذا ما يغفل عنه المبصرون دائما ، لايدركون ان الأعمى يتأذى من أشياء كثيرة يقبلها المبصرون دون تضرر كبير . فالمبصر إذاسقط من يده شىء ، أو أخطأ وضع شىء على مائدة فهوى وتحطم ، أو أخطأ تقريب كوب من فمه فأهرق بعض ما فيه ، أو تعثر فى حصاة فى الأرض ، أوحدث له مايشابه هذه الحوادث التى تلم بنا فى كل يوم ، لم يهتم لها كثيرا وينساها بعد دقائق قليلة ، أما الأعمى فهى تؤلمه ايلاما لايستطيع المبصر أن يقدره

(١) ولا تنس أن تتأمل فى هذه القصة مثلاجديدا لاضطهاد الناس إياه بسبب عماه .

تمام التقدير . على أننا لم نسق إلا أمثلة قريبة سهلة القبول ، ولكن تجارب الأعمى فى حياته لاتقتصر على أمثالها بل تتعداها إلى أشياء كثيرة لاتقوم مباشرة على حاسة النظر .

والعجيب أن المبصرين لايقتصر الخطب فيهم على أنهم لايدركون أن الأعمى يزيد عليهم حساسية ، بل هم يظنون أنه لا بد أن يكون بسبب عماه أقل قدرة على التأثر العاطفى والانفعال منهم ! وهذا فى أحيان كثيرة هو سبب إرهاقهم للعميان ، لا يصدر هذا عن تعمد للايذاء فى كل حال ، بل يصدر أيضا عن ظن بأن الأعمى لن يتأثر منه كما لو كان مبصرا . ويزيد من رسوخ هذه الفكرة عندهم أن العميان كثيرا مايضطرون بسبب عجزهم عن الانتقام إلى كظم غيظهم والتجمل بالصبر ، بل يضطر بعضهم إلى الابتسام فيزيد المبصرين اعتقادا بأنه ليس فى حساسيتهم وتأثرهم .

ولكن حساسية بشار كانت أعظم من هذا القدر المعهود لدى العميان ، إذ ضاعفها شعوره بدمامة خلقته وغلاظة جسمه وكراهية الناس لهذه الصفات ممزوجة بعماه . وقد قلنا من قبل أنه لو كان أعمى وسيم الوجه أو عادى البنية لما ناله كل ما ناله من الأذى . أضف إلى هذا كله مولويته وخساسة أبيه وولادته على الرق . لا جرم أن بلغت حساسية بشار حدا زائدا ، ونفس هذه الحساسية هى ما أخطأ القدماء فهمه وظنوه جبنا ، وتبعهم فى خطأهم نقادنا المحدثون ، وهو ليس جبنا بل هو تأثر زائد من خوف الهجاء بسبب عماه . فالقصة التى رويناها عن صانع الجام الذى هدده بأن يصوره على باب داره بخلقته

الشنيعة ، ومن خلفه قرد ، ليس انزعاج بشار فيها صادرا عن جبن بل عن احساس زائد بمقدار دمامته وتأذ مفرط من أن يهاجم من هذه الناحية . ومن هذا الصنف أيضا القصتان التاليتان أن أحسنت تفهمهما :

« كان بشار يعطى أبا الشمقمق فى كل سنة مائتى درهم . فأتاه أبو الشمقمق فى بعض تلك السنين فقال له : هلم الجزية يا أبا معاذ . فقال : ويحك ! أجزية هى ؟ قال: هو ما تسمع . فقال له بشار يمازحه : أنت أفصح منى ؟ قال لا . قال : فأعلم منى بمثالب الناس ؟ قال : لا . قال : فأشعر منى ؟ قال : لا . فقال فلم أعطيك ؟ قال : لئلا أهجوك . فقال له : إن هجوتنى هجوتك . فقال له أبو الشمقمق [شعرا لانستطيع روايته] ... فوثب بشار فأمسك فاه وقال : أراد والله أن يشتمنى ! ثم دفع إليه مائتى درهم ثم قال له: لا يسمعن منك هذا الصبيان يا أبا الشمقمق ».

قد يكون بشار أفصح من أبى الشمقمق وأعلم منه بمثالب الناس وأشعر منه ، ولكن أبا الشمقمق يستطيع أن يناله من حيث لا يستطيع بشار أن يناله ، من دمامته وعماه ومن خسة اصله . والقصة الثانية عن أبى الشمقمق أيضا :

« امر عقبة بن سلم لبشار بعشرة آلاف درهم ، فأخبر ابو الشمقمق بذلك فوافى بشارا فقال له : يا ابا معاذ ، إنى مررت بصبيان فسمعتهم ينشدون :

هللينه   هللينه   طعن   قثاة   لتينه

إن   بشار بن برد   تيس اعمى   فى سفينه

فأخرج إليه بشار مائتى درهم فقال : خذ هذه ولا تكن رواية الصبيان يا ابا الشمقمق ! »

وليس ادل على ما نقول من القصة التى تروى فى تهاجيه مع حماد عجرد ، وهى وحدها فى هذا الموضوع قاطعة . فهم يروون أنه لما هجاه حماد ببيته :

ويا اقبح من قرد   إذا ما عمى القرد

بلغ تأثر بشار ان بكى ، فقيل له أتبكى من هجاء حماد ؟ فقال : والله ما ابكى من هجائه ولكنى أبكى لأنه يرانى ولا اراه فيصفنى ولا أصفه .

ولكن حساسية بشار لم تكن مقتصرة على هذا القدر الناجم عن العمى أو عن الشعور بالدمامة أو النقص الذى أحس به بسبب أصله الأعجمى وخساسة ابيه . بل كانت اعمق من هذا بكثير . لم تكن حساسية مكتسبة بل كانت حساسية أصيلة وجدت فى طبيعة تكوينه . كانت حساسية من النوع الممتاز النادر الذى يوجد لبعض الأفراد ولو كانوا مبصرين أو ملاح الوجوه . كانت حساسية الفنان الممتاز ، هذا الارهاف الشعورى والعاطفى والذوقى الذى يتاح لبعض الأفراد فيجعلهم من عظماء الشعراء أو الرسامين أو الموسيقيين او غيرهم من أصناف الفنانين . وهى صفة ستتجلى لنا حين ندرس شعر بشار فى القسم الثانى من هذا الكتاب ، فسنرى فى هذا الشعر دليلنا النهائى على انه لم يكن غليظ الحس او جهم الشعور .

أبي

كما اخطأ معاصروه فهم حساسيته فظنوه لضخامة جسمه غليظ الشعور ، كذلك اخطأوا فهم عزته النفسية وتمسكه بكرامته وظنوها صلفا بغيضاً وغرورا . فقد صعب عليهم ان يفهموا أنفة هذا الأعمى القبيح وعهدهم بالعميان رضوخين صابرين كاظمين ، وأحنقهم ان يجدوا هذا المولى الذى ولد على الرق يأبى ان يعطى سادته العرب ما يتطلبون من التذلل والخنوع .

ولكن ان كان معاصروه قد التبس عليهم الأمر فخلطوا بين الاباء والغطرسة ، وبين الشمم والصلف ، وبين الاعتداد بالنفس والغرور ، فان هذا ينبغى أن لا يختلط علينا نحن الذين تفصلنا عنهم وعنه مئات السنين ، ضاعت فيها كل تلك الأحقاد الشخصية وزال أصل تلك النعرات الجنسية . فالحق أن كل ما نجده لبشار فيما يرويه عنه القدماء لا يخرج عن اصرار رجل أبى على المحافظة على كبريائه البشرية . فان زاد عن هذا فهو مجرد مبالغة فى الادعاء من رجل اضطر إلى هذه المبالغة اضطرارا لما لقيه من الاضطهاد والمهانة . وهى مبالغة خليق بها أن تحملنا على العطف والرثاء لا على الكراهية والذم .

هذه بقية القصة التى رويناها عن بشار أمام المهدى . بعد أن أنشد أبياته الأربعة :

ونبئت قوما بهم إحنة   يقولون من ذا وكنت العلم
ألا أيها السائلى جاهدا   ليعرفنى أنا أنف الكرم

نمت فى الكرام بنى عامر   فروعى وأصلى قريش العجم
فانى لأغنى مقام الفتى   وأصبى الفتاة فما تعتصم

تستمر القصة :

« وكان أبو دلامة حاضرا فقال : كلا ! لوجهك أقبح من ذلك ووجهى مع وجهك . فقلت : كلا ! والله ما رأيت رجلا أصدق على نفسه وأكذب على جليسه منك . والله إنى لطويل القامة عظيم الهامة، تام الألواح أسجح الخدين ، ولرب مسترخى المذروين(١) للعين فيه مراد قد جلس من الفتاة حجرة(٢) وجلست منها حيث أريد . فأنت مثلى يامرضعان(٣) قال : فسكت عنى . ثم قال لى المهدى : فمن أى العجم أصلك ؟ فقلت من أكثرها فى الفرسان ، وأشدها على الأقران ، أهل طخارستان . فقال بعض القوم : أولئك الصغد . فقلت : لا ، الصغد تجار . فلم يردد ذلك المهدى . »

أفترى فيها شيئاً سوى أنفة مشروعة ؟

وتأمل أيضاً فى القصة الآتية :

« أنشد بشار جعفر بن سليمان :

أقلى فانا لاحقون وإنما   يؤخرنا أنا يعد لنا عدا

---

(١) المذروان : طرفا الأليتين ، ويريد شابا سمينا منعما حسن المنظر .

(٢) حجرة : ناحية، أى لم تقربه منها.

(٣) المرضعان : اللئيم .

وما كنت إلا كالأغر ابن جعفر   رأى المال لا يبقى فأبقى به حمدا

فقال له جعفر بن سليمان : من ابن جعفر ؟ قال الطيار(٤) فى الجنة. فقال : لقد ساميت غير مسامى ! فقال : والله ما يقعدنى عن شأوه بعد النسب ، لكن قلة النشب ، وانى لأجود بالقليل وان لم يكن عندى الكثير ، وما على من جاد بما يملك ألا يهب البدور . فقال له جعفر : لقد هززت أبا معاذ ! دعا بكيس فدفعه إليه . »

هذه القصة أيضاً ليس فيها سوى اصرار من الرجل على أبائه ، وما فيها من فخر بالكرم صادق كل الصدق كما سنتبين فيما بعد. ولكن ان كان جعفر بن سليمان قد أعجبه قول بشار وأثابه عليه ، فان غيره من معاصريه كان يغيظهم مثل هذا الاعتداد بالنفس ويعدونه غطرسة لا تطاق بل لعلهم عدوه إلحادا وكفرا ! أولا يسامى هذا الأعجمى الخسيس رجلا من صميم البيت النبوى ؟

أما القصة الآتية :

« محمد بن الحجاج قال : قلت لبشار : انى أنشدت فلانا قولك :

إذا أنت لم تشرب مرارا على القذى   ظمئت وأى الناس تصفو مشاربه

---

(٤) الطيار : لقب جعفر بن أبى طالب ، عوض عن يديه اللتين قطعتا فى غزوة مؤتة جناحين يطير بهما مع الملائكة .

فقال لى : ما كنت أظنه إلا لرجل كبير . فقال لى بشار : ويلك ! أفلا قلت له هو والله لأكبر الجن والأنس ! »

فأى شىء فيها سوى تزيد فى الفخر ناشىء عن رد فعل شديد إذ رمى بأنه رجل صغير . كذلك ما يروى أنه سمع جارية تغنى فى شعر له فطرب وقال هذا والله أحسن من سورة الحشر . أو طرب وقال هذا والله أحسن من فلج يوم القيامة . ليس فيها سوى جموح فى التعبير دفعه إليه طول ما لقيه من مساءة واذلال لشخصه وانتقاص لقيمة شعره . أفيؤاخذ مؤاخذة عسيرة إذا جمح لسانه حين طرب فنطق بمثل هذه الدعاوى ؟ أم تظن أن بشارا كان فى صميمه يعتقد حقا أن شعره أحسن من سورة الحشر أو انه أكبر الجن والأنس؟ ان استطعت إثبات هذا فقد أثبت عليه الغرور والصلف ، والا فلا .

مشاكس

لكنى لا أريد ان ادعى ان بشارا كان بطبعه رحب الصدر أو واسع الصبر وان الناس هم الذين بدأوه بالأيذاء فى كل حادثة حدثت له . فلا شك انه كان على قدر من ضيق الخلق وشراسة الطبع والنزق والمشاكسة والسرعة إلى الغضب. بل الذى ادعيه هو أنه لولا ما لقى من الاضطهاد الطويل لما زاد حظه من هذا على النصيب العادى الذى يوجد فى الكثيرين منا ويظلون برغمه اعضاء مقبولين فى المجتمع . انما الذى هول الأمر وضخمه هو ما وصفنا من شدة الأساءة التى لقيها طول حياته .

أما ضيق خلقه وسرعة غضبه فأمر تشهد عليه قصص كثيرة .
فهو يسأل مثلا عن ابن قنان الذى ذكره فى قوله : غننى للغريض يابن قنان . قيل له : من ابن قنان هذا لسنا نعرفه من مغنى البصرة ؟ فيجيب بحدة ظاهرة : وما عليكم منه ! ألكم قبله دين فتطالبوه به ؟ أم ثأر تريدون ان تدركوه ؟ أو تكفلت لكم به فاذا غاب طالبتمونى باحضاره ؟ فيقولون فزعين :ليس بيننا وبينه شىء من هذا ، وانما أردنا ان نعرفه . فيجيبهم : هو رجل يغنى لى ولا يخرج من بيتى ! فقالوا : إلى متى ؟ قال : منذ يوم ولد وإلى يوم يموت !

فالذين يسألونه واضح أنهم لايريدون إحراجا بل هم مخلصون فى طلب المعرفة ، لكنه يرد عليهم بهذا النزق الشديد . وكذلك حين سئل عن « البردان » فى قوله « ووافانى هلال السماء فى البردان » . سألوه : يا أبا معاذ أين البردان هذا؟ لسنا نعرفه بالبصرة . واضح أيضا من تسميتهم اياه بكنيته أنهم يسألونه فى لطف وأدب . فيجيب : هو بيت فى بيتى سميته البردان ، أفعليكم من تسميتى دارى وبيوتها شىء فتسألونى عنه ؟

كذلك حين سأله رجل عن قوله « دسست إليها أبا مجلز » قائلا : ومن أبو مجلز هذا يا أبا معاذ؟ قال : وماحاجتك إليه ؟ لك عليه دين؟ أو تطالبه بطائلة ؟ هو رجل يتردد بينى وبين معارفى فى رسائل .

كذلك القصة الآتية :

« أنشد بشار قوله :

يروعه السرار بكل أرض   مخافة أن يكون به السرار

فقال له رجل : أظنك أخذت هذا من قول أشعب : ما رأيت اثنين يتساران إلا ظننت أنهما يأمران لى بشىء . فقال : ان كنت أخذت هذا من قول أشعب فانك أخذت ثقل الروح والمقت من الناس جميعا فانفردت به دونهم ! ثم قام فدخل وتركنا » .

ولكن لعلك لاحظت ان بشارا فى كل هذه القصص يعارض فى شعره ، وقد كان به شديد الاعتزاز ، لا لما له من قيمة صحيحة فحسب ، بل لأنه كان من الأشياء القليلة التى كان يستطيع أن يجد فيها عزاء وسلوى بين محنه الكثيرة .

سليط

بل أزيد على ضيق خلقه وشكسه فأقرر أنه كان على قدر غير قليل من السلاطة وبذاءة اللسان . استمع إلى القصة الآتية :

« أبو معاذ النميرى قال : قلت لبشار : لم مدحت يزيد بن حاتم ثم هجوته ؟ قال : سألنى أن [أفعل به] فلم أفعل . فضحكت ثم قلت : فهو كان ينبغى له أن يغضب ، فما موضع الهجاء ! فقال ، أظنك تحب أن تكون شريكه ؟ فقلت : أعوذ بالله من ذلك ويلك ! » .

كما أننى لا أدعى أنه لم يهج إلا حين بدىء بالإساءة . فانه يبدو من أخباره أنه كان فى أحيان كثيرة مغرما بالهجاء لمجرد اللذة التى يجدها فيه . حتى لم يسلم من هجائه بعض أصدقائه . فيروى عنه مثلا :

« كان بشار كثير الولوع بديسم العنزى وكان صديقا له وهو مع ذلك يكثر هجاءه . وكان ديسم لا يزال يحفظ شيئا من شعر حماد وأبى هشام الباهلى فى بشار . فبلغه ذلك فقال فيه :

أديسم يابن الذئب من نجل زراع   أتروى هجائى سادرا غير مقصر »

وأدل من هذا على سلاطته وولعه بالهجاء القصة الآتية ، وبها بيت لا بد من روايته كاملا برغم إفحاشه ، وإلا كنا نتخير محاسنه ونتجاهل مساوئه :

« نهق حمار ذات يوم بقرب بشار . فخطر بباله بيت فقال :

ما قام أير حمار فامتلا شبقا   إلا تحرك عرق فى است تسنيم

قال : ولم يرد تسنيما بالهجاء ، ولكنه لما بلغ إلى قوله « إلا تحرك عرق » ، قال : فى است من ؟ ومر به تسنيم بن الحوارى وكان صديقه ، فسلم عليه وضحك ، فقال : فى است تسنيم علم الله ! فقال له : أيش ويحك ! فأنشده البيت . فقال له : عليك لعنة الله ! فما عندك فرق بين صديقك وعدوك . أى شىء حملك على هذا ! ألا قلت فى است حماد ، الذى هجاك وفضحك وأعياك ، وليست قافيتك على الميم فأعذرك ! قال : صدقت والله فى هذا كله . ولكنى ما زلت أقول : فى است من ؟ فى است من ؟ ولا يخطر ببالى أحد حتى مررت وسلمت فرزقته . فقال له تسنيم : إذا كان هذا جواب السلام عليك فلا سلم الله عليك ولا على حين سلمت عليك . وجعل بشار يضحك ويصفق بيديه وتسنيم يشتمه » .

واضح من هذه القصة أن بشارا وجد لذة خبيثة فى الهجاء دون مامبرر . فهو يريد أن يتم البيت فى هجاء أى انسان ولا يهمه من . ولهذا لا أظن القدماء كاذبين حين قالوا : «وقال بشار الشعر ولم يبلغ عشر سنين ثم بلغ الحلم وهو يخشى معرة لسانه» .

بكل هذا أسلم ، فغرضى من دراستى هذه ان أحقق شخصية بشار على صحتها ، لا ان ابرئه من كل عيب ، وما يحتاج بشار فى محنه الكثيرة وفى مصائبه من الطبيعة ومن الناس إلى أن نبالغ فى تبييض صحيفته لنحمل الناس على الرثاء له . ولكنى اعود فأقول : انه لولا مالقى من الاساءة والاحتقار ، ومن الانتقاص والاضطهاد لما وصل شره إلى ماوصل ، لاشك انه كانت به نزعة طبيعية نحو البذاءة والهجاء ، ولكن لاشك ايضا ان الذى نماها فيه إلى ذلك الحد المفرط هو مالقيه من البيئة التى وجد فيها منذ صباه .

فاجر

رذيلة أخرى ببشار لا بد ان نسلم بها ، هى شهوانيته المفرطة . وسيرته فيها بضع قصص تبين مقدار تهالكه على النساء وتتبعه لهن حتى يرضين بمواصلته او يشكونه إلى ازواجهن . وقد سئل بشار اى متاع الدنيا آثر عندك ؟ فأجاب : طعام مز وشراب مر وبنت عشرين بكر . ويبدو لنا من اخباره ومن شعره انه برغم قبحه وعاهته لم يكن كاسد السوق على النساء . ولا نتحير طويلا فى استكشاف سبب رواجه لديهن ،

ظرفه وحسن حديثه وفكاهته ولذة منادمته كانت تعوض جزءا غير قليل من دمامته ، وأهم من ذلك انه يبدو كأنه قد كانت لديه قوة جنسية عظيمة افتتن بها بعض النساء فتحدثن بها إلى غيرهن فأغرى بها هؤلاء ايضاً .

ورواج بشار لدى الكثيرات من نساء عصره كان مما أحنق رجال عصره عليه وزادهم عليه حقدا . ولكن استنكارهم لهذه الناحية منه لم يقتصر على سلوكه ، بل أغضبهم أيضا شدة تأثير شعره الداعر وحضه الفتيان والفتيات على سبل الفسق . سئل أبو عبيدة عن السبب الذى من أجله نهى المهدى بشارا عن ذكر النساء فقال : كان أول ذلك استهتار نساء البصرة وشبانها بشعره ، حتى قال سوار بن عبد الله الأكبر ومالك ابن دينار ماشىء أدعى لأهل هذه المدينة من الفسق من أشعار هذا الأعمى ، وما زالا يعظانه .

وليست هذه دعوى من القدماء لا دليل عليها ، فان لبشار قصيدة غاية فى الشناعة الخلقية سنعرض لها حين ندرس شعره . وله أيضا بضعة أبيات متفرقة لابد أن تأثيرها فى إغواء الشباب كان شديداً . فالبيت الثالث من قوله :

لاخير فى العيش ان كنا كذا أبداً   لا نلتقى وسبيل الملتقى نهج
قالوا حرام تلاقينا فقلت لهم   ما فى التلاقى ولا فى قبلة حرج
من راقب الناس لم يظفر بحاجته   وفاز بالطيبات الفاتك اللهج (١)

(١) اللهج : الذى يغرى بالشىء فيثابر عليه ويلح فى طلبه .

لابد أنه شجع بعض الفتيان والفتيات ممن هموا بالمنكر وأمسكوا عنه خوفا . وكذلك البيتان الواردان فى القصة الآتية ، والقصة نفسها دليل قوى ، يتحدث بعض الشعراء فيقول :

« أتيت بشارا الأعمى وبين يديه مائتا دينار . فقال لى : خذ منها ما شئت . أو تدرى ما سببها ؟ قلت : لا . قال جاءنى فتى فقال لى : أنت بشار؟ فقلت : نعم . فقال : إنى آليت أن أدفع إليك مائتى دينار ، وذلك أنى عشقت امرأة فجئت إليها فكلمتها فلم تلتفت إلى ، فهممت أن أتركها فذكرت قولك :

لا يؤيسنك من مخبأة   قول تغلظه وإن جرحا
عسر النساء إلى مياسرة   والصعب يمكن بعد ما جمحا

فعدت إليها فلازمتها حتى بلغت منها حاجتى » .

ولا نظن هذه كانت الحادثة الوحيدة من نوعها .

ولكن الدارس إذا أراد ألا يكون بحثه مجرد وصف سطحى فانه ينبغى عليه ألا يقرر النقص ويكتفى ، بل عليه بعد ذلك أن يفتش عن أسبابه فيستجليها . فما أسباب هذه الدعارة فى بشار ؟

سببها الأساسى دون شك أنه كان على حدة جنسية عظيمة بطبيعة تكوينه . ولكن هذا لم يكن كل شىء ، فلولا عوامل بيئته لبقيت هذه الحدة تتلمس منافذها فى حدود الحلال وما يقره الخلق والمجتمع . ولكن عوامل البيئة زادتها حدة وإفراطا ودفعت بها إلى الاستهتار السافر . فأول ما يبدو لنا أن بشارا كان ذا قوة جسدية وصحة كاملة

مزدهرة ، لا نعرف أنه شكا مرضاً أو ضعفا طول حياته . وهذه القوة الجسمانية إذا وجدت فى المبصرين لم يكن الأرضاء الجنسى متنفسها الوحيد ، بل تجد منصرفا فى الحركة الدائمة التى يقومون بها ، من الحرفة اليدوية والرياضية البدنية والركوب والسباحة أو مجرد المشى الكثير ، ومن التلهى بمختلف الملاهى التى يستطيعها المبصر . أما بشار فقد حده عماه بحدود عظيمة فحرمه فرص التنفيس العادى عن حيويته الموفورة ، فلم يبق إلا نشاطه الجنسى تتدفق فيه صحته وقوته .

وهذا نجده عند كثير من العميان ، ولكنه لم يكن فى حالة بشار كل شىء ، بل لا شك أن إفراطه الجنسى كان إلى حد عظيم تعويضا عن شعوره بقبحه الزائد . كان قبيح العمى كريه المنظر فأراد أن يقنع غيره وأن يقنع نفسه أيضا أنه برغم ذلك يستطيع أن يكون محببا إلى إلى النساء رائجاً لديهن . وكان إفراطه كذلك تعويضا عما لقيه من المحن والاضطهاد بسبب مولويته . كلما زادوه اضطهادا ازداد فى فجوره تحديا وعنادا ومكايدة ، كأنه ينتقم من رجال عصره باغراء نسائهم .

وليس هذا مجرد تخمين منا ، فانك إذا رجعت إلى القصة التى رويناها عن فخره أمام المهدى تبدى لك فيها شىء عجيب . هو أنه يفخر فيها ، لا بأصله الفارسى أو ولائه العامرى فحسب ، بل بقوة إغرائه للنساء أيضا :

فانى لأغنى مقام الفتى   وأصبى الفتاة فما تعتصم

وهذا فخر يبدو لنا لأول وهلة غريبا . فهذا رجل يغمز فى نسبه ، فنحن نفهم قوله « أنا أنف الكرم » . ونفهم قوله :

نمت فى الكرام بنى عامر   فروعى وأصلى قريش العجم

ولكن ما الداعى إلى فخره فى هذا المقام بأنه يصبى الفتاة فلا تستطيع مقاومة اغرائه؟ شرح هذا واضح الآن ، هذا الافتخار بنجاحه الجنسى تعويض عظيم عن شعوره بعاهته وتألمه من دمامته وتبرمه باحتقار الناس له وتأذيه من اضطهادهم . ويزداد هذا اتضاحا اذا أتممت قراءة القصة فاستمعت إلى رد بشار على أبى دلامة حين عيره بقبح وجهه وتأملت فى كل جملة من هذا الرد .

وقد قال بشار حين لم يثبه سليمان بن هشام بن عبد الملك بما يعتقد أنه كفايته :

فاكحل بعبدة مقلتيك من القذى   وبوشك رؤيتها من الهملان
فلقرب من تهوى وأنت متيم   أشفى لدائك من بنى مروان

أضف إلى هذا كله حقيقة هامة يجب أن نحسب لها حسابها حين نحاسبه على دعارته : وهى الانحلال الخلقى الذى فشا فى كثير من أوساط مجتمعه. فالعدل يطالبنا بألا نقصر نظرنا على أثر بشار فى إفساد معاصريه، بل ننظر كذلك فى تأثره هو بالفساد الذى شاع فى ذلك العصر ، وقد عبر المازنى عن هذه الحقيقة خير تعبير حين قال : « ولو كان الوحيد الذى نرى فيه صورة من زمانه لما عذرناه . ولكن الشعراء الذين عاصروه لم يكونوا خيرا منه ، بل لم يكن بعض الخلفاء وأبنائهم وذوى قرابتهم بأهدى وأرشد من بشار . أو أقل خلاعة أو مجونا وشكا وزندقة » . وهى كلمات صريحة جريئة لا تترك بى حاجة إلى التطويل، لكنى

أسألك أن تتذكرها حين تقرأ الفصل القادم عن شكه وزيغه الدينى .

على أننى أزيد على هذا كله فأقول : إن من الخطأ الشديد أن نعتقد أن بشاراً لم يكن فى علاقاته مع النساء سوى رجل شهوانى لا هم له إلا الشهوة الحيوانية المحضة . فان بشاراً كان فى علاقاته بهن على نصيب عظيم من الرقة والانتشاء الوجدانى ، لم يكن كل ما أغراه بهن ناحيتهن الجنسية ، بل كان قادراً على تعرف النواحى السامية المهذبة فى جمال المرأة ومتعتها ، وكانت بقلبه رقة للجمال وقدرة على الاهتزاز له اهتزازا يسمو على الشبق الجنسى . وهذه دعوى أرسلها الآن وسيكون إثباتها حين ندرس شعره الغزل .

متشكك

هناك عامل آخر زاد فى كره الناس لبشار واضطهادهم له . ولعلنا لو فهمناه فهما صحيحا لكان أحرى بأن يحملنا على الرثاء له والاشفاق عليه . ذلك هو ما ظنوه فيه من الكفر والالحاد .

أول ما ينبغى علينا إدراكه فى هذه المسألة أن تهمة الكفر والالحاد ليست صحيحة . فبشار لم ينته إلى الالحاد أو الكفر ، بل ظل طول عمره حائرا متشككا فى كل شىء ، وهذا أساس بليته ، أنه ظل متردداً شاكا لم يستطع أن ينتهى إلى الايمان ولم يستطع أن ينتهى إلى الالحاد ، ولهذا قلت أنه ينبغى أن نرثى له ونشفق عليه . وقد يكون بعض القراء أدهشهم أن يقال لهم أنهم ينبغى أن يعطفوا على زائغ لم ينته إلى الايمان وبقى طول عمره متشككا .

وشرح هذا أن شك بشار كان من أعظم أسباب عذابه فى حياته ، فجحيم الشك هول لا يقاربه هول . والذى ينتهى إلى الايمان يسعد به ويجد به برداً وسلاما ، والذى ينتهى إلى الالحاد كذلك يجد له برداً ، إذ ترتاح كل مخاوفه وتهدأ جميع تحيراته ، ولا يعود يتعب عقله فى حل متناقضات الكون ، ويعذب نفسه فى محاولة التوفيق بين عدل الله وبين ما فى الكون والحياة والمجتمع من ظلم وشر وآثام : يهدأ الآن هدوءاً تاما إذ تبدو له كل هذه المشاكل وهمية لا أساس لها ، فليس فى الكون إله ، ولا له خالق مدبر يصدر فى عمله عن قصد وحكمة ، فلا داعى إذن إلى محاولة استكشاف حكمته أو قصده أو التوفيق بينهما وبين فساد الكون وظلمه .

يهدأ الملحد ويجد للألحاد برداً يوازى ما يجده المؤمنون فى إيمانهم ، ولا يخيفه ما يتوعده المؤمنون من العقاب والتعذيب فى الآخرة ، بل يسخر من تخويفهم هـذا فهو لا يؤمن بحياة آخرة ، بل هو واثق أنه ليس من بعث ولا من حساب ، وبشار ما استطاع طول حياته أن ينتهى إلى هـذه الثقة وهذه الراحة ، فظل منغصا تفتك به الشكوك وتلتهمه المخاوف والريب ، وهذا لا يعرف أتونه المستعر إلا من شك فترة من حياته . وكل مفكر علمى أو دينى فهو يمر بالضرورة فى فترة شك فى زمن ما من حياته . ولكن معظم المفكرين ينتهى إلى إحدى الراحتين ، راحة الايمان أو راحة الألحاد ، وبشار ما انتهى إلى إحداهما وهذا كما قلت أساس بليته العظمى . يقوى شكه فيظن أنه وصل مرحلة الألحاد التام ، فيبتسم ابتسامة الهازىء الساخر ، ويستعد لهدوء الألحاد

وراحته ، ثم ما يلبث أن تعاوده الظنون والمخاوف ، فما أداره لعل هذا الذى يسخر به حق . وتقوى مخاوفه حتى يخيل إليه أنه بلغ مرتبة الايمان ، فيقول مثل هذين البيتين الظاهرى الصدق والحرارة :

كيف يبكى لمحبس فى طلول من سيفضى لحبس يوم طويل
إن فى البعث والحساب لشغلا عن وقوف برسم دار محيل

ولكنه ما يلبث أن يعود إلى شكه القديم .

ويلقى المؤمنين فيجادلهم ويطيل جدالهم ، ويخيل إليه أنه ظفر بهم وأثبت سخفهم ، وما هى إلا برهة حتى يتكدر وجهه ويتقطب جبينه ، فما أدراه لعلهم على حق وهو على ضلال :

« أحمد بن خلاد قال حدثنى أبى قال : كنت أكلم بشارا وأرد عليه سوء مذهبه بميله إلى الالحاد ، فكان يقول لا أعرف إلا عاينته أو عاينت مثله ، وكان الكلام يطول بيننا ، فقال لى : ما أظن الأمر يا أبا خالد إلا كما تقول ، وأن الذى نحن فيه خذلان . . . »

نجد فى أخبار القدماء تقريرات مختلفة عن دين بشار . فهم يقررون أنه آمن بالرجعة ، أو أنه صوب رأى إبليس فى تقديم النار على الطين ، أو أنه كفر جميع الأمة ، وكل هذه تقريرات خاطئة إن أريد بها أن هذا هو مذهبه الذى صار إليه وقبله قبولا نهائيا ، فالحق أن بشارا لم ينته إلى مذهب ما ، بل تقلب بين شتى المذاهب اسلامية وغير اسلامية يدرسها ويناقشها ويمتحنها ، وقد يستهويه أحدها حينا ثم لا يلبث أن يضيق به ويتشكك فيه ، فقد يكون مال حينا إلى مذهب الرجعة أو غيره من عقائد أهل الهند ، وقد يكون استهواه فى فترة ما من

حياته رأى أصحاب الديانات الفارسية فى عبادة النور وتقديس النار ، ولا شك أنه كان فى زمن ما معتزليا بل كان من أئمة المعتزلة وقادة الرأى بينهم . ولكن كل هذه المذاهب لم تقنعه اقناعا كاملا ، ولم ينته هو إلى مذهب شخصى له يرضاه .

فاستشهادهم بقوله :

الأرض مظلمة والنار مشرقة   والنار معبودة مذ كانت النار

أو بقوله :

إبليس خير من أبيكم آدم   فتنبهوا يا معشر الفجار
إبليس من نار وآدم طينة   والأرض لا تسمو سمو النار

لا يثبت تدينه باحدى الديانات الفارسية ، بل يثبت العكس لو تأملته جيدا . فليس هذا كلام رجل يعبد النار ، بل كلام مجادل منطقى يحاول أن يرى الموحدين ما فى قول عبدة النار من وجاهة ، وهو أيضا قول رجل حاقد على البشر جميعا ، باختلاف أجناسهم ودياناتهم ، حتى يفضل على جنسهم البشرى خلقا آخر ، فيقول لهم هذا الشعر لا لأنه يعبد النار أو يحب إبليس بل لمجرد أن يغيظهم ويحنقهم .

كل هذه التقريرات خاطىء إذن . أما التقرير الوحيد الذى لا شك فى صحته فهو الذى يرد فى القصة الآتية :

« سعيد بن سلام قال : كان بالبصرة ستة من أصحاب الكلام : عمرو بن عبيد ، وواصل بن عطاء ، وبشار الأعمى ، وصالح بن عبد القدوس ، وعبد الكريم بن أبى العوجاء ، ورجل من الأزد - يعنى

جرير بن حازم - فكانوا يجتمعون فى منزل الأزدى ويختصمون عنده . فأما عمرو وواصل فصارا إلى الاعتزال ، وأما عبد الكريم وصالح فصححا التوبة ، وأما بشار فبقى متحيرا مخلطا ، وأما الأزدى فمال إلى قول السمنية ، وهو مذهب من مذاهب الهند ، وبقى ظاهره على ما كان عليه » .

بقى متحيرا مخلطا ، هذا هو الحكم الصحيح ، ولكنك لا تقدر مبلغ هذا الهول ان لم تعرف شيئا عن حالة العصر ومدى اضطرابه ، وشيئا عن عقلية بشار .

أما العصر فكان من أشد عصور التاريخ الاسلامى زعزعة واضطرابا ، شهد انقلابا سياسيا عظيما هو تحول الملك من البيت الأموى إلى البيت العباسى ، أو كما ندرك نحن الآن ، وكما أدرك العرب بعده بنصف قرن ، تحوله من العرب إلى الفرس . وشهد غير هذا فتنا وثورات كثيرة وحروبا أهلية وخارجية . وشهد بحورا متلاطمة متعارضة من المذاهب والعقائد من الخوارج ، والشيعة ، والمرجئة ، والمعتزلة ، والرافضة ، وفرق عديدة من العلويين ، أضف إليها جميعا فرق المجوس ، والنصارى ، واليهود ، والصابئة ، يناحر بعضها بعضا ، فالذى يظل متحيرا مخلطا بينها جميعا قد ذاق عذاب الشك حقا .

فبشار لم يكن شكه مجرد النصيب العادى الذى يوجد لدى كل الناس ، حتى أتمهم إيمانا ، فهم تمر بهم فترات متراوحات يقولون فيها : أهذا كله حق ؟ أهناك جنة ونار حقا ؟ أهناك حقا ملائكة وشياطين وبعث وحساب ؟ أديننا وحده هو الصواب ؟ إلى آخر ما يعن لهم من

ظنون . ولكن هذه فيهم نزوات فكر لاتلبث أن تتبدد ويحل محلها الايمان التام الراضى المسلم بكل شىء . أما شك بشار فكان من النوع الذى يلتهم صاحبه التهاما . وسر ذلك ان بشارا لم يكن فردا عاديا ، ولا كان مجرد فنان شاعر ، ولا كان مفكرا متواضع النصيب من التفكير ، بل كان من أعظم ذوى العقول فى عصره .

كان بشار من أعظم ذوى العقول فى عصره ، وهذه الحقيقة تغيب علينا فى معظم حديثنا عن بشار ، لانتحدث عنه إلا من ناحية شاعريته . ونحن فى هذا معذورون ، فالذى وصلنا منه هو شعره ، لاتفكيره وجداله ومناقشته . فبشار من هذه الناحية شبيه بعمر الخيام ، الذى كان من أعظم العلماء الرياضيين فى عصره ، والذى لا يعرف الآن إلا بشعره . ولكننا ان تأملنا أقوال القدماء عن عقل بشار وعن علمه استطعنا أن نحزر نصيبه منهما . فقد كان مشهورا فى عصره وفيما تلاه لا بشعره وحده بل بسعة علمه وقوة تفكيره كذلك ، وبنثره ورسائله وخطابته ، ويبدو أن علمه وفكره شملا كل نواحى الثقافة فى عصره ، دينية وفلسفية ، اسلامية وغير اسلامية ، وهذا ابن المعتز يقول عنه فى طبقاته : « كان من أفقه الناس وأعلمهم بكتاب الله .. وكان يقول ما أعلم شيئا مما عندى أقل من الشعر .. وكان بشار يعد من الخطباء البلغاء الفصحاء .. ولا أعرف أحدا من أهل العلم والفهم دفع فضله » .

ونحن ان لم يكن قد وصلنا من جدله وخطابته ما نستكشف منه مدى عمق فكره ، فانه يكفينا أنه كان فى زمن ما أحد المعتزلة . لست أعنى أنه كان من متبعى مذهب الاعتزال ، بل كان من أئمتهم وقادة

الرأى بينهم ، بل يبدو لى أنه كان من روادهم الذين أسسوا فلسفتهم ووضعوا أصول تفكيرهم . وقصة خروجه على المعتزلة وانتهائه إلى رفض مذهبهم قصة عظيمة الدلالة على شكه الذى لايهدأ . فقد كان فى أول الأمر صديقا لواصل بن عطاء شديد الملازمة له فى حلقات البحث والمناظرة ، ثم لما انتهى إلى الخروج على الاعتزال رماه واصل بالإلحاد وسعى فى تحريض الناس عليه ، فقال بشار يهجوه :

مالى أشايع غزالا له عنق	كنقنق الدو[1] ان ولى وان مثلا
عنق الزرافة مابالى وبالكمو	تكفرون رجالا كفروا رجلا!

تأمل فى قوله « مالى أشايع » فانه يريك بدأ تململه من الاعتزال وعدم اكتفائه به . أما البيت الثانى فبالغ الأهمية ، إذ يرينا أن سبب خروجه على المعتزلة هو مبالغتهم وافراطهم فى قضاياهم النظرية إلى حد أنهم يكفرون من لايرى رأيهم . وبيته هذا ينقض قولهم عنه أنه كفر جميع الأمة ، فهو يدل على أن أكره شىء إليه كان التعصب المذهبى المسرف ولجوء كل فريق إلى تكفير الفرق الأخرى ، وهو يفضل إذ حار بينها جميعا أن يتسامح معها جميعا . فالخوارج كفروا عليا لأنه قبل التحكيم ، والمعتزلة يكفرون الخوارج لأنهم كفروا عليا ، ثم يأتى آخرون فيكفرون هؤلاء لأنهم كفروا أولئك . فما نهاية كل هذا التكفير سوى الضيق المذهبى البغيض الذى يجر إلى التعصب والاضطهاد والتعذيب ؟

---

(١) النقنق : ذكر النعام . والدو : الفلاة . وسمى واصل بالغزال لكثرة جلوسه فى سوق الغزالين إلى صديق له .

بشار لم يكفر أحدا ، ولم يكفر بمذهب ، بل تساوت لديه جميع المذاهب فى الشك . هناك أخبار يستدل بها البعض على أنه كفر بالأسلام . منها قول بعض أصحابه : كنا إذا حضرت الصلاة نقوم ويقعد بشار فنجعل حول ثيابه ترابا لننظر هل يصلى فنعود والتراب بحاله . ومنها أنهم سألوه يوما : حضرت الظهر والعصر والمغرب فلم تصل ، فأجابهم : ان الذى يقبلها تفاريق يقبلها جملة ! ومنها قوله إن شعرا له يغنى فيه أحسن من سورة الحشر ، أو من فلج يوم القيامة .

وكل هذه لا دليل فيها على الكفر بالإسلام . وليس ترك الصلاة وحده بدليل على أنه اقتنع بخطأ الإسلام ، ورده على من سألوه لم لم يصل لا يزيد على أن يكون ردا لاذعا على أناس يتدخلون فيما ليس من شأنهم ، وخليق بنا ألا نقصر غضبنا على بشار لأنه لم يصل ، بل نصبه كذلك على أولئك الصفقاء يتجسسون عليه ويضعون عليه التراب وما عليهم من عدم صلاته حساب ، والأسلام دين لا يقر التفتيش والتجسس على أحوال الفرد الدينية كما أقرتهما أديان أخرى. وأما فخره بشعره فقد قدمنا القول فى أنه لا يزيد على أن يكون أسلوبا سيء الأدب جمح به لسانه فى حالة طرب .

على أن هناك رأيا دينيا واحدا نستطيع أن نطمئن إلى أن بشارا ، فى كل شكه وتحيره ، قد آمن به ايمانا تاما . ذلك هو رأى الجبرية . فله هذه الأبيات الرائعة :

طُبعت على ما فىّ غير مخير ... هواى ولو خيرت كنت المهذبا
أريد فلا أعطى وأعطَى ولم أرد ... وقصر علمى أن أنال المغيبا

فأصرف عن قصدى وعلمى ثاقب ... فأرجع ما أعقبت إلا التعجبا
لعمرى لقد غالبت نفسى على الهوى ... لتسلى فكانت شهوة النفس أغلبا
ومن عجب الأيام ان اجتنابها ... رشاد وأنى لا أطيق التجنبا

ما أشجاها وأشد تأثيرها ! وما أعظم نصيبها من الصدق ، فهى أبيات نستطيع ان نرددها دون أن نخرج عن دائرة الأيمان أو نتلطخ بالزيغ ، دعك من الكفر . فالمذهب الجبرى مذهب مقبول محترم فى كل الديانات السماوية ، بل هو المذهب السائد لدى أهل السنة الأسلامية. فتأمل فيها ، وانشدها وتغن بها كلما صدر عنك تصرف انت ادرى الناس بخطئه أو سخافته . وأينا يريد ان يكون غير مهذب ؟ أينا لا يريد ان يكون فى كل حالاته فاضلا ، عفيفا ، صادقا، بارا بالوعد ، رحيما، حليما عاقلا راشدا حكيما ؟ أينا لا يريد ان يكون جماع الفضائل ، وان يصير مضرب الأمثال بين الناس فى الخير والتقوى والصلاح ؟ أم تظن ان المجرم الشرير « يريد » الشر والأجرام والأثم ؟ ولكننا بشر ، لسنا آلهة ، فينا ضعف البشرية الذى قد نحاول جهدنا مغالبته ، ولكنه يغلبنا فى أحوال كثيرة ، وقد نكون أنقب الناس علما بما فيه خيرنا وفلاحنا، وقد نسعى له قاصدين ، ثم تصرفنا عنه بشريتنا العاجزة ، ومن لم يكن منا بلا خطيئة فليرمنا بأول حجر ، تبارك الله وحده ، فله وحده المثل الأعلى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة .

***

تأمل الآن فى هذا العنصر الجديد من شخصية بشار ، عنصر شكه

الدينى واضطرابه الفكرى ، وفكر فى نصيبه من تكوين نفسيته الخاصة ، واقرنه إلى العناصر السابقة لترى مايتولد عن هذا الاقتران . اقرنه مثلا إلى شهوانيته المفرطة ، تجد انه لابد ان قد زادها حدة وفجورا . فلو انه انتهى إلى الأيمان التام لربما خفف هذا من استعارها أو قمع من جموحها أوحبسها فى الحدود التى يقرها الدين ويرضاها المجتمع ، ولكنى لا أعنى هذا وحده ، فالذى لاشك فيه أن تحيره الدينى والفكرى دفعه إلى ان يلتمس فى اللذة الجنسية شبه عزاء وسلوى ، وجد فيها مخلصا وقتيا من جحيم الشك ، كلما لذعته ألسنة الشكوك اندفع إلى النساء ينشد فى صحبتهن وفى وصالهن فترة نسيان ومتنفس عقلية معذبة ، فهو فى هذه الناحية أيضاً يشبه عمر الخيام بعض الشبه ، الذى أقبل على الخمر وعلى المحبوبة وعلى الطعام الشهى يبغى فى هذه الملذات الحسية تسكينا وتخديراً لسعير الريب الدينية والمخاوف الفكرية .

ممقوت

ثم تأمل فى هذا السبب الجديد لبغض الناس إياه ، وأقرنه بالأسباب الأخرى لترى كيف تعاونت جميعاً على مضاعفة كرههم له وإيصاله إلى أقصى حد من الكره تستطيع قلوبهم .

فهم لم يبغضوه لما ظنوا فيه من الألحاد فقط ، بل أبغضوه لأنه ملحد أعمى ، والناس دائماً يرون فى اجتماع العمى والألحاد فظاعة وشراً ليس بعدهما فظاعة أوشر ، ولأمر ما كان واصل يسميه دائماً «هذا الأعمى

الملحد» . فلو أنه كان زنديقاً مبصراً لهان الأمر ، لست أدرى لماذا ، ولكن سل الناس فهذا رأيهم .

ولو أنه كان زنديقاً عربياً لهان خطبه أيضاً ، ولكن زنديق أعجمى ، مولى خسيس يجرأ على الزيغ ! هذه شناعة مضاعفة .

ولو أنه كان ملحداً فاضل السيرة ، ولكنهم رأوه ملحداً فاسقاً هجّاء سليطا لاذع اللسان . ثم أضف سائر عيوبه ، من العمى الفظيع والدمامة والضخامة المخيفة ، فإنك تبتدئ الآن فى الإدراك الحقيقى لمبلغ كرههم له .

فقد كان كرههم له من أشد نوع من الكره يستطيعه القلب الإنسانى ، وهو الكره الممزوج بالخوف والرهبة ، فلو استطعنا أن نتغلغل إلى باطن عقولهم لنرى الصورة التى ارتسمت عنه فى أذهانهم لوجدنا صورة فظيعة عظيمة الارعاب . صار لديهم أكثر من إنسان مكروه مخوف . صار «بعبعا» ، صار وحشا ممسوخا غير إنسانى ، صار تجسما بشريا لتلك المخلوقات الخرافية التى تتخيلها الإنسانية وتتخذها رموزاً ترمز بها إلى كل ما يداخل القلب البشرى من الاحتقار الممزوج بالرهبة ، والكراهية المقترنة بالرعب ، والبغض المختلط بالذعر الشديد .

وسنقص الآن من روايات القدماء قصصاً تبين مقدار مقتهم إياه وتخوفهم منه . والعجيب أن بشارا لم ينزعج من هذه الصورة التى التى كونوها عنه ، بل يبدو أنه رحب بها وشجعها عامداً . ولكن لايصعب علينا سر ذلك ، فهو قد استكشف أن فى كرههم له وخوفهم

منه حماية له من أذاهم ، فبذل جهده فى تنمية هاتين العاطفتين فيهم وإعطاء الأسباب التى تبررها وتعززها ، ولم يكن هذا منه سوى دفاع المستضعف وسلاح العاجز . ولم يكن لمثله سوى سلاح واحد ، الهجاء . فأكثر منه وأقذع فيه حتى يخيفهم وينفرهم .

يقول خلف :

« كنت أسمع ببشار قبل أن أراه . فذكروه لى يوما وذكروا بيانه وسرعة جوابه وجودة شعره ، فاستنشدتهم شيئا من شعره فأنشدونى شيئاً لم يكن بالمحمود عندى . فقلت : والله لآتينه ولأطأطئن منه . فأتيته وهو جالس على بابه ، فرأيت أعمى قبيح المنظر عظيم الجثة . فقلت : لعن الله من يبالى بهذا . فوقفت أتأمله طويلا ، فبينما أنا كذلك إذ جاءه رجل فقال : إن فلانا سبك عند الأمير محمد بن سليمان ووضع منك . فقال : أو قد فعل ؟ قال : نعم . فأطرق ، وجلس الرجل عنده وجلست ، وجاء قوم فسلموا عليه فلم يردد عليهم ، فجعلوا ينظرون إليه وقد درت أوداجه . فلم يلبث إلا ساعة حتى أنشدنا بأعلى صوته وأفخمه :

نبئت . . . أمه يغتابنى عند الأمير وهل على أمير
نارى محرقة وبيتى واسع للمعتفين ومجلسى معمور
ولى المهابة فى الأحبة والعدا وكأننى أسد له تامور [1]

---

(١) تامور : عرين

غرثت حليلته وأخطأ صيده فله على لقم الطريق زئير [1]

قال : فارتعدت والله فرائصى واقشعر جلدى وعظم فى عينى جداً، حتى قلت فى نفسى : الحمد لله الذى أبعدنى عن شرك . »

ويتحدث أحد معاصريه يقول :

« أتانى أعشى سليم وأبو حنش فقالا لى : انطلق معنا إلى بشار فتسأله أن ينشدك شيئا من هجائه فى حماد عجرد أو فى عمرو الظالمى ،فإنه إن عرفنا لم ينشدنا . فمضيت معهما حتى دخلت على بشار فاستنشدته فأنشد قصيدة له على الدال فجعل يخرج من واد فى الهجاء إلى واد آخر وهما يستمعان وبشار لا يعرفهما . فلما خرجا قال أحدهما للآخر : أما تعجب مما جاء به هذا الأعمى ؟ فقال أبو حنش: أما أنا فلا أعرض والله والدىّ له أبدا. وكانا قد جاءا يزورانه ، وأحسبهما أرادا أن يتعرضا لمهاجاته . »

ويروى الاصمعى :

« لما أنشد بشار أرجوزته : « ياطلل الحى بذات الصمد » أبا الملد عقبة بن سلم أمر له بخمسين ألف درهم . فأخرها عنه وكيله ثلاثة أيام ، فأمر غلامه بشار أن يكتب على باب عقبة عن يمين الباب :

مازال ما منيتنى من همى والوعد غم فأزح من غمى
إن لم ترد حمدى فراقب ذمى

---

(١) غرثت : جاعت : لقم الطريق : متنه ووسطه

فلما خرج عقبة رأى ذلك . فقال : هذه من فعلات بشار . ثم دعا بالقهرمان فقال : هل حملت الى بشار ما امرت له به ؟ فقال : أيها الأمير نحن مضيقون وغدا احملها إليه . فقال زد فيها عشرة آلاف درهم واحملها إليه الساعة . فحملها من وقته . »

ويروى عافية بن شبيب :

« قدم كردى بن عامر المسمعى من مكة ، فلم يهد لبشار شيئا وكان صديقه . فكتب إليه :

ما أنت ياكردى بالهش   ولا أبريك من الغش
لم تهدنا نعلا ولا خاتما   من أين أقبلت؟ من الحش؟[1]

فأهدى إليه هدية حسنة وجاءه فقال : عجلت يا أبا معاذ علينا . فأنشدك الله ألا تزيد شيئا على ما مضى . »

ويروى عن الرياشى قال :

« حضر بشار باب محمد بن سليمان . فقال له الحاجب : اصبر ، فقال : ان الصبر لا يكون إلا على بلية . فقال له الحاجب : انى أظن ان وراء قولك هذا شرا ولن أتعرض له ، فقم فادخل . »

ويرى ان الأخفش طعن على بشار فى استعماله فى شعر له لفظ « الوجلى » ولفظ « الغزلى » والجمع « نينان » فقال: لم يسمع من الوجل والغزل فعلى ، ولم أسمع بنون ونينان . وتستمر القصة : « فبلغ ذلك

(1) الحش : المرحاض.

بشارا فقال : ويلى على القصارين ! متى كانت الفصاحة فى بيوت القصارين ![1] دعونى وإياه ! فبلغ ذلك الأخفش فبكى وجزع . فقيل له : ما يبكيك؟ فقال: ومالى لا أبكى وقد وقعت فى لسان بشار الأعمى! فذهب اصحابه الى بشار فكذبوا عنه واستوهبوا منه عرضه وسألوه ألا يهجوه . فقال : قد وهبته للؤم عرضه . فكان الأخفش بعد ذلك يحتج بشعره فى كتبه ليبلغه ، فكف عن ذكره بعد هذا . »

ويروى نظير هذا الخبر عن سيبويه ، وان بشارا هجاه ببيتين، فتوقاه سيبويه بعد ذلك ، وكان اذا سئل عن شىء فأجاب عنه ووجد له شاهدا فى شعر بشار احتج به استكفافا لشره .

ويروى عن أحد الأدباء قال :

« غضب بشار على سلم الخاسر وكان من تلامذته ورواته، فاستشفع عليه بجماعة من اخوانه فجاءوه فى أمره . فقال لهم : كل حاجة لكم مقضية إلا سلما . قالوا : ما جئناك إلا فى سلم ، ولا بد من ان ترضى عنه لنا . فقال : أين هو الخبيث ؟ قالوا : ها هو ذا . فقام إليه سلم فقبل رأسه ومثل بين يديه وقال: يا أبا معاذ، خريجك وأديبك. فقال: ياسلم ، من الذى يقول :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته   وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

قال : انت يا أبا معاذ ، جعلنى الله فداءك ! قال : فمن الذى يقول:

من راقب الناس مات غما   وفاز باللذة الجسور

(1) القصار : محور الثياب .

قال : خريجك يقول ذلك — يعنى نفسه — قال : أفتأخذ معانىّ التى قد عنيت بها وتعبت فى استنباطها ، فتكسوها ألفاظا اخف من ألفاظى حتى يروى ما تقول ويذهب شعرى ! لا أرضى عنك ابدا .

قال : فما زال يتضرع إليه ويشفع له القوم حتى رضى عنه .»

وعن عباد بن عباد قال :

« مررت ببشار فقلت : السلام عليك يا أبا معاذ . فقال : وعليك السلام ، أعباد ؟ فقلت : نعم . قال : انى لحسن الرأى فيك . فقلت : ما أحوجنى إلى ذلك منك يا ابا معاذ ! »

لاغرو ان يرووا عن وفاته : « لما مات بشار ونعى إلى اهل البصرة تباشر عامتهم وهنأ بعضهم بعضا وحمدوا الله وتصدقوا لما كانوا قد منوا به من لسانه . » واستمع إلى هذه القصة تريك كيف لم يصدق بعضهم بوفاته حين بلغته ، كأنها سعادة مستحيلة :

« سالم بن على قال : كنا عند يونس فنعى بشارا إلينا ناع ، فأنكر يونس ذلك وقال : لم يمت ! فقال الرجل : انا رأيت قبره . فقال: انت رأيته ؟ قال نعم ، وإلافعلىّ وعلى . وحلف له حتى رضى. فقال يونس : لليدين والفم[1] »

وقبل ان تقبض روحه بعد جلده بادر اشراف البصرة فبعثوا إليه بالفرش والكسوة والهدايا ، كأنهم يخشون ان لا يموت فيأخذهم

---

(١) مثل يقال عند الشماتة بسقوط إنسان ، والمراد أسقطه الله على يديه ورجليه .

باهمالهم اياه ، فلما مات « اخرجت جنازته فما تبعها احد إلا امة له سوداء سندية عجماء ما تفصح ، رأيتها خلف جنازته تصيح : واسيداه ! واسيداه ! . »

ثم يقول احد شعرائهم فيه كلمتهم الأخيرة :

يا بؤس ميت لم يبكه أحد أجل ولم يفتقده مفتقد
لا أم أولاده بكته ولم يبك عليه لفرقة ولد
ولا ابن أخت بكى ولا ابن أخ ولا حميم رقت له كبد
بل زعموا ان اهله فرحا لما اتاهم نعيه سجدوا

وكان هذا وداعهم له :

قد تبع الأعمى قفا عجرد فأصبحا جارين فى دار
قالت بقاع الأرض لا مرحبا بروح حماد وبشار
تجاورا بعد تنائيهما ما أبغض الجار إلى الجار
صارا جميعا فى يدى مالك فى النار والكافر فى النار

كاره للبشر

قلنا أن بشارا تعمد أن يزيد الناس كرها له وخوفا منه ، واتخذ من هذا سلاحا يحميه من عدوانهم . ولكن ليس منا من يحب أن يكرهه الناس ، مهما ادعى أن هذا لا يهمه . فلا بد أن بشارا تعذب عذابا عسيرا من هذا الكره الذى سعى هو فى اذكاء ناره . فتأمل هذا المصدر الجديد لعذابه ، وأضفه إلى عذاب شكه وتخبطه فى ليل فكرى دائم ، وإلى عذاب عماه ، وعذاب دمامته ، وعذاب مولويته وولادته

على الرق وحطة أبيه ، تجد أن بشارا عاش عيشة لايحسد عليها ، عيشة لا يتمناها أحدنا لعدو فضلا عن حبيب .

فلا غرو أن ينتهى هـذا إلى أن يكره الناس . ولسنا نعنى بهذا ما يتعاور كلا منا فى فترات مختلفة من ضيق صدر بالناس وبرم بهم وإيثار وقتى للوحدة . إنمـــا نعنى الـكره الحقيقى للجنس البشرى Misanthropy . انتهى بشار الى كره الناس هذا الـكره العميق الصادق الدائم . فلم يكن أثقل عليه من مخالطتهم ، ولم يكن أحب إليه من الفرار من عشرتهم جهد ما يستطيع ، وما فتىء يتمنى إلى الله أن يريحه منهم .

يروون عنه أنه كان من أشد الناس تبرما بالناس . ويروون أيضا أنه كان ضيق الصدر متبرما بالناس ، فـكان يقول اللهم إنى قد تبرمت بنفسى وبالناس جميعا ، اللهم فأرحنى منهم . وبلغت به الحال ان صار يحمد الله على عاهته التى تصونه من رؤية وجوههم . وهذه دعوى قد يكون بدأ بها لمجرد التعزى عن حرمان البصر ، ولـكن لما طال به الضر صار يقولها مخلصا ، وانك لاتخطىء هذا الاخلاص فى روايتهم:
« وكان يقول : الحمد لله الذى ذهب ببصرى ، فقيل له : ولم ياأبا معاذ؟ قال : لئلا أرى من أبغض » .

ولم يتبرم بشار بأعدائه وحدهم ، بل كثيرا ما كان يثقل عليه أصدقاؤه ، فان تذكرنا مقدار ما لقيه من إيذاء مقصود وغير مقصود منهم أيضا لم نستغرب ذلك . يقول فى بعضهم :

وكيف يخف لى بصرى وسمعى   وحولى عسكران من الثقال
قعودا حول دسكرتى بعندى   كأن لهم علىَّ فضول مال
إذا ما شئت صبحنى هلال   وأى الناس أثقل من هلال

ويقول فى آخر :

ربما يثقل الجليس وإن كا   ن خفيفا فى كفة الميزان
كيف لاتحمل الأمانة أرض   حملت فوقها أبا سفيان

وله فى نفس الرجل هذان البيتان الشديدا السخط والهياج :

هل لك فى مالى وعرضى معا   وكل ما يملك جيرانيـــه
واذهب الى أبعد ما ينتوى   لا ردك الله ولا ماليه

وبلغ به استثقاله للـكثيرين من جلسائه أنه كان يعمد إلى وسائل عظيمة الجفاوة للتخلص منهم :

« قعد إلى بشار رجل فاستثقله ، فضرط عليه ضرطة ، فظن الرجل أنها أفلتت منه ، ثم ضرط أخرى ، فقال : أفلتت، ثم ضرط ثالثة ، فقال يا أبا معاذ ، ما هذا ؟ قال : مه ! أرأيت أم سمعت ؟ قال : بل سمعت صوتا قبيحا . فقال : فلا تصدق حتى ترى ! »

ويروى عن بعض جلسائه أنهم أتوه فأذن لهم والمائدة موضوعة بين يديه فلم يدعهم إلى طعامه . فلما أكل دعا بطست فـكشف عن سوءته فبال . ثم حضرت الظهر والعصر والمغرب فلم يصل . فلما عاتبوه أجابهم بما يدلنا على أنه إنما تعمد هـذه الاساءات ليغيظهم ويحملهم على تركه

إذ استثقل صحبتهم . ولكنهم كما تدل القصة بقوا لديه من قبل الظهر إلى ما بعد المغرب !

ولما ليم على كثرة هجائه علله بفساد ظنه بالناس ، فقال : « إنى وجدت الهجاء المؤلم آخذ بضبع الشاعر من المديح الرائع ، ومن أراد من الشعراء أن يكرم فى دهر اللئام على المديح فليستعد للفقر ، وإلا فليبالغ فى الهجاء . » ولا يهمنا الآن أمحق هو أم غير محق فى سوء ظنه هذا ، إنما يهمنا دلالة هذا الخبر على مقدار تسمم ذهنه ضد الناس .

الجانب الثانى : نور

معاصروه ونقادنا

لسنا نريد فى محاولتنا إنصاف بشار أن نتجنى على معاصريه . فان كان قد لقى منهم شراً كثيرا فقد لقوا منه شراً ، صحيح أن الشر الذى فيه إنما تولد عن تتبعهم إياه بالأساءة ، ولكن الدراسة الأدبية الصحيحة ـ دعك من العدل ـ تقتضينا أن ننظر إلى المشكلة لا من وجهة نظره هو وحده بل من وجهة نظرهم أيضا ، حتى نتعرف عقيدتهم فيه وشعورهم نحوه . وحين نفعل ذلك فلابد أن نراعى حالة مجتمعهم ، ومستواهم الفكرى والذوقى ، وتقاليدهم الدينية والخلقية ، والا نتطلب منهم ما كانوا عنه عاجزين .

فهذا وحش هائل الحجم زائد الضخامة ، أعمى شنيع العمى ، قبيح الوجه بجدوره ، لا عجب أن ينفروا من مرآه ، ولا يلام أمثالهم اذا خلطوا بين النفور الجمالى والنفور الخلقى ، فليس من العدل أن نطالبهم بما يستطيعه ذهننا المثقف المتعمق من التمييز الحاد بين الحكمين .

وهذا رجل برغم دمامته الفظيعة لا يفتأ يتحبب إلى النساء ويتابعهن، وينجح فعلا مع الكثيرات منهن ، ولا يكتفى بهذا بل يعمد إلى رواية مغامراته فى شعر شديد التأثير على الفتيان والنساء ، ثم لا يكتفى بالرواية

حتى يدعو الشبان والنساء دعوة صريحة إلى اهدار الحدود الخلقية التى يتقيد بها المجتمع .

وهذا أعمى شديد اللجاجة عنيف الخصومة دائم العناد ، لا يرضى بما قسم له من عاهة لا سبيل إلى إصلاحها ، ولا يقنع بما تفرض عليه من منزلة وضيعة فى المجتمع . لا يرضى بما يرضى به العميان عامة من الاستكانة للمبصرين ، ولا يقبل ما يفرضون على العميان من الأسبقية والسيطرة .

وهذا مولى خسيس الأصل لا يؤدى إلى أسياده العرب ما ينبغى لهم من الأجلال والخضوع ، بل يظل يكابرهم ويحاول ان يكون لهم ندا نظيرا ، ويتطلب منهم مالا يستطيعون ان يؤدوه الى مولى من الاحترام والاعتراف بالمساواة ، ويتجاوز هذا كله فيدعو سائر الموالى إلى التمرد على أسيادهم .

وهذا زنديق فاسد العقيدة زائغ عن الدين السوى ، لا يقبل الأسلام ولا يبادر إلى الاعتراف بصحته وصدقه كما يفعل معاصروه ، ولا يفتأ فى حلقات المناقشة التى يؤمها يثير فيه الشكوك والريب . ونحن لا نستطيع أن نفرط فى لومهم اذا لم يميزوا بين الشك والألحاد ، واذا لم يدركوا أنه ان لم يقبل الأسلام فهو أيضا لم يقبل المسيحية أو اليهودية أو المجوسية أو سواها من الأديان . ونتجنى عليهم أشد التجنى إذا انتظرنا منهم ان يدركوا أن بشارا لم يختر الشك عنادا وانما اضطر إليه ، أو انتظرنا منهم أن يدركوا عذاب الشك وسعيره ، وان يحملهم هذا الأدراك على مسامحته والرثاء له لا على بغضه والسخط عليه .

وهذا رجل بذىء اللسان مفحش اللفظ هجاء ولوع بالهجاء مقذع فيه ، آذاهم بهجائه ايذاء طويلا ، وكان فى كثير من هجائه هذا ظالما مبتدئا .

وأخيرا هذا رجل برغم كل عيوبه السابقة الذكر يصر على ان يدعى لنفسه مركزا فى المجتمع لا يفهمون له مبررا . قد يكون شاعرا مجيدا ولكن أهذا وحده يؤهله لما يدعيه من المكانة ؟ ثم ما شعره هذا ؟ أليس جزء عظيم منه هجاء شنيعا وجزء آخر دعارة لا تقل شناعة ؟ وقد يكون مفكرا بارعا ، ولكن ما فكره هذا ؟ أليس معظمه غمزا فى الدين وتشكيكا فى عقائده ؟ أفهذا يريد أن يعاملوه معاملة الند ، بل يزيد فيريد أن يعدوه عظيما من عظمائهم وسيدا من ساداتهم ، برغم مولويته وخساسة أصله وولادته على الرق ؟

وصحيح ان العرب ظلموا الموالى ظلما مبينا ، وأنهم فى ظلمهم هذا عصوا ما يأمرهم به دينهم من التسوية التامة بين أجناس الأنسانية . ولكن أيستطيع أحدنا أن يسرف فى لوم العرب ، فى جهلهم وبداءتهم وشراسة طباعهم وبقائهم على كثير من صفاتهم الجاهلية التى لا يزالون قريبى عهد بها — أيستطيع أحدنا أن يسرف فى لومهم وهو يرى الآن أمما متحضرة عالية القدر فى التهذيب والمدنية تعامل الشعوب المقهورة باساءة لا تقل عن إساءة العرب ان لم تزد ؟ هذا مع أن لها فى ثقافتها وتحضرها ، وفى خبرتها بعظات التاريخ ودروس الاجتماع ، وفى بصرها بأصول السياسة وحقائق علم الاقتصاد ، ما كان ينبغى ان يصونها من هذا التصرف الخاطىء الضار بها وبالمحكومين ، حين لم يكن للعرب

شيء من هذا كله. ثم لا ينبغي ان ننسى في هذا كله أن العرب ان حرموا الموالى العدل الاجتماعي ، فهم على الأقل قد حققوا لهم العدل القضائي، وهو عدل لم تظفر به كثير من الأجناس الملونة فى عصرنا الحديث ، ولم يتجاوزوا الأساءة إلى القتل ، وهو نصيب كثير من الزنوج فى أمريكا .

لا نستطيع إذن أن نسرف فى لوم معاصريه ، كما اننا لا نستطيع أن نسرف فى لومه ، فالحق أن قضية بشار هى مثال آخر(١) للمأساة الحقيقية الصادقة التى لا تفتأ تتكرر فى تجارب البشرية ، والتى يصدر فيها الاثم والعدوان وتصدر التعاسة والشقاء لاعن قصد عامد بل عن نقائص تكمن فى طبيعة البشر من حيث انهم بشر ، ثم يبتعثها فيهم تصارع الشخصيات وتعارض الطباع ، أو عن قوى غلابة وظروف قاهرة ليس فى طوق فرد واحد أو مجتمع واحد تبديلها .

لا نستطيع أن نسرف فى لوم معاصريه ، وكل محاولتى السابقة فى الاعتذار لعيوبه لم يكن القصد منها لومهم، بل الذين نستطيع أن نلومهم حقا هم نقادنا المعاصرون الذين ظلموا الرجل ظلما شديدا ، ورسموه بصورة اتبعوا فيها ظن أهل عصره به وكراهتهم له وحزازتهم ضده . هؤلاء النقاد المعاصرون هم الذين نستطيع أن نلومهم لوما عادلا، لسببين اثنين : أولهما أن ما أثاره بشار من العداوات والحزازات قد ماتت بموته وانقضاء معاصريه من ألف ومائتى سنة ، وفى إمكاننا

---

(١) درس المؤلف مثالا سابقا فى كتابه « ثقافة الناقد الأدبى » .

الآن ان نقبل على دراسته ودراستهم متجردين عن الأغراض متنزهين عن الخصومة الشخصية . وثانيهما أننا نستطيع أن نكون أقدر على الدراسة الأدبية الصحيحة والتقدير الشخصى العادل ، بما لنا من ثقافة أنضج ، وفكر أحد ، ووسائل للتحقيق الأدبى والتحليل النفسى أكمل وأجود . فلا يكفينا أن نقول : فلان داعر ، أو فلان متكبر ، أو فلان زائغ ، بل يجب أن نسأل : لم هو داعر أو متكبر أو زائغ . فلعلنا لو تعمقنا أسباب عيوبه تلك لانتهينا إلى مسامحته . بل لعلنا نتجاوز المسامحة إلى الشفقة به والدفاع عنه .

نواحيه الخيرة

أخطأ نقادنا المعاصرون دراسة نقائص بشار ، ولو حاولوا تفهمها تفهما هادئا واستطلاع أسبابها استطلاعا محايداً لاتضح لهم أن معظمها لم يكن شيئا أصيلا فيه ، بل هى نزعات سيئة وقوى شريرة أوجدها فيه المجتمع الذى عاش فيه وما لقيه من هذا المجتمع من معاملة . والذى كان منها فيه بالطبيعة إنما نماه ذلك المجتمع وتلك المعاملة فأوصلاه إلى حده المفرط . فبشار لم يكن شريراً من أصله ، بل شره صفة مكتسبة ولدتها فيه بيئته .

ولكن خطأ نقادنا لم يقتصر على تجسيمهم لعيوبه ورفضهم تحرى أسبابها ، فانهم فى انهما كهم فى تحقيق عيوبه قد أغفلوا الجانب الآخر من المسألة : أغفلوا نواحيه الخيرة التى لاشك فيها .

أكان بشار كشكول نقائص ومجموع عيوب ورذائل لا أثر فيها لناحية خيرة ؟ أكان صورة مظلمة حالكة الظلمة لا بصيص فيها من نور ؟ أكان شريراً أثيماً قاسيا غليظ القلب لا مسيس فيه من رقة ولا نسمة من رحمة أو حنان ؟ هذا ما نتخيله لو قبلنا فيه رأى معاصريه ورأى نقادنا ، وهذا ما ننتهى إلى رفضه لو دققنا التأمل فى شخصيته كما تصورها روايات القدماء أنفسهم ، ولم يفسد تأملنا فكرة سابقة مفروضة أو تعصب جنسى أو دينى .

والذى سأحاوله الآن هو أن أجلى للقارئ نواحيه الخيرة المهملة، نواحى أن أنعمنا النظر فيها وقدرناها حق قدرها صححت تلك الفكرة الخاطئة الشائعة وأثبتت لنا بما لا يترك مجالا للشك أنه لم يكن وحشا كما يدعون .

كان بشار على قدر عظيم من الحنان والرقة ، كان بارا بأهله رفيقا بخدمه ، كريما سخى الكرم على أصدقائه وغير أصدقائه ، صديقا صدوقا مخلصا للرفاق مقدرا للصداقة ، وكان على نصيب غير قليل من الصبر والتسامح والعفو ، وكان ظريفا حسن المجالسة بارع الفكاهة ، وكان على درجة من الشجاعة الأدبية لا تستحق منا سوى الاعجاب مهما نخالفه فى آرائه . وإليك إثبات كل حكم من هذه الأحكام .

بارّ

أكان بشار وحشا أغلق قلبه دون عواطف الانسانية فلم تجمعه بأحد أواصر التعاطف والمرحمة ؟ تأمل جيدا فى القصة الآتية :

« كان برد أبو بشار طياناً حاذقا بالتطيين . وولد له بشار وهو أعمى ، فكان يقول : ما رأيت مولوداً أعظم بركة منه ، ولقد ولد لى وما عندى درهم فما حال الحول حتى جمعت مائتى درهم . ولم يمت برد حتى قال بشار الشعر . وكان لبشار أخوان يقال لأحدهما بشر وللاخر بشير ، وكانا قصابين وكان بشار باراً بهما ، على أنه كان ضيق الصدر متبرما بالناس ، فكان يقول : اللهم إنى قد تبرمت بنفسى وبالناس جميعا ، اللهم فأرحنى منهم . وكان إخوته يستعيرون ثيابه فيوسخونها وينتنون ريحها ، فاتخذ قميصا له جيبان وحلف أن لا يعيرهم ثوبا من ثيابه ، فكانوا يأخذونها بغير إذنه ، فاذا دعا بثوبه فلبسه فأنكر رائحته فيقول إذا وجد رائحة كريهة من ثوبه : أينما أتوجه ألق سعدا ! (١) . فاذا أعياه الأمر خرج إلى الناس فى تلك الثياب على نتنها ووسخها ، فيقال له : ما هذا يا أبا معاذ ؟ فيقول : هذه ثمرة صلة الرحم ! قال : وكان يقول الشعر وهو صغير ، فاذا هجا قوما جاءوا إلى أبيه فشكوه فيضربه ضربا شديداً . فكانت أمه تقول : كم تضرب هذا الصبى الضرير ، أما ترحمه ؟ فيقول : بلى والله إنى لأرحمه ، ولكنه يتعرض للناس فيشكونه إلى . فسمعه بشار فطمع فيه فقال له : يا أبت إن هذا الذى يشكونه منى إليك هو قول الشعر ، وإنى أن ألممت عليه أغنيتك وسائر أهلى ، فان شكونى إليك فقل لهم : أليس الله يقول ليس على الأعمى حرج ؟ فلما عاودوه شكواه قال لهم برد ماقاله بشار ، فانصرفوا

(١) مثل يضرب لمن يلقى سوء المعاشرة فى كل مكان .

وهم يقولون : فقه برد أعيظ لنا من شعر بشار » .

يستطيع القارىء أن يستنبط من هذه القصة أشياء كثيرة ، ولكننا نخص باهتمامنا هنا عنصرين عظيمى الأثر فى نفسية بشار . أولهما نشأته التى كانت مليئة بالشقاء والتعاسة . لقى تعذيبا كثيراً من أبيه وإخوته . أما أبوه فكان صانعا يدويا حاذقا ولكن كان رجلا جاهلا على حظ كبير من الغباء وبلادة العقل . فهو لا يعرف ما الشعر وما النثر ، وعقله البليد يقبل كل ما يسمع ، تارة يقبل شكوى الناس من ابنه دون أن يتحرى من البادىء بالتعدى فيضربه ضربا شديداً ، وتارة يقبل سفسطة بشار دون مناقشة فيخرج إلى الناس يخاطبهم كما لقنه ابنه دون فهم ، حتى غاظهم ذلك منه فانصرفوا يقولون فقهه أغيظ لنا من شعر ولده ، ومثل هذا الجاهل الغبى يستحيل أن يكون قدر ولده الممتاز حق قدره ، لم ينتبه إلى فرط حساسيته فعامله بفظاظة ، ولم ينتبه إلى مواهبه العقلية أو الفنية ، ونحن لا نريد فى هذا كله أن نلومه فما كان يستطيع مثله من رعاع البشر وحثالة الجمهور أن يقدر بشارا فى إرهاف شعوره أو عقله أو شاعريته ، وهو لم يقس عليه لأنه عديم الرحمة بل لأن فظاظة المعاملة هى كل ما يعرفه وكل ما تعود عليه هو وأمثاله ، إنما غرضنا شرح مقدار الشقاء الذى يتلقاه مثل هذا الولد الممتاز من أب هذه حاله .

وإخوته أيضا لم يكونوا سوى اجلاف عاديين من سوقة البشر ، لم تهبهم الطبيعة شعرة مما وهبت أخاهم ، والرواية تقص علينا مثلا

فعليا مما آذوا به أخاهم ، ونستطيع أن نتصور أمثلة أخرى مما يؤذى به الأخوة أخا لهم أعمى قاصراً عاجزاً ، وخصوصا حين ينتبهون إلى مقدار تأذيه وسهولة تأثره . والصبيان ليسوا كما تصور الفكرة الرومانتيكية الشائعة ملائكة أبرياء ، بل هم حيوانات قاسية أنانية ، وإلا فتأمل تألب صبية القرية على الأعمى ومقدار إيذائهم له وتأمل إيذاء الطفل للحيوان وقسوته عليه ، حتى يأخذه أولو أمره باحسان معاملته ويعلموه الرأفة بالحيوان الأعجم وبالضعاف من البشر .

والقصة تدل صراحة على تاذى بشار من أبيه واخوته ، ولكنها تدل ضمنا على تأذيه من سائر الناس أيضا ، فلا يستشهد بهذا المثل « أينما أتوجه ألق سعدا » الا فرد لقى الاساءة أنى ذهب ، فهذا بشار يرهقه الناس خارج بيته فيأوى إلى بيته يتلمس فى حماه ملجأ وملاذا فلا يجد إلا العنف والضر من أهله أيضا . ومن هذا نفهم سر لجوئه إلى الهجاء فى هذه السن المبكرة ، فهو منذ حداثته بدأ يذوق اضطهاد المجتمع .

أما العنصر الثانى الذى تريناه هذه الرواية فمبلغ صبر بشار وتحمله إيذاء أهله ومسامحته لهم ، فالرواية تنص صراحة على أن بشارا كان برغم كل ما لقيه من اخوته بارا بهم ، ولو لم تنص على هذا لاستنبطناه نحن من أسلوبها وروحها الشاملة ، فهو لا يبادلهم إساءة بإساءة ، وأقصى مايفعله حين يشتد ضيقه بهم أن يلجأ إلى هذه السخرية المريرة ، يسأله الناس عن نتانة ثيابه فيقول : هذه ثمرة صلة الرحم !

وتأمل الآن فى هذه الرواية المشهورة ، يقول أحد معاصريه :

« قلت لبشار : انك لتجىء بالشىء الهجين المتفاوت . قال : وما ذاك ؟ قلت : بينما تقول شعرا تثير به النقع وتخلع به القلوب مثل قولك :

إذا ما غضبنا غضبة مضرية هتكنا حجاب الشمس أو تمطر الدما
إذا ما أعرنا سيدا من قبيلة ذرى منبر صلى علينا وسلما

تقول :

ربابة ربة البيت تصب الخل فى الزيت
لها عشر دجاجات وديك حسن الصوت !

فقال : لكل وجه وموضع . فالقول الأول جد ، وهذا قلته فى ربابة جاريتى . وأنا لا آكل البيض من السوق ، وربابة لها عشر دجاجات وديك فهى تجمع لى البيض وتحفظه عندها . فهذا عندها من قولى أحسن من « قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل » عندك » .

هذه قصة مشهورة يتناقلها الناس . ولكن فى أى مجال ؟ علام يستشهدون بها؟ هم لايروونها إلا فى معرض النقد الأدبى ، كما يفهمون هذا النقد ، فيستدلون بها على أن بشارا كان له إلى جانب شعره الجيد المتين شعر ركيك سخيف متساقط . ولكن أهذا كل ما تدل عليه القصة ؟ ألا ترى ناحية هامة فى نفسية بشار ينبغى على دارسه أن يلتفت إليها ؟ بلى . هى تدل على مقدار بره بجاريته تلك ، وحنانه عليها . واعترافه باخلاصها فى خدمته . وحرصه على أن يثيبها على ذلك .

فهذا بشار ، الشاعر العظيم المشهور ، ذو الشعر التقليدى الفخم ، وذو الشعر التجديدى الرائع ، يريد أن يرضى جاريته ويدخل على قلبها

السرور ، فلا يستحى أن ينظم لها شعرا بسيطا بأسلوب دارج لا تأنق فيه ، لتنشده وتتغنى فيه فتشعر بغبطة وزهو ، وتفاخر به جاراتها ورفيقاتها . لا يستحى من هذا ، ولا يهمه أن يستغرب الناس شعره الدارج هذا ، أو أن يعدوه عليه ركاكة وتساقطا .

فان أردت أن تفهم هذا حق الفهم فضع بدل بشار شاعرا عظيما من شعرائنا المحدثين . ضع بدله شوقى عظيم شعراء عصرنا ، وتخيل شوقى يشعر برأفة وامتنان نحو خادمة له عامية جاهلة ، فينظم لها بضعة أبيات باللهجة الدارجة لتتغنى فيها وتفرح بها ، ولا يخجله أن يفعل هذا وهو أمير الشعراء ذو الصيت الذائع والمنزلة العالية .

هذان البيتان :

ربابة ربة البيت تصب الخل فى الزيت
لها عشر دجاجات وديك حسن الصوت

هما عندى من أحلى الشعر العربى وأعذبه وأحبه إلى النفس . وأوافق بشارا تمام الموافقة على أنهما فى موضعهما لا يقلان عن معلقة امرىء القيس إشجاء للنفس البشرية . لست أرى فيهما شعرا ساقطا متهافتا كما يدعون . بل أرى فيهما بلاغة بحد البلاغة الذى يضعه العرب أنفسهم: مطابقة مقتضى الحال . فليس الشعر الصحيح مقصورا على النوع الفخم الضخم السامى المترفع الذى يخاطب الآلهة على جبل الأوليمب ، بل من الشعر الصحيح أيضا نوع بسيط يتناول مشاكلنا اليومية العادية التى لا امتياز فيها ولا فخامة ، وهذا يتجلى لك أن درست شعرا أوربيا راقيا كالشعر الانجليزى ، فوجدت فيه النوعين ووجدت لكل منهما

فيه موضعا ووجدت أهله يفخرون بهما معا . ولكن فى هذا بعض خروج عن الموضوع ، فلسنا الآن فى مجال النقد الفنى لشعر بشار بل فى مجال تعرف شخصيته الحقة ، والذى لايعجب ببشار وما صدر منه فى هذه القصة ، سواء أأعجب ببيتيه هذين أم استمجهما ، رجل لا يزال على قدر من صلابة القلب والعجز عن التعاطف البشرى .

والآن عد إلى رواية أخرى يكررونها كثيرا ، وقد نقلناها فى هذا الكتاب مرتين :

« وأخرجت جنازته فما تبعها أحد إلا أمة له سوداء سندية عجماء ما تفصح ، رأيتها خلف جنازته تصيح : واسيداه ! واسيداه ! » .

هم يستدلون بها دائماً على كراهية أهل عصره له وإجماعهم على بغضه وتنفسهم الصعداء حين مات ، وهذا الاستثناء الوارد فى الرواية « الا أمة له » يستعملونه ليزيدوا دعواهم اثباتاً ، فهذه المخلوقة الخسيسة الحقيرة هى وحدها التى حزنت لموته وتبعت جنازته . ورنة الاستهزاء فى هذه الجملة واضحة ، تأمل فى حشدهم لصفات الذم فيها : أمة ، سوداء سندية ، عجماء ، ماتفصح ..

ولكن ما رأى القارىء إذا قلت : هذه المخلوقة الخسيسة الحقيرة لعل رأيها فى بشار أصدق من رأى سائر معاصريه وأقرب إلى الانصاف ، ولعل شهادتها وحدها ترجح شهادة الآخرين جميعا . أقول هذا بهدوء تام ، لايدفعنى الأثر ولا تعمد المبالغة . فهذه الأمة ، السوداء ، السندية ، العجماء ، التى لاتفصح ، قد عرفت بشارا الحقيق ، وخبرت نفسيته فى أصالتها ، خبرته فى داخل منزله ، حيث يتجلى الرجل على

حقيقته وينزع عن وجهه القناع الاجتماعى الذى يتخذه أمام الناس .

كم من رجل يلقاه الناس فيجدونه بشوشا لطيفا رقيق الحاشية ، فيعجبون به ويتحدثون عن لينه وطيبة قلبه ، وهو فى صميمه فظ قاس غليظ القلب لا يتخذ ذلك القناع مع الناس الا رياء ، فان أردت أن تعرفه على حقيقته فتتبعه إلى عقر داره ، وانظر جفاوته مع زوجه وشراسته على أولاده ، وفظاظته مع خدمه ، وأنانيته الكريهة فى معاملته لهم جميعا .

أما بشار فكان الضد النقيض . يلقى الناس فلا يريهم إلا الفظاظة والغلظة ، يفعل ذلك لا لأنه فى صميمه غليظ فظ ، بل لطول ما قاساه منهم وفرط ما ناله من ايذائهم واضطهادهم ، ولأنه استكشف بعد التجارب القاسية أن خير حماية له من تتبعهم إياه بالأذى هى أن يرتدى أمامهم هذا القناع المرعب المخيف . ولكنه يدخل إلى منزله فيلقى بهذا القناع جانبا فتتبدى نفسيته الحقة على أصالتها ، فاذا به رحيم بأهل بيته رفيق بهم حدب عليهم . فان كانت جنازته لم يتبعها أحد الا تلك الأمة السوداء السندية العجماء التى لاتفصح فهذا له شهادة كافية ، فما كانت لتفعل هذا متحدية رأى الناس جميعا وهى تعلم مقدار بغضهم له لولا أن هزتها دوافع قوية قاهرة من الامتنان الصادق والحزن الحقيقى الذى لا زيف فيه فأعطتها هذه الشجاعة النادرة .

حنّان

أ كان قلب بشار صخرة لا تستجيب لعاطفة إنسانية ولا تتأثر بما يتأثر به سائر البشر من ألوان الاحساس الرقيق من رحمة أو حب أو حنان ؟ سنلتفت الآن إلى ناحية أخرى فى بشار تقدم لنا معولا جديداً ننقض به هذه الفكرة الشائعة ، وهى حبه الشديد لأولاده وجزعه المربع حين ماتوا .

ولكن قبل أن أسوق إلى القارىء هذه الاستشهادات الجديدة لا بد أن أثبت له نصيبها من القوة . فإننى أخشى أن يقول : أو فى هذا صحة استشهاد على رقته ؟ أولا يحب كل الناس أولادهم ويجزعون لموتهم ؟ أو فى هذا إذن فضيلة تعد لبشار فى سجل حسناته ؟

وجواب هذا السؤال هو بلا شك : أجل . فإن أنت قرأت بعض الدراسات التحليلية التى وضعها كبار الدارسين يتناولون فيها شخصية مجرم ذى وجود حقيقى فى التاريخ أو خلقه خيال أديب روائى أو تمثيلى عظيم ، فإنك واجد أن هؤلاء الدارسين فى اصدارهم حكمهم النهائى على شخصيته يدخلون فى حسابهم أية ناحية فيه تشهد بنوع من الحنان أو الحب كائناً ما كان. يعدون فضيلة له أنه أحب زوجته أو عشيقته وبر بها ، أو أنه أحب أولاده وحنا عليهم . ويستعملون هذا فى تلطيف الصورة الشائعة عن نصيبه من الشر .

وسبب هذا بسيط : أنه ليس كل الناس يحبون أولادهم ، وليس كل الناس يرأفون بفلذات أكبادهم . أما هذا الحكم الثانى : ليس كل الناس يرأفون بأولادهم ، فيسلم به كل قارىء دون مجادلة . فكل قارىء

لا شك يعرف أمثلة عديدة من آباء قسوا على أولادهم وأهدروا حقوقهم البنوية وأفسدوا مستقبلهم وضيعوا فرصهم فى الحياة ، عن عمد لا عن جهل . ولكن كثيرين من القراء سيتشككون فى قولى أن بعض الناس لا يحبون أولادهم ، فالفكرة الرومانتيكية الشائعة لديهم هى أن كل والد فهو بالغريزة يحب ولده ، مهما يبد منه من أساءة أو ظلم متعمد .

وهذه الفكرة الشائعة ليست خاطئة كل الخطأ ، فهى الأمر العادى المعهود ، ولكن لها استثناءات ، فهناك شواذ بشريون لا تتحقق فيهم هذه الغريزة المألوفة ، فهم لا يحسون نحو أولادهم بحب أصلا ، بل هم يكرهونهم كرها صادقا ، ولست أعنى أنهم يكرهونهم كرها مكتسبا ولده فيهم سوء خلق أبنائهم أو عقوقهم ، بل أعنى أنهم يكرهونهم كرها طبيعيا أصيلا لا سبب له سوى نقص بالطبيعة البشرية - والحيوانية - التى تتحقق فى معظم الناس ومعظم الحيوانات اللبونة .

وهذا الادعاء على غرابته هو ما تثبته دراسة العلم ، ودراسة التاريخ ، ودراسة واقع الحياة ، ولعل القارىء لو فكر فى تجارب حياته تفكيرا كافيا لوجد فيمن عرفهم من الناس مثلا أو مثلين لهذا الوالد الشاذ .

وهو على أى حال يستطيع أن يجد أمثلة عديدة لهؤلاء الآباء والأمهات فى روائع الأدب الأوربى الروائى أو التمثيلى ، والحكم بهذا الأدب مقبول لأنه مستمد من صميم الحياة الواقعة .

فان كان هذا صحيحا فمغزاه أننا فى دراستنا لرجل يتحدث الناس عن إجرامه وشره يصح لنا أن نستشهد فى تخفيف الصورة الشائعة عنه بتحقيق هذه الغريزة الأبوية فيه ، فان هذا يثبت أنه لم يكن شاذا تام الشذوذ عن الطبيعة الأنسانية ، فليس من العدل اذن اخراجه عن نطاق

البشر ، بل لا بد أن نعطيه من التسامح والعفو ما نعطيه سائر الناس.

تأمل إذن فى القصة الآتية :

« توفى ابن لبشار فجزع عليه . فقيل له : أجر قدمته ، وفرط افترطته ، وذخر أحرزته . فقال : ولد دفنته ، وثكل تعجلته ، وغيب وعدته فانتظرته ، والله لئن لم أجزع للنقص لا أفرح للزيادة .

وقال يرثيه :

أجارتنا لا تجزعى وأنيبى — أتانى من الموت المطل نصيبى
بنى على رغمى وسخطى رزئته — وبدل أحجارا وجال قليب
وكان كريحان الغصون تخاله — ذوى بعد إشراق يسر وطيب
أصيب بنى حين أورق غصنه — وألقى علىّ الهم كل قريب
عجبت لأسراع المنية نحوه — وما كان لو مُلّيته بعجيب

وهى أبيات تامة الصدق عظيمة الجوى شديدة التأثير.[1] وستزداد تقديرا لها ان قارنتها بدرة الشعر العربى فى رثاء الولد ، أعنى مرثية ابن الرومى لولده الأوسط ، فانك واجد كثيرا من الأفكار المشتركة بل الصور الأدبية المشتركة .

وتأمل هذه القصة أيضاً :

« حضرنا جنازة ابن لبشار توفى ، فجزع عليه جزعا شديداً ، وجعلنا نعزيه ونسليه فما يغنى ذلك شيئا . ثم التفت إلينا وقال : لله در جرير حيث يقول وقد عُزى بسوادة ابنه :

(١) تجد فى الخالدين ص ٧١ أبياتاً أخرى من هذه القصيدة الجميلة .

قالوا نصيبك من أجر فقلت لهم — كيف العزاء وقد فارقت أشبالى
ودعتنى حين كف الدهر من بصرى — وحين صرت كعظم الرمة البالى
أودى سوادة يجلو مقلتى لحم — باز يصرصر فوق المربأ العالى
إلا تكن لك بالديرين نائحة — فرب نائحة بالرمل معوال

وقوة التأثير فى هاتين القصتين رفض بشار للعزاء وجرأته على التعبير الصادق عن حزنه الحقيقى وان تحدى آراء رجال الدين فى وجوب الاغتباط بكل مصيبة، وهو فى هذا لا يزيد على أن يسطر تسطيرا مخلصا ما يحدث فى نفس الوالد حقا من الغضب وعدم الرضى . ولكن يفوق أبياته الماضية إشجاء للنفس الأبيات الواردة فى القصة الآتية:

« رأيت بشارا المرعث يرثى له بنية وهو يقول :

يا بنت من لم يك يهوى بنتا — ما كنت إلا خمسة أو ستا
حتى حللت فى الحشى وحتى — فتت قلبى من جوى فانفتا
لأنت خير من غلام بتا — يصبح سكران ويمسى بهتا[1]

قلت أن هذه الأبيات تفوق الماضية استثارة للشجن ، وسر ذلك أن بشارا يعترف فيها على نفسه ، يعترف بأنه حين ولدت له تلك الطفلة كرهها ونفر منها ، لأنه كان يفضل الابن . واعترافه هذا يؤكد صدقه فى دعواه الحزن اللاذع حين فقدها، ويرينا من ناحية أخرى أنه لم يكن قاسى القلب كما يدعى الناس، فهو برغم كراهيته للأناث من الولد وخيبة

(١) بت : انقطع عن العمل ، وأقبل على السكر والحماقة ، بهت : مبهوت شارد العقل .

أمله حين لم يولد له ابن ذكر أحب هذه البنية تدريجا وازداد تعلقاً بها حتى حلت فى حشاه فتفتت قلبه حين ماتت. وكم من آباء أعرفهم ويعرفهم كل قارىء لا يصيرون إلى الرضى بالأناث أبدا.

وقوة تأثير هذين البيتين:

لأنت خير من غلام بتا   يصبح سكران ويمسى بهتا

انهما يدلان على عكس ما يدعيه بشار، يدلان على انه لا يزال فى صميمه يفضل أن يولد له الابن الذكر، فان كان برغم اصراره على تفضيل الذكور قد قبل تلك البنية، ورضى بها وأحبها كل ذلك الحب وجزع لموتها كل ذلك الجزع ففى هذا ما فيه من دلالة على قابليته لفتح قلبه لدواعى الحنان.

كريم

العجب أن الناس فى بغضهم لبشار لا يكتفون بتعداد رذائله الحقيقية أو بالمبالغة فى ضخامتها، بل يفترون عليه عيوبا لم تكن به قط. فهم مثلا يرمونه بالبخل، وهو مهما تكن عيوبه الأخرى كان أبعد الناس عن هذه الصفة. فقد كان سخيا جوادا بماله(١)، فاتحا بيته للمعتفين، عظيم العطف على المعوزين من أصحابه يساعدهم بأقصى ما يستطيع. يروون أنه كان يعطى أبا الشمقمق فى كل سنة مائتى درهم، وتعود عليها أبو الشمقمق حتى سماها «الجزية»! هذا مع أنه لم ينل

(١) طه حسين يعترف له بالكرم، ولكنها الفضيلة الوحيدة التى يسلم بها لبشار.

بشار منه شكرانا ولا اعترافا بالجميل. بل ناله الجحود والهجاء والتهديد. ثم يروون القصة الآتية:

«جاء أبو الشمقمق إلى بشار يشكو إليه الضيقة ويحلف له أن ما عنده شىء. فقال له بشار: والله ما عندى شىء يغنيك، ولكن قم معى إلى عقبة بن سلم. فقام معه فذكر له أبا الشمقمق وقال: هو شاعر وله شكر وثناء. فأمر له بخمسمائة درهم، فقال له بشار:

يا واحد العرب الذى   أمسى وليس له نظير
لو كان مثلك آخر   ما كان فى الدنيا فقير

فأمر لبشار بألفى درهم. فقال له أبو الشمقمق: نفعتنا ونفعناك يا أبا معاذ! فجعل بشار يضحك».

تأمل كرمه الأصيل فى هذه القصة. يأتيه ذلك الشاعر المسكين وليس عنده ما يكفيه، وقد كان يستطيع أن يعتذر بضيقته ويكون اعتذاره صحيحا واجب القبول. ولكنه يأبى إلا أن يأخذه إلى ولى نعمته فيستجديه له. وتأمل أيضا سوء أدب أبى الشمقمق وقلة ذوقه، لا يشكر له ما بذله من أجله من جهد، بل يقول نفعتنا ونفعناك! أى يأبى أن يعترف له بفضل فيقول إن كنت نفعتنى فقد نفعتك أيضا. فلا يحتج بشار على جحوده بل يضحك.

واقرأ الآن مرة أخرى هذه القصة التى سبق أن رويناها:

«بعض الشعراء قال: أتيت بشارا الأعمى وبين يديه مائتا دينار. فقال لى: خذ منها ما شئت، أو تدرى ما سببها؟ قلت: لا. قال:

جاءنى فتى فقال لى : أنت بشار ؟ فقلت : نعم . فقال : إنى آليت أن أدفع إليك مائتى دينار ، وذلك أنى عشقت امرأة فجئت إليها فكلمتها فلم تلتفت إلى ، فهممت أن أتركها فذكرت قولك :

لا يؤيسنك من مخبأة ... قول تغلظه وإن جرحا
عسر النساء إلى مياسرة ... والصعب يمكن بعدما جمحا

فعدت إليها فلازمتها حتى بلغت منها حاجتى .

يستشهدون بها على دعارته وإفساده للشبان فى عصره ، وهى إن دلت على هذا فانها تدل ايضا على شىء آخر ، على كرمه وجوده بماله . يأتيه ذلك الرجل وبين يديه مائتا دينار (أو مائتا درهم فى رواية أخرى) فيقول له : خذ منها ما شئت .

وما كان بشار ليفخر بكرمه فى الموطن الآتى لو لم يكن فى فخره هذا صادقا :

« أنشد بشار جعفر بن سليمان :

أقلى فانا لاحقون وإنما ... يؤخرنا أنا يعد لنا عدا
وما كنت إلا كالأغر ابن جعفر ... رأى المال لا يبقى فأبقى به حمدا

فقال له جعفر بن سليمان : من ابن جعفر ؟ قال : الطيار فى الجنة . فقال : لقد ساميت غير مسامى ! فقال : والله ما يقعدنى عن شأوه بعد النسب ، لكن قلة النشب ، وإنى لأجود بالقليل وإن لم يكن عندى الكثير ، وما على من جاد بما يملك ألا يهب البدور . فقال له جعفر : لقد هززت أبا معاذ . ثم دعى له بكيس فدفعه إليه » .

كان بشار حقا يجود بالقليل إن لم يكن عنده الكثير ، فان لم يكن عنده قليل يجود به استجدى لمستجديه ، كما رأينا فى القصة السالفة .

ولقد صدق أيضا فى فخره :

نارى محرقة وبيتى واسع ... للمعتفين ومجلسى معمور

وهو القائل حين افتقر :

لقد كنت لا أرضى بأدنى معيشة ... ولا يشتكى بخلا علىّ رفيق
خليلى أن المال ليس بنافع ... إذا لم ينل منه أخ وصديق

ولنا أن نسائل . أين كان هؤلاء الأصدقاء والرفاق الذين لم ينقطع عنهم كرمه ، أين كانوا حين مات فلم يتبع جنازته منهم أحد ؟

سيسأل القارىء : إن كان هذا حقا فما باله يسأل الأغنياء فيلحف فى سؤالهم ، بل يهددهم بالهجاء إن لم يعطوه ، وينفذ تهديده هذا ؟ أليس فى هذا جشع ولؤم طبع ؟

والجواب الصحيح لاشك أن ليس فى هذا جشع أو لؤم طبع ، فان بشارا كان يعتقد أنه ليس يسألهم منة إنما يطالبهم بحق له عليهم ، هم أغنياء وهو شاعر فقير لا مكسب له إلا عن طريق اعتراف الناس بقدره فى الشعر ومكافأتهم إياه على هذه الموهبة . وخصوصا إذا تذكرنا أنه أعمى لا يستطيع أن يحترف حرفة يكسب بها قوته . والقصة التى رد فيها على الشيخ الذى سأله ما صناعته فقال : أثقب اللؤلؤ ، تدل على أنه كان يعتبر شعره حرفته التى ينبغى أن يعطى أجرها . فان لمنا الشعراء المبصرين الذين تكسبوا بشعرهم واعتقدوا أنه يستأهل لهم الرزق

وحده دون أن يؤدوا للمجتمع خدمة عملية فاننا لا نستطيع أن نوجه هذا اللوم إلى شاعر كفيف. وإلا فماذا كنا ننتظر أن يفعل؟ يثقب اللؤلؤ؟

اعتقد بشار أنه يستحق المكافأة على شعره وحده، وأنا أرى أنه كان فى اعتقاده هذا محقا، على أنه لا يهمنا أبداً أكان فى اعتقاده مصيبا أم كان مخطئا، لا يهمنا هذا فى المجال الذى نحن فيه، مجال الحكم الخلقى عليه، فالمهم هو أن الذى يظن هذا الظن لا يكون إلحاحه فى سؤال الأغنياء صادراً عن جشع أو عن لؤم طبع. أضف إلى هذا أن بشارا كان سىء الظن فى أغنياء عصره، حتى قال حين ليم على كثرة الهجاء:

إنى وجدت الهجاء المؤلم آخذ بضبع الشاعر من المديح الرائع، ومن أراد من الشعراء أن يكرم فى دهر اللئام على المديح فليستعد للفقر وإلا فليبالغ فى الهجاء ليخاف فيعطى. ولا يهم - مرة أخرى - أن يكون محقا فى سوء ظنه هذا أو غير محق، فالحقيقة تبقى، أن من لديه مثل هذا الظن السيء لا يكون الحافه فى المطالبة صادراً عن جشع أو لؤم، بل أقصى ما يقال فيه أن يكون صادرا عن اعتقاد مخطىء، وهذا لا يطعن فى دوافعه الخلقية بل يطعن فى صحته العقلية. ولبشار قصيدة رائعة لا تترك فى هذا مجالا للشك، هى القصيدة المشهورة التى قالها حين حرمه المهدى ولم يثبه على مديحه:

خليلى أن العسر سوف يفيق ... وإن يسارا فى غد لخليق
ذرانى أشب همى براح فاننى ... أرى الدهر فيه فرجة ومضيق
وما كنت إلا كالزمان إذا صحا ... صحوت وان ماق الزمان أموق
أأدماء لا أستطيع فى قلة الثرى ... خزوزا ووشيا والقليل محيق

خذى من يدى ماقل ان زماننا ... شموس ومعروف الرجال رقيق
لقد كنت لا أرضى بأدنى معيشة ... ولا يشتكى بخلا على رفيق
خليلى أن المال ليس بنافع ... اذا لم ينل منه أخ وصديق
وكنت اذا ضاقت على محلة ... تيممت أخرى ما على تضيق
وماخاب بين الله والناس عامل ... له فى التقى أو فى المحامد سوق
ولا ضاق فضل الله عن متعفف ... ولكن أخلاق الرجال تضيق

جمهور المتأدبين يعجبون كثيرا بهذه القصيدة، ويكثرون الاستشهاد بأبياتها يتمثلون بها ويعلمونها أولادهم ويرغمونهم فى موضوعات الإنشاء على التمثل بها، وهم فى هذا محقون، فهى قصيدة جد بديعة، ولكنهم لا يلتفتون فى هذا كله الى دلالتها على شخصية قائلها، كأن أبياتها درر وجدت بالطبيعة دون منشىء! فهذه قطعة شعرية تامة الصدق حارة الأخلاص، والذى يقول هذه الأبيات الفائقة ليس نظاما يظهر براعته فى نظم الحكم السوقية المبتذلة، بل هو رجل آمن ايمانا عميقا بلزوم الكرم وضرورة السخاء فى المجتمع الانسانى. فان أجاد القارىء تفهم هذه القصيدة فانها تكشف له عن أشياء كثيرة. سيرى أن بشارا ليس محزونا لحرمانه فحسب، بل الذى يهيج أعظم حزنه هو صفة البخل فى الممدوح وشيوع الشح بين الناس: « ومعروف الرجال رقيق. » « أخلاق الرجال تضيق ». هذا هو الذى يحزنه أشد الحزن، قلة الوفاء بين الرجال وانعدام الكرم الصادق الصادر عن سعة الأخلاق، فان كان هذا الشعور يصاحبه تحسر على حالته فليس تحسره مقصورا على أنه هو حرم لذات وخيرات كان يستمتع بها، بل يؤلمه

أيضا أنه فى فقره هذا لن يستطيع أن يستمر فيما كان يألفه من التكرم على الرفاق، وهذا واضح فى اعتذاره إلى صاحبته التى يسميها « ادماء » وفى تثنيته هذا الاعتذار اليها بتذكيرها بأنه حين كان ميسور الحال لم يكن بخيلا . وما كان يستطيع ان يقول هذا فى هذا المجال لو كان بخيلا حقا .

ومعلمو الأدب ومتعلموه يعجبون أيضاً أكبر إعجاب بمدح بشار لعقبة بن سلم ، ويكثرون من روايته والاستشهاد به . من مثل قوله :

إنما لذة الجواد ابن سلم   فى عطاء ومركب للقاء
ليس يعطيك للرجاء ولا الخو   ف ولكن يلذ طعم العطاء
يسقط الطير حيث ينتثر الحب   وتُغشى منازل الكرماء

ولا ينتبهون إلى أن السر الحقيقى فى جودة هذا المديح هو أنه صادر عن إعجاب صادق بفضيلة الكرم ، شأنه فى ذلك شأن مدائح المتنبى الرائعات التى نظمها فيمن استثاروا منه إعجاباً صادقاً .

وهم يعجبون كذلك بالقطعة الآتية فى ذم بخيل ، ويحفّظونها أولادهم ويختارونها فى كتاب « المنتخب من أدب العرب » للمدارس الثانوية :

ظل اليسار على العباس ممدود   وقلبه أبدا بالبخل معقود
ان الكريم ليخفى عنك عسرته   حتى تراه غنياً وهو مجهود
وللبخيل على أمواله علل   زرق العيون عليها أوجه سود
إذا تكرهت أن تعطى القليل ولم   تقدر على سعة لم يظهر الجود
أورِقْ بخير ترجّى للنوال فما   ترجى الثمار إذا لم يورق العود

بُثّ النوال ولا تمنعك قلته   فكل ماسدّ فقرا فهو محمود

ولا يلتفتون إلى أن قائل هذه الأبيات قد كره البخل كرها صادقا عميقاً(١). ومن الهام أن نلاحظ هنا أن جزءاً عظيما من هجاء بشار مصبوب على البخلاء .

على أن بشاراً لم يكن جواداً بماله وحده ، بل كان جواداً بما قد يكون أعز من هذا وأندر فى أوساط الشعراء ورجال الأدب ، كان جواداً بنصحه وإرشاده لغيره من محترفى الشعر والأدب ، وبعضهم كان من منافسيه . يقصون عنه قصصاً كثيرة يستمع فيها إلى شعرهم ويقرظه أو ينقده ويقترح فيه تحسينات ويتنبأ لهم بمقدار الأجازة التى سينالونها عليه . ويقول الأصمعى ان مروان بن أبى حفصة لم يكن فى حياة بشار يقول شعراً حتى يصلحه له بشار ويقوّمه . ومروان هذا كان من منافسيه وقد استمرت المفاضلة بين شعريهما عهداً طويلا بعد وفاتهما. ولكن القارىء لا يدرك سخاء هذه المعونة الأدبية حق الادراك إن ظن أن منافسيه أولئك لم يكونوا يهددونه إلا فى الشهرة والمنزلة الشعرية . والحق أنهم كانوا ينافسونه لا فى هذا الاعتبار المعنوى وحده بل فى تحصيل الرزق والظفر ببلغة العيش ، فالشعر كان حرفتهم جميعاً ،

---

(١) وله أيضا هذه الأبيات الصادقة :

قل للأمير إذا نزلت به   ان المباخل ذمها عجل
بئس المروءة من ذوى حسب   جاعت قرابتهم وقد ثملوا
شبع الأمير وجوع صاحبه   عار الحياة فأطعموا وكلوا

وواضح فيها أنه لا يشكو بخل الأمير عليه بل بخله على أقاربه

والذى يجود بنصحه وإرشاده ومعونته على منافسيه فى اللقمة يكون كريماً حقاً ، فما بالك به إذا تذكرت أنه أعمى وهم مبصرون يستطيعون إلى الرزق سبلا هو عاجز عنها ؟

مُصادِق

فضيلة أخرى عظيمة لاشك فى وجودها ببشار : أنه كان رجلا عظيم التقدير للصداقة محتفظاً بأصدقائه ودوداً إليهم شديد الحرص عليهم .

صحيح أن أصدقاءه نالهم منه هجاء كثير ، ولكن هذا لاينفى شغفه بهم وتمسكه بصداقتهم وبذله كل جهد فى الاحتفاظ بها . والقدماء أنفسهم يؤكدون لنا أن بعض هؤلاء الذين هجاهم كانوا من أعزهم عليه وأشدهم مكانة فى نفسه . ولا تنس أيضاً أنه هو قد ناله من أصدقائه — لا من أعدائه وحدهم — أذى كثير ، رأيته فى بعض القصص الماضية ، ورأيت كيف كان يقابله كثيراً بالعفو والصبر .

نريد أولا أن ننبه القارىء إلى أن الصفة التى نحاول الآن إثباتها لبشار ليست مجرد كرمه وسخائه على أصدقائه ورفاقه ، فهذا شىء قد فرغنا منه فى الفصل الماضى ، إنما هى صفة أخرى أغلى وأندر ، هى إدراكه لقيمة الصداقة وحرصه عليها ، وهى صفة يؤسفنى جداً أن أقول أنها قليلة الوجود فى المجتمع الشرقى ، لا فى عصر بشار فحسب ، بل فى عصرنا نحن أيضاً . ولسنا نحتاج فى إثبات هذه الصفة له إلى أكثر من أن نسوق له شعراً بديعاً فى هذا الموضوع .

يروون :

« كان لبشار خمسة ندماء ، فمات منهم أربعة وبقى واحد يقال له البراء ، فركب فى زورق يريد عبور دجلة العوراء فغرق ، وكان المهدى قد نهى بشاراً عن ذكر النساء والعشق ، فكان بشار يقول : ماخير فى الدنيا بعد الأصدقاء . ثم رثى أصدقاءه بقوله » قصيدة نكتفى منها الآن بهذه الأبيات :

كان لى صاحبا فأودى به الدهـــر   ففارقته عليه السلام
بقى الناس بعد هلك ندامى   ى وقوعا لم يشعروا ما الكلام
كجزور الأيسار لا كبد فيـ   ـها لباغ ولا عليها سنام
يابن موسى فقد الحبيب على العيـ   ـن قذاة وفى الفؤاد سقام
كيف يصفو لى النعيم وحيدا   والأخلاء فى المقابر هام
نفستهم(١) على أم المنـــايا   فأنا متهمو بعنف — فناموا
لا يغيض انسجام عينى عليهم   إنما غاية الحزين السجام

الذى يقول هذه الأبيات الصادقة الحزن كان يعز الصداقة حقا . وهو مخلص حين يقول : ما خير فى الدنيا بعد الأصدقاء . تأمل جيدا قوله : كيف يصفو لى النعيم وحيدا .

وحين يقول :

وأودعت عمرا بعض مافى جوانحى   وجرعته من مر ما اتجرع

---

(١) نفستهم : حسدتهم .

ولا بد من شكوى إلى ذى حفيظة   إذا جعلت أسرار نفسى تطلع

يقطع كل شك فى تقديره لقيمة الصداقة ، فهو يعترف بالحقيقة الحاصلة ، فلو أنه ادعى أنه يريد الأصدقاء ليتكرم عليهم ويحسن إليهم لعرفنا أنه كاذب فى دعواه واستنتجنا أنه لا يقدر الصداقة تقديرا صادقا. ولكنه لا يدعى شيئا من هذا ، بل يعترف بأن غرضه الأول من أصدقائه هو أن ينفس عن آلامه بالبوح بها إليهم ويخفف من كربه بإشراكهم فيه . والذى يعترف بهذا لا شك يعرف قيمة الصداقة الحقة .

أما حين يقول لصديق خانه :

لو كنت لى سيفا غداة الوغى   طبت به نفسا لأعدائى
أو كنت نفسى جمعت فى يدى   ألقيتها سمحا بالقائى
لارقأت عين امرىء أنوك[1]   يبكى أخا ليس ببكاء

فهو يثبت لنا هذه الصفة فيه بطريقة أخرى دون أن يدرى . فهو فى هذه الأبيات هائج أشد الهياج على صديقه العاق هذا ، ويحمله هياجه على أن يدعى أنه ليس محزونا على خسارته ويدعى أنه سعيد بالتخلص منه ، ولكنه فى هذا كله يثبت — دون أن يدرى — مكانة صديقه هذا فى نفسه ولوعته العظيمة على خسارته ، وإلا فهل كان يغضب هذا الغضب ويصيح هذه الصيحات لو كان الذى هجره رفيقا لا يبالى بهجرانه ؟ والذى يقول البيت الأخير رجل بكى فعلا لخيانة صديقه ، ثم غضب على نفسه لبكائه فهو يأخذ نفسه أخذا شديدا ويحاول أن

(١) أنوك : أحمق .

يرغم عينه على احتباس دمعها. وهذا مثل آخر يريك أن ادعاء الشخص كثيرا ما يدل على عكس ما يريد أن يدعيه. فان أردت أن تزداد بهذه الأبيات الجميلة فهما فتصور تجربة إنسانية أخرى مشابهة . تذكر مثلا حال أب يعقه ولده ويهجره ، فيصيح : أتظنون أنى محزون لأنه عقنى وهجرنى؟ لا والله العظيم أنا مسرور . فى داهية! لا أريد أن أرى وجهه أبدا ما عشت . . . إلى آخر ما يقول مثل هذا الأب المجروح . فعلام يدل كلامه ؟ هو كلما بالغ فى ادعائه زادنا تثبتا من مقدار حزنه والتياعه .

وبعد فبشار هو القائل :

إذا كنت فى كل الأمور معاتبا   صديقك لم تلق الذى لا تعاتبه
فعش واحدا أو صل أخاك فانه   مقارف ذنب مرة ومجانبه
إذا أنت لم تشرب مرارا على القذى   ظمئت وأى الناس تصفو مشاربه

هذه أيضاً أبيات صادقة فائقة الجمال والسمو ، يعجب بها الناس ويحفظونها ويرددونها ويعلمونها أولادهم، ولا ينتبهون هنا أيضاً إلى دلالتها على نفسية قائلها ، والذى يتأملها تأملا صحيحا يرى أنها تثبت إثباتا نهائياً ان قائلها مستحيل ان يكون كما يتصوره الناس خواناً لئيم الطبع غدارا، بل هو رجل فى فرط حفاظه على الصداقة يتحمل الكثير ويتجرع الكثير . وقد قال أيضاً[1] :

أحسن صحابتنا ولا تك جافيا   فالدَّر يقطعه جفاء الحالب

(١) الخالدين ص ٤٥

وارجع كما رجع الحليم ولا تكن
كمقارف ذنبا وليس بتائب

والذى يقول هذين البيتين رجل يصل فى حرصه على استعادة اصدقائه الذين جفوه حد التوسل وان يكن فى هذا إذلال له .

نعود فنسأل : أين كان هؤلاء الأصدقاء حين مات فلم يتبع جنازته منهم احد؟ اقعد بهم الجبن فلم يجرؤوا على تحدى شعور الناس ؟ ام تراهم ماتوا جميعاً قبل موته ؟ ذلك ما نرجوه فهو أكرم لهم .

سيقولون: فما باله يهجو أصدقاءه ورفاقه فى الزندقة ، فيرميهم بنفس عيوبه من الزيغ وترك الصلاة والصوم والفسق ، كما ترى فى هجائه لعبد الكريم بن أبى العوجاء وفى هجائه الطويل لحماد عجرد ؟ أليس هذا لؤما وخيانة ؟

وجوابنا : ليس فى هذا لؤم أو خيانة . بل هو عجز نقادنا عن ان ينظروا فى هذا الهجاء بالنظرة التاريخية الصحيحة ، فهم يحكمون عليه بالاعتبار الذى يطبقونه لو صدر من شاعرين متهاجيين فى عصرنا ، والحق أن لم يكن فى ذلك الهجاء من النيل أو الأيلام ما يكون له لو قاله احد شعرائنا المعاصرين يهجو به زميلا له ، ولقد كان يصدر عن شعراء ذلك العصر بلا حقد ولا ضغن ، إنما هو فن يتبارون فيه ويحاول كل منهم أن يزيد على الآخر براعة فى اشتقاق السّباب . وهى ظاهرة أدبية واجتماعية نشأت فى ذلك العصر وكانت امتداداً للنقائض التقليدية فى صورة جديدة وشارك فيها كل الشعراء المجان الذين تنادموا على

الخمر وتشاركوا فى الاستهتار ، فكثيرا ما حولوا حلقات مجونهم إلى مباريات فى التهاجى . وهو بعد فن ليس تام الغرابة علينا ، صحيح أنه لا يصدر الآن عن شعرائنا ، ولكن نقادنا لم يكونوا يحتاجون إلا إلى أن يتأملوا ظاهرة أخرى عندنا شديدة الشبه لكى يدركوا الطابع الحقيقى لتلك المهاجاة ، والظاهرة التى نعنيها هى حين يهب صديقان من العامة فى مجلس منادمة أو حفلة زفاف أو ختان أو ما أشبهها من المناسبات فيتباريان فيما يسمى « الدخول فى قافية» . يقول أحدهما: أبوك. فيقول الآخر : اشمعنى . فيقول الأول : كذا وكذا. ثم يبدأ ثانيهما فيرد قائلا: أمك : فيقول له زميله : اشمعنى : فيقول : كيت وكيت . وليس أحدهما حانقا على زميله ولا هو يتعمد الأيذاء ولا هو يريد أن يسب أمه أو أباه وإنما هما يتنافسان فى هذا الفن ويضحكان السامعين ويضحكان هما أيضاً وحين تنتهى المباراة يعودان إلى المصادقة والصفاء .

فيسمى نقادنا هذا خيانة وغدرا ، وينسون أن بشارا ان كان هجا الآخرين فقد هجوه أيضاً !

ولكن أعجب العجب ان يؤاخذ نقادنا بشارا على هجائه حماد عجرد وأن يروا فى رميه إياه بالزندقة خيانة . وهو ان كان هجا حماداً بالزندقة فقد هجاه حماد أيضا ، وقد طال تهاجيهما فلم تبق وصمة إلا رمى كل منهما بها صاحبه . صحيح أن هذه المهاجاة حين طالت انتهت إلى قدر عظيم من المرارة والتأذى ، ولكن منشأها لم يكن إلا ماشرحناه من التبارى فى الهجاء ، والشأن فيها كالشأن فى « الدخول فى قافية » الذى لا نزال

نجده فى عصرنا ، حين يطول ينتهى أحيانا إلى المعاداة الحقيقية ان لم يسرع السامعون بفض الحلقة وإسكات المتنافسين ، فمن السخف البالغ أن ننحاز إلى صف حماد ضد بشار فى هذه الخصومة التى استطارت وبلغت شناعة زائدة . على أنه ان استحق أحدهما أن نخفف من لومنا له فذلك بشار لا حماد ، ونقادنا حين يغفلون هذه الحقيقة يقدمون أعظم دليل على إصرارهم فى التحامل على بشار ، فانه لا يمكننا أن نقول انهما تساويا فى الخلاعة والاستهتار ، فحماد كما يبدو من سيرته كان أشد جموحا وأقل استحياء ، والثابت أنه كان به رذيلة خلا منها بشار خلوا تاما طول حياته وهى اللواط .

وبالأغانى (١) قصة تروى عن أبى نواس لو صحت لدلت على أن حمادا كان مجوسيا حقيقيا :

« أخبرنى احمد بن عبيد الله بن عمار قال حدثنى أبو إسحق الطلحى قال حدثنى أبو سهل قال حدثنى أبو نواس قال : كنت أتوهم ان حماد عجرد إنما يرمى بالزندقة لمجونه فى شعره ، حتى حبست فى حبس الزنادقة فاذا حماد عجرد إمام من أئمتهم ، وإذا له شعر مزاوج بيتين بيتين يقرأونه فى صلاتهم . »

وهى رواية متصلة الأسناد كما ترى ، ولا ندرى سببا يحمل أبا نواس على افتراء هذه القصة ، ولم يرو أحد نظيرها عن بشار قط . ومهما يكن من الأمر ففى الأغانى (٢) قصة تدل على أن بشارا ظل فى هجائه حمادا

---

(١) أغاني ساسى ٧١/١٣
(٢) أغاني ساسى ٨١/١٣

ممسكا لسانه عن أن يسرف فى الأفحاش حتى بدأ به حماد فأطلق بشار إذ ذاك للسانه حريته :

« قال أبو عبيدة : مازال بشار يهجو حمادا ولا يرفث فى هجائه إياه حتى قال حماد [أبياتا نمسك عن روايتها] . . . فلما بلغت هذه الأبيات بشارا أطرق طويلا ثم قال : جزى الله ابن نهى خيرا . فقيل له : علام تجزيه الخير ؟ أعلى ما تسمع ؟ فقال : نعم والله . لقد كنت أرد على شيطانى أشياء من هجائه إبقاء على المودة ، ولقد أطلق من لسانى ما كان مقيدا عنه وأهدفنى عورة ممكنة منه . فلم يزل بعد ذلك يذكر أم حماد فى هجائه إياه ويذكر أباه أقبح ذكر . »

نعود فنكرر أن حمادا كان أعظم من صاحبه استهتارا وتعمدا للشناعة وتبذلا . على أنهما لو تساويا - وهذا مالا تسلم به - لكان لبشار فى عاهته وما لقيه من اضطهاد الناس مايجعلنا نسامحه بأسرع مما نسامح حمادا ، فنحن لانجد بحماد عاهة ولا هو ناله أذى الناس واضطهادهم كما نال الآخر . ومن هذا كله يرى القارىء أننا لم نستعمل تعبيرا زائد الحدة حين قلنا أن من السخف البالغ أن ننحاز إلى حماد فى هذه الخصومة المستطيرة ، أو نسمى رمى بشار إياه بالزندقة خيانة .

صفوح

اعترفنا على بشار بالنزق وسرعة الغضب وضيق الصدر ، وبأنه كثيرا مابدأ خصومه - وأصدقاءه أيضا - بالهجاء دون ما استفزاز .

ولكننا نخطىء خطأً شديداً ان ظننا أنه كان هكذا فى كل حالاته . فالحق أنه كثيراً ما صفح ، كثيراً ما تحمل الأذى وصبر عليه ، مختاراً لا مضطراً .

يروون عنه :

« وقف على بشار بعض المجان وهو ينشد شعراً ، فقال له : استر شعرك هذا كما تستر عورتك . فصفق بشار بيديه وغضب وقال له : من أنت ويلك ؟ قال : أنا أعزك الله رجل من باهلة ، وأخوالى سلول ، واصهارى عكل ، واسمى كلب ، ومولدى بأضاخ ، ومنزلى بنهر بلال ! فضحك بشار ثم قال : اذهب ويلك ! فأنت عتيق لؤمك ، قد علم الله أنك استترت منى بحصون من حديد » .

قد يقول القارىء : ولكن هذا عفو مضطر وليس عفو مختار . فبشار ما كان يستطيع أن يهجو مثل هذا الخسيس فينال منه شيئا . وهذا صحيح ، ولكن أما كان يستطيع على أقل تقدير أن يبادله بسبابه سباباً نثريا ؟ بلى ، ولكنه يمسك عن هذا فيهبه للؤم أصله ، ولا يكتفى بهذا بل يضحك ، فيدلنا على صفة أخرى قيّمة فيه سنتعرفها بعد قليل ، هى فكاهته .

وقد وردت قصة أخرى شبيهة بهذه رويناها آنفا ، يسب فيها رجل من عكل بشاراً بعماه وقبح وجهه ، فيقول له بشار : إذهب بأبى أنت فى حفظ الله . وقد مر بالقارىء أيضا القصة التى يثقل فيها على بشار بعض أصدقائه ، يؤاخذونه على ادعائه النحافة فى بيته :

فى حلتى جسم فتى ناحل   لو هبت الريح به طاحا

فيقولون : يا بن الزانية أتقول هذا وأنت كأنك فيل عرضك أكثر من طولك ! فيقول لهم : قوموا عنى يابنى الزناء فانى مشغول القلب لست أنشط اليوم لمشاتمتكم .

وأعد الآن قراءة هذه القصة :

« غضب بشار على سلم الخاسر وكان من تلامذته ورواته ، فاستشفع عليه بجماعة من اخوانه ، فجاءوه فى أمره ، فقال لهم : كل حاجة لكم مقضية إلا سلما . قالوا : ما جئناك إلا فى سلم . ولابد أن ترضى عنه لنا . فقال : أين هو الخبيث ؟ قالوا : ها هو ذا . فقام إليه سلم فقبل رأسه ومثل بين يديه وقال : يا أبا معاذ ، خريجك وأديبك . فقال : يا سلم ، من الذى يقول :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته   وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

قال : أنت يا أبا معاذ ، جعلنى الله فداءك . فقال : فمن الذى يقول :

من راقب الناس مات غما   وفاز باللذة الجسور

قال : خريجك يقول ذلك — يعنى نفسه — قال : أفتأخذ معانى التى قد عنيت بها وتعبت فى استنباطها ، فتكسوها ألفاظاً أخف من ألفاظى حتى يروى ما تقول ويذهب شعرى ؟ لا أرضى عنك أبداً . قال : فما زال يتضرع إليه ويشفع له القوم حتى رضى عنه . »

قد سقناها فى معرض الاستدلال على خوف الناس منه . ولكن أهذا كل ما تدل عليه ؟ بل هى توضح شيئا آخر ، توضح أن بشارا

كان فى صميمه طيب القلب ميالا إلى الصفح والمسالمة . فهو فى الحقيقة
يريد أن يصالح سلما ولا يصبر على استمرار خصومته ، ويتوسل كل
الوسائل لأتمام هذا الصلح يأتيه إخوانه هؤلاء فيبادرهم بأن يقول :
كل حاجة لكم مقضية إلا سلما. وما معنى هذا فى الحقيقة، وما الداعى
إلى أن يبدأ هو بذكر سلم قبل أن يذكروه ؟ لا سبب إلا أنه يرجو
منهم أن يفاتحوه فى شأنه ويستشفعوا فيه .ثم تأمل جيداً قوله مباشرة:
أين هو الخبيث ؟ فهى جملة تفيض فى صميمها حنانا وتتهدج حبا .ثم تأمل
فى كل عتابه إياه تجده يترقرق حبا ورغبة فى التصالح . فان شئت أن تزداد
بهذه القصة فهما فافعل مافعلته فى قصة سابقة ، ضع مكان بشار أبا يأتى
جيرانه وأصدقاؤه ليعيدوا الوفاق بينه وبين ولده العاق فيتحدث كل هذا
الحديث الذى لايدل على شىء سوى حبه لولده ورغبته فى عودة الحال
بينهما إلى ما كانت عليه .

فَكِه

من أعظم الخطأ الذى يوقعهم فيه تعصبهم على بشار رميهم إياه بثقل
الظل وغلاظة الروح . وهو مثال غريب على أثر الأغراض فى إفساد
تقدير الرجال حتى يخطئوا حقائق تامة الوضوح . فالحقيقة التى تكاد
تنطق بها كل صفحة من سيرته هى أنه كان على نصيب عظيم من المرح
والخفة ورشاقة الروح وجودة النكتة وبراعة الفكاهة . كان فكها حقا ،
كان عنده ما يسميه الأنجليز A sense of humour بكل معانى هذا
التعبير .

أما معاصروه فلا نلومهم كثيرا إذا أغفلهم عن تبين هذا ما كانت
فيه من صفات أخرى ذميمة ، وما نفرهم عنه من دمامة ، وما لقوه منه
من إقذاع فى الهجاء . فقد عجزوا عن أن يدركوا أن الرجل قد يكون
قبيح الخلقة ويكون مع ذلك ظريفا لطيف المعاشرة، وقد يكون غليظ
الجسم ضخم الجثة ويكون مع ذلك خفيف الروح ذا مقدرة أصيلة
على الفكاهة الحقة . ولا نستطيع منصفين أن نبالغ فى لومهم على عدم
إعجابهم بنوادره الرائعة حين نرى أن معظمها كان نقدا لاذعا لهم ،
وخصوصا إذا تذكرنا أن العرب خلوا أو كادوا يخلون من روح
الفكاهة الأصيلة التى تجعل المرء يقدر المزحة البارعة وإن كانت ضده.
وأما نقادنا المعاصرون فكيف نسامحهم فى مجاراتهم رأى عصره
فى رميه بغلاظ الظل وجهامة الروح ، وهذه سيرته تفيض بالفكاهات
البديعة التى هى بلا شك من أجود الفكاهات فى الأدب العربى . وليس
بشار أمامهم حين ينفروا من دمامته ، ولاهم نالهم من ايذائه الشخصى
ما يغفلهم عن براعة نكتته ، وليست هذه الفكاهات الجيدة موجهة
إليهم حتى يضيقوا بها وينسيهم لذعها جودتها . فان سامحنا معاصريه فى
ضحالة فكرهم وقلة تمييزهم حتى قرنوا بين غلاظة الجثة وغلاظة الروح
فكيف نسامح نقادنا حين يغفلون عن أن كثيرا من البارعين فى الفكاهة
يكونون من السمان الثقيلى الأجسام ، وأن من بين ثقال الروح غلاظ
الدم رجالا نحافا هزيلين ؟

والقصص التى تروى عن بشار ترى أنه كان عنده ما نسميه فى
لغتنا بالنكتة أو المزاح ، ولكن تدل أيضاً على أنه كان عنده قدرة

أسمى من هذه بكثير، ليس فى لغتنا اسم صحيح لها، يسميها الانجليز بالإسم
الذى ذكرناه آنفا، وهى لا تقتصر على استطاعة الممازحة أو «خبط النكتة» بل
تقوم على ملكة عميقة يستطيع بها صاحبها أن يرى مفارقات الحياة ومتناقضات
الطبيعة البشرية . والقصص التى سنرويها عنه ترى قدرة أخرى ، ليس
لها هى الأخرى اسم عربى صحيح ، ويسميها الانجليز Satire ، وهى
لا يقتصر فعلها على الأضحاك أو التجريح الشخصى ، بل تحمل فى
طياتها نقداً عميقاً فكرياً أو خلقياً . والعربية لا تضع لها اسماً لسبب
بسيط : أنها ملكة لم توجد فى العرب القدماء ، لا لعجز وراثى فى جنسهم
بل لحالة مجتمعهم ومستوى فكرهم وثقافتهم ، فمعظم الهجاء فى شعرهم
لا يزيد على التجريح الشخصى ، فإن أضحكنا فإنما يضحكنا بجفاوته
ومافيه من قذارة تخاطب فينا حب الأفحاش البدائى الكامن فى كل منا
مهما يكن نصيبه من التهذب . أما الفكاهات التى سنرويها لبشار فهى
لا تقتصر على هذا ، بل فى كل منها نقد عميق لظاهرة ما من ظواهر
المجتمع البشرى أو الطبيعة البشرية ، فهى ليست منصبة على من قيلت
فيه فحسب ، بل لها مغزى عام يشمل البشر جميعاً .

فبشار حين مر بقاص بالبصرة يقول فى قصصه : « من صام رجبا
وشعبان ورمضان بنى الله له قصرا فى الجنة صحنه ألف فرسخ فى مثلها
وعلوه ألف فرسخ وكل باب من أبواب بيوته ومقاصره عشرة فراسخ
فى مثلها » ، فالتفت إلى قائده فقال . بئست والله الدار هذه فى كانون
الثانى . حين قال بشار هذا فهو لم يرد اضحاك قائده فقط ، ولم يعن
بوخزه هذا ذلك القاص بالذات ، إنما أراد أن يعبر عن سخطه على

كل أولئك القصاص الكاذبين الجهلاء ، وعن برمه أيضا بسخافة
عقول العامة الذين يقبلون هذا السخف ، ولا يزال نقده قائما إلى
يومنا هذا .

وحين مر برجل قد رمحته بغلة وهو يقول : الحمد لله شكرا ، فقال
له : استزده يزدك ، إنما كان يعبر عن سخطه على هذا النفاق الاجتماعى
المرذول . فالشعور الطبيعى المباشر إذا أصاب الانسان مثل هذا
الحادث أن يعبر للتو عن ألمه وتبرمه . فالذى يقول : الحمد لله شكراً ،
ليس يعبر ــ كما قد يظن متنطعونا الدينيون الذين قد يعجبهم مثل هذا
الادعاء ــ عن رضى بقضاء الله وحمد له على المكروه ، فهذا الرضى قد
يصير إليه فيما بعد حين تهدأ ثائرته ويتعزى بالحكمة أو بالدين ، ولكن
مستحيل أن يكون شعوره الصادق المبادر ، فهو لا يظهر إلا نفاقا بغيضا
لعله أكره شىء إلى الله والبشر جميعا ، وما نطق بذلك الحمد إلا لأن
بقربه أناسا يسمعونه فيعجبون به ، ولو كان وحيدا لما كان هذا أول
ما ينطق به .

كذلك ما قاله فى القصة الآتية :

« كان بشار جالسا فى دار المهدى والناس ينتظرون الاذن . فقال
بعض موالى المهدى لمن حضر : ما عندكم فى قول الله عز وجل « وأوحى
ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر » ؟ فقال له بشار :
النحل التى يعرفها الناس . قال : هيهات يا أبا معاذ ! النحل بنو هاشم ،
وقوله « يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس » يعنى

العلم ! فقال له بشار : أرانى الله طعامك وشرابك وشفاءك فيما يخرج من بطون بنى هاشم ، فقد أوسعتنا غثاثة » .

لم يقل إلا ما يستحقه ذلك السخيف وأمثاله من المتنطعين الذين يكثرون بيننا إلى يومنا هذا . ولقد وافقه المهدى فى حكمه هذا كما تروى بقية القصة : « فغضب وشتم بشاراً ، وبلغ المهدى الخبر فدعا بهما فسألهما عن القصة ، فحدثه بشار بها ، فضحك حتى أمسك على بطنه ، ثم قال للرجل : أجل ، فجعل الله طعامك وشرابك مما يخرج من بطون بنى هاشم . فانك بارد غث . »

كذلك لما سأله يزيد بن منصور عن صناعته وهو يرى شيخا أعمى ينشد الخليفة شعراً ، فأجابه : أثقب اللؤلؤ — لم تكن مجرد نكتة مضحكة ، بل كانت نقدا لأمثال هؤلاء البشر الشديدى البله ، وللمبصرين الذين لم ينقصهم بصرهم ذرة من غفلتهم وعمى قلوبهم .

وانظر الآن رده البارع فى القصة الآتية :

« قال أبو النضير الشاعر . أنشدت بشارا قصيدة لى ، فقال لى ، أيجيئك شعرك هذا كلما شئت أم هذا شىء يجيئك فى الفينة بعد الفينة إذا تعملت له ؟ فقلت : بل هذا شعر يجيئنى كلما أردته . فقال لى : قل فانك شاعر . فقلت له : لعلك حابيتنى أبا معاذ وتحملت لى . فقال : أنت أبقاك الله أهون على من ذلك . »

أتراه قال إلا ما يستحقه هذا المتشاعر الصغير الذى لا يكتفى بكل ذلك المديح السخى الذى ناله من أعظم الشعراء فى عصره حتى

يقول له فى صفاقة وإلحاح : لعلك حابيتنى أبا معاذ وتحملت لى ! ورد بشار يذكرنى بما يروى من الفكاهات الشخصية عن ساخر عصرنا الأعظم برنارد شو . أما حين نقرأ هذه القصة :

« دخل بشار على عقبة بن سلم ، فأنشده بعض مدائحه فيه وعنده عقبة بن رؤبة ينشده رجزا يمدحه به . فسمعه بشار وجعل يستحسن ما قاله الى أن فرغ ، ثم أقبل على بشار فقال : هذا طراز لا تحسنه أنت يا أبا معاذ ! فقال له بشار : ألى يقال هذا ! أنا والله أرجز منك ومن أبيك وجدك (١) . فقال له عقبة : أنا والله وابى فتحنا للناس باب الغريب وباب الرجز ، ووالله إنى لخليق أن أسده عليهم . فقال بشار : ارحمهم رحمك الله ! فقال عقبة : أتستخف بى يا أبا معاذ وأنا شاعر ابن شاعر ابن شاعر ! فقال له بشار : فأنت إذا من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ! » .

فنقرأ « خرج من عنده عقبة مغضبا » فليس من العدل أن ننتظر من عقبة ألا يغضب أو أن يعجب بهذا التهكم القارص عليه . ولكن ما شأن نقادنا يغمطون مثل هذه الردود البارعة حقها من جودة التهكم وحضور البديهة وسرعة الخاطر ، فيقول أحدهم (٢) : « كل ما حفظ لنا عن بشار لايحببه إلينا ولا يعطفنا عليه ، فهو ثقيل حتى حين يضحك وهو ثقيل حتى حين يريد أن يضحكك ويرضيك ، وهو مر فى جميع

(١) جده هو العجاج الراجز المشهور .

(٢) طه حسين . حديث الأربعاء طبعة ١٩٢٥ ص ٢٤٥ .

مواقفه ، يأتى بالنادرة المضحكة ولـكنك لا تضحك ضحكا صريحاً خالياً
من كل شائبة وإنما تضحك وأنت مستشعر شيئاً من الألم محس شيئا
من المرارة » . صحيح أن تهكم بشار مر مؤلم ، ولـكن الذنب فى مرارته
وإيلامه ليس ذنبه هو بل ذنبنا نحن بما فينا من نقائص يأخذها هـذا
الساخر أخذا لاذعا . وهل قال بشار لعقبة إلا ما استحقه ذلك الجلف
السيء الأدب ، يمدح بشار رجزه ويستحسنه طويلا ، فلا يكون
منه إلا أن يقول له : هذا طراز لا تحسنه أنت يا أبا معاذ ! ونحن أن
اقتصرنا فى الفكاهة على النوع الذى يضحكنا ويرضينا فإننا نهدم أجودها
وأعظمها فائدة لنا فى الآداب الإنسانية ، وهو النوع الذى يضحكنا
ويخزنا حتى يرغمنا على تأمل عيوبنا فلعلنا نحاول إصلاحها .

أو ترى خلف بن أبى عمرو بن العلاء استحق غير هذا البيت اللاذع
يوجهه إليه بشار فى قصة (١) :

« وقال له خلف بن أبى عمرو يمازحه : لو كان عُلاثة ولدك يا أبا معاذ
لفعلتُ كما فعل أخى ، ولـكنك مولى . فمد بشار يده فضرب بها فخذ
خلف فقال :

ارفق بعمرو إذا حركت نسبته ... فإنه عربى من قوارير

فقال له : أفعلتها يا أبا معاذ ! وكان أبو عمرو يغمز فى نسبه » .
وما أصدق هذا البيت إلى عصرنا هـذا على نفر من المحكومين

(١) اقرأها كاملة فى أغانى دار الكتب ٣/١٩٠

المغلوبين على أمرهم يأبون إلا التمسح والالتصاق بسادتهم الحاكمين .

وليس أدل من تحامل معاصريه عليه من هذه القصة :

« قال دَماذ قال لى أبو عبيدة : قال رجل يوما لبشار فى المسجد
الجامع يعابثه : يا أبا معاذ ، أيعجبك الغلام الجادل ؟ فقال غير محتشم
ولا مكترث : لا ، ولـكن تعجبنى أمه » .

انظر إلى أبى عبيدة يأخذ على بشار رده فيقول : « فقال غير محتشم
ولا مكترث » . ولا يلتفت إلى أن بشاراً كان يرد ولم يكن البادىء .
أفما كان البادىء بهـذا الحديث القذر فى حرم المسجد أولى بالذم ؟
أما كان ينبغى على أبى عبيدة أن يرويها هكذا : جاء إلى بشار وهو
قار آمن فى المسجد الجامع مقبل على شأنه الخاص رجل لم يراع حرمة
المسجد بل سأله غير محتشم ولا مكترث : أيعجبك الغلام الجادل ؟
فرد عليه بشار بما يستحقه هو وأمثاله من السفهاء : لا ولـكن تعجبنى
أمه . . . .

ولم تقتصر فكاهة بشار على ردوده النثرية ، بل وجدت فى شعره
أيضاً ، كما سنرى حين ندرسه ، ولـكن نكتفى هنا بإيراد هذه الأبيات
ذات الفكاهة الحلوة :

« جاءنا بشار يوما فقلنا له : مالك مغتما ؟ فقال : مات حمارى
فرأيته فى النوم فقلت له : لم متّ ؟ ألم أكن أحسن إليك ؟ فقال :

سيدى خذ بى أتانا ... عند باب الأصبهانى

تيمتنى ببنان ... وبدلّ قد شجانى

تيمتني يوم رحنا بثناياها الحسان
وبغنج ودلال سلّ جسمي وبراني
ولها خد أسيل مثل خد الشيفران
فلذا مت ولو عشـ ت إذا طال هواني

وهى بعد فكاهة خفيفة حلوة لا تؤذى أحداً ، فالذى ينكر دعابتها الجميلة رجل قد صمم على ألا يرى ببشار خيراً ، هذا إن لم يكن رجلا لا استعداد عنده لتقدير الفكاهة ، ومن هذا الصنف كان الرجل الذى روى هذه القصة ، لأنه لم يفهم أن « الشيفران » لفظ لا أصل له اخترعه بشار لمجرد الدعابة ، فراح يسأله ما معناه ، فاستحق ببلادته جواب بشار اللاذع :

« فقلت له : ما الشيفران ؟ قال : ما يدرينى ! هذا شيء من غريب الحمار فإذا لقيته فاسأله ! »

ما أبعد هذه الشخصية عما يرسمون له من الغلاظة والثقل والتبغيض . لا يسعنا بعد هذه القصص وأمثالها إلا أن نسارع بقبول حكم ابن المعتز له بالظرف وحسن المسامرة وكثرة الملح فى قوله :

« كان شاعراً مجيداً مفلقاً ظريفاً محسناً خدم الملوك وحضر مجالس الخلفاء وأخذ فوائدهم وكان يمدح المهدى ويحضر مجلسه وكان يأنس به ويدنيه ويجزل له فى العطايا وكان صاحب صوت حسن ومنادمة وكان إذا حضر المهدى فى مجلس مع جواريه بعث إليه لأجل المسامرة والمحادثة . . . ولما توفى تذكره المهدى وحسن معاشرته له وكان أنيس

مجلسه وقد كان معجباً به وبشعره وكان يدنيه . . . وحكى أن المهدى لما قتل بشار ندم على قتله »

أعد قراءة هذه العبارات بإمعان وتأمل جيداً فى كل جملة من جملها تتبدّ لك أشياء كثيرة ، منها أن المهدى لم يكن يعجب بشعره وحده بل كان يعجب « به » ، بشخصه هو ، ولا تدرك مبلغ دلالة هذه العبارات على ظرف بشار وخفة شخصه ان لم تتذكر فظاعة عماه وشناعة وجهه المجدور وجسمه الضخم الغليظ ، فالذى يتغلب ظرفه على هذه النقائص المنفرة حتى يصير نديماً محبوباً ومسامراً مقرباً يرتاح المهدى إلى وجوده فى أخص جلساته وأكثرها هناءة وصفاء لابد أن يكون ظرفه عظيما . لا غرو أن يحزن المهدى ويندم على قتله حين يفتقد حسن معاشرته وبهجة حديثه ومنادمته ، ولكن هذه قصة سنرويها بعد قليل . . .

ويتضح لك أيضاً أن فكاهة بشار لم تكن مقتصرة على ذلك النوع اللاذع الممض الذى رأيناه فيما روينا من نوادره ، بل كان يستطيع ، إذا صفا له المجلس ودنا الأصدقاء الموادون وتخلص من إرهاق خصومه واضطهادهم ، أن تفيض روحه بالدعابات الحلوة الظريفة والمسامرة الرقيقة المحببة . وهذا من ابن المعتز تقرير سنجد له أكثر من دليل فى شعره إن أقبلنا على دراسته بحياد نزيه ، ولكننا نروى هنا من فكاهاته قصة يقصها ابن المعتز :

« ودخل المهدى أيام خلافته على جماعة من جواريه وهن مجتمعات فى حجرة بعضهن فجلس عندهن يشرب فقلن له لو أذنت لبشار فى

الدخول علينا لنسامره ونحادثه وكان من أحسن الناس حديثاً وأظرفهم مجلساً وأكثرهم ملحاً فأمر به فأحضر واجتمعن عليه فحدثهن وجعل يسرد عليهن من نوادره وملحه وينشدهن عيون شعره فسررن بذلك سروراً شديداً وقلن له يا بشار ليتك أبانا فلا نفارقك أبداً ، قال نعم وأنا على دين كسرى ! فضحك منه المهدى وأمر له بجائزة » .

وهى فكاهة بارعة ، والقصة نفسها تدليل لا مزيد بعده على ما نريد أن نثبته لبشار من رشاقة الشخصية وبهجة المؤانسة ، أنظر كيف يكرر ابن المعتز أنه « كان من أحسن الناس حديثاً وأظرفهم مجلساً وأكثرهم ملحا » ، وكيف يعجب به جوارى المهدى حتى يتمنين ألا يفارقنه أبدا على قبحه وبشاعته ، وكيف يضحك المهدى من مزحته ويثيبه . ولكن هذا لم يرض أعداء بشار حتى حوروا خاتمة القصة فجعلوها تقرر أن المهدى غضب منه وحرم عليه مسامرة جواريه بعدها ! والدليل السهل على أن هذه خاتمة كاذبة مخترعة هو أن القصة تشرح بدء بشار فى مسامرة حرم المهدى ، ونحن نعرف أن هذه المسامرة تكررت واستمرت زمنا ، فلو كان صحيحا أن المهدى غضب وأقصاه عن مجالسة الجوارى بعد ما صدر منه فى مجلسه الأول معهن لما وجدنا ابن المعتز يقول : « وكان إذا حضر المهدى فى مجلس مع جواريه بعث إليه لأجل المسامرة والمحادثة » . تأمل صيغة الاستمرار : « وكان إذا حضر بعث إليه » .

شجاع الرأى

على أن أعظم السخف الذى يقع فيه نقادنا فى كراهيتهم له هو

رميهم اياه بالجبن ، وعلام يبنون هذا الاتهام ؟ يبنونه على قصة تروى عن ذعره حين أقسم روح بن حاتم يمينا مغلظة لا استثناء فيها ليضربنه ضربة بالسيف ولو أنه بين يدى الخليفة ، ومبادرته إلى المهدى يحتمى به ، وتأففه حين ضربه روح ضربة بعرض السيف . ويبنونه على تأففه من وقع السوط حين ضرب سبعين سوطا مات بعدها ، فكان إذا أوجعه السوط يقول حَسِّ .

اعترف للقارىء بتحيرى الشديد وعجزى التام عن استكشاف ما كان ينتظر نقادنا منه فى هذين الموقفين . أكانوا ينتظرون من بشار أن يستل سيفا فيمضى إلى روح فيصيح به متحديا إياه إلى الطعن والنزال ؟ أم كانوا يريدون أن يصبر حتى يلقاه روح فيضربه بالسيف دون ما وسيلة يدافع بها عن نفسه ، مكتفيا بأن يدعو الله ألا تكون ضربة قاتلة ؟

وهل رأوا شابا مكتمل الشباب موفور القوة يضرب عشرة أسواط ، دعك من شيخ بلغ السبعين يضرب سبعين سوطاً ؟ وهل يدركون إدراكا صحيحا مقدار إيلام السوط للجسم الانسانى ، بل مقدار نجوعه فى ترويض الأسود والنمور وسائر الوحوش الضارية ؟ أم تراهم رأوا فى أفلام هوليوود السينمائية أبطالا يضربون بالسوط فلا يتفوهون ببنت شفة ولا تصدر عنهم آهة واحدة فهم ينتظرون من بشار أن يكون بطلا من هذا النوع الذى لا وجود له إلا فى خيالات الشاشة البيضاء ؟

لست أريد أن أنفى أن بشارا فى القصة الأولى أبدى فرقا ، ولا

أنا أريد أن أناقشهم فى تسميتهم هذا الفرق بالجبن ، فليسموه جبنا أن أحبوا ، ولكن أينا لا يجبن حين يتهدده الموت ، أعنى حين يتهدده تهددا حقيقيا ؟ فان كان منا من لا يجبنون فكم عددهم ؟ أو لا ينبغى علينا فى هذا كله أن نقدر أثر عماه فى زيادة خوفه وتضخيم روعه ؟

ولكن دعك من هذا كله . فلنسلم بأن بشارا كان جبانا ، وبأن جبنه كان من نوع شديد لا عذر له ولا يستحق المسامحة ، فأى رجل كان ؟ أكان جنديا أو قائدا حربيا ، أو وزيرا أو حاكما أو خفيراً ، أو غير هذا من الحرف التى يتطلب محترفها شجاعة جسمانية ، والتى لنا أن نعيب محترفها أشد العيب أن أفقر من الشجاعة الجسمانية ؟ بل كان أديبا شاعراً ، وقد يحق لناقده فى معرض تحليل شخصيته أن يسجل عليه الجبن إن رأى فيه جبنا كعنصر من عناصر شخصيته لا بد من تسجيله ، أما إن ألح فى تأكيد هذه النقيصة ، وراح يكررها ويضخمها ويهول من شأنها ، فانه قد شط عن النقد الأدبى القويم والتحليل النفسانى المتزن إلى التجريح الشخصى المذموم .

والعجيب أن نقادنا فى إلحاحهم فى الحديث عن جبن بشار ، وعن خوفه من السيف وخوفه من السوط (كأن أحدنا لا يخاف سيفا أو سوطا !) قد أصروا على إغفال فضيلة عظيمة فيه ، فضيلة لا تستحق منا إلا الاعجاب التام الذى لا استثناء فيه ، مهما يكن رأينا فى شخصيته أو فى شعره ، ومهما يكن نفورنا عن عقائده أو سلوكه . أعنى شجاعته الأدبية النادرة المثال بين بنى البشر .

مهما يكن ذمنا لرذائله ، وسخطنا على زندقته ، وتقبيحنا لشعوبيته

وتأذينا من دعارته ، ونفورنا من هجائه ، ومهما نسم أباءه وانفته غطرسة وجبروتا ، ونلمه على عمى ودمامة لاذنب له فيهما ، ونقرن بين غلاظة جسمه وغلاظة روحه ، وننكر عليه ظرفه وبراعة فكاهته ، فانه يبقى علينا بعد هذا كله ، إن كنا مفكرين نزيهين منصفين ، أن نعترف له بفضيلة عظيمة الشأن ، نادرة الوجود فى المجتمع البشرى ، ونادرة الوجود فينا بنوع خاص ، وهى الجرأة الأدبية ، فان اعترفنا له بها فهى وحدها الشجاعة التى نتطلبها فى المفكر والأديب .

فان كنت لا تزال مترددا فى وصفه بهذه الصفة فتدبر حياته مرة أخرى ، وانظر كيف تحدى الناس فى كل شىء ، وكيف جهر بمعارضته ولم يلجأ إلى تقية ، تحدى إذلال العرب للموالى وإساءتهم معاملتهم ، وجهر بهذا التحدى فى حديثه وفى شعره ، وأصر على الاحتفاظ بكرامته البشرية ، وبقى على هذا الأصرار حتى أمام المهدى . وتحدى ابتخاس علماء العربية لمنزلة الموالى فى الأدب العربى ، واستمر فى هذا التحدى حتى اضطرهم إلى الأقرار بمنزلته الأدبية ، وتحدى احتقار جمهور المبصرين للأعمى واستغلالهم لضعفه وقلة حيلته ، فلما لم ينفع معهم عتاب لجأ إلى التخويف والأرهاب بلسانه ، سلاحه الوحيد . وعجز مخلصا عن الاقتناع بمذهب دينى واحد ، فأعلن شكوكه وكان أسهل شىء عليه أن يكتمها كما كتمها الكثيرون من مفكرى عصره وما تلا عصره . وظل طول حياته ناقداً لمجتمعه لا تأخذه فى نقده هوادة ولا خوف ، ينقد جهل معاصريه وغباءهم وسخف عقلهم وتصديقهم للخرافات ، ومراءاتهم ونفاقهم الاجتماعى الذميم ، وجفاوتهم

وسوء أدبهم وغرورهم وجبروتهم على الضعيف ، وتذللهم وخنوعهم أمام القوى ، ومداهنتهم للسلطان ، والتصاقهم بالعزيز من الأنساب. وكل صفة من هذه الصفات تجد لبشار عليها نقدا لاذعا فى شعره أو فى نوادره الساخرة .

شجاعة أدبية بالغة أبداها بشار فى كل حياته ، بل هى التى أوردته موارد التلف كما سنرى بعد قليل ، فان كان ببشار عيب فى هذه الناحية فليس الجبن أو النفاق بل التزيد المسرف فى تحدى شعور الناس بداع وبغير داع ، فى الموقف الذى يلزم فيه التحدى وفى الموقف الذى يستحسن فيه الصمت ، ولكنها رذيلة الأفراط لا رذيلة التفريط ، وهى هى التى دفعته إلى ما أسرف فيه من المجاهرة بالفسق والدعوة إلى التحلل الجنسى ، وهو سلوك لا نحاول أن نجيزه ولا أن نبرره ، ولكن الذى لا يلتمس له الأعذار المخففة فى كل ما قاساه من قسوة الطبيعة وقسوة المجتمع رجل لا يريد أن يغفر لأى إنسان أية نقيصة . ومثل هذا الرجل ينبغى له أن يفارق عشرة الناس إلى عشرة الملائكة فهو أطهر من أن يعيش بين البشر :

هذى طباع الناس معروضة   فخالطوا العالم أو فارقوا

مقتله الأشنع

فان بقى لدينا شىء من الضغن على بشار فانه . لا شك يتبدد جميعه حين نتأمل مقتله البشع المفرط القسوة ، فهو مقتل لا يستحقه هو ولا

يستحقه إنسان مهما تكن سيئاته ، وهو وحده كفيل بأن يجعلنا نرثى له أعظم الرثاء ونغفر له مساوئه جميعا .

قتل بشار ضربا بالسياط . ويقولون أنه ضرب سبعين سوطاً قبل أن يبدو فيه الموت . ويروون : « فكان إذا أوجعه السوط يقول حَسِّ ، وهى كلمة يقولها العرب للشىء إذا أوجع . فقال له بعضهم : انظر إلى زندقته يا أمير المؤمنين ! يقول حس ولا يقول باسم الله! فقال : ويلك! أطعام هو فأسمى الله عليه ! فقال له الآخر : أفلا قلت الحمد لله ! قال : أو نعمة هى حتى أحمد الله عليها ! ، فلما ضرب سبعين سوطا بان الموت فيه ، فألقى فى سفينة حتى مات ، ثم ألقيت جثته فى موضع يعرف بالخرارة [1] ، فحمله الماء فأخرجه إلى دجلة البصرة فأخذ فأتى به أهله فدفنوه . » .

أرجو ألا يكون أحد من قرائى فى حاجة إلى أن أبين له فظاعة هذه الميتة وقسوتها الوحشية ، والذى يزيدنا على بشار تحسرا هو أن نراه احتفظ بفكاهته ونكته البارعة حتى حين كانت روحه تفيض فى ألم

---

(١) فيقول أحد أدبائنا الغلاظ القلوب شامتا فيه « وبذلك ختمت حياة بشار وكانت نهايتها أن ألقى فى (الخرارة) » . وتغفله شماتته عن أن اللفظ مشتق من خرير الماء لا من المعنى الذى يظنه . وليس العجيب أن تلك القتلة القاسية لا تثير فيه ذرة من الرثاء أو الامتعاض ، بل العجيب أنه — وهو مسلم — ينسى أن الإسلام يحرم التمثيل بالجثث، حتى جثث المشركين فى بدر أمر الرسول بأن يحفر لها قليب دفنت فيه دفنا كريما ، فبشار على زندقته ما كان يستحق أن ترمى جثته كما ترمى جثة الكلب أو الحمار .
انظر تعليقات كتاب وفيات الأعيان ، طبعة دار المأمون . الجزء الثالث ، هامش ص ٤٧

لا يفوقه ألم . ثم انظر ما تريه هذه القصة من جرأته وشجاعته الأدبية ومقته للنفاق وقارنها بنفاق أذناب المهدى ورياء حاشيته . ولست أدرى لو كان أحدهم فى موضع بشار هل كان يحمدالله حقاً أو يسمى باسمه . على أن الشناعة تزداد أضعافا حين نسأل : لم قتله المهدى ؟

يدعون أن المهدى قتله لسببين ، لفسقه وأفحاشه فى شعره ، ولزندقته . وليس أحد السببين صحيحا . والصحيح أن المهدى قتله تخوفا من لوم أهل عصره ، أو بصريح العبارة قتله جبنا أدبياً أمام رأى الجمهور ، وهذا مانحن الآن بسبيل إثباته .

فلنتأمل أولا فى السببين اللذين يدعونهما . يقولون أن المهدى أغضبه ذكر بشار للنساء فى شعره ، وتحريضه شباب عصره على الفسوق ، ويقولون أن المهدى كان من أشد الناس غيرة (يعنون الغيرة الجنسية) فنهاه عن الغزل ، فلما لم يمتثل قتله .

أفهذا صحيح ؟ ولكن بشاراً كان قد عمر سبعين عاما ، أنفق منها ما لا يقل عن خمسين فى غزله ذاك وذكره للنساء ، أفلم يسمع به المهدى إلا أخيراً ؟ وأين كانت غيرته منذ شب فسمع شعر بشار وفهمه ، أو منذ اعتلى العرش فكان فى قدرته أن يبطش به ، أين كانت غيرته فى هذه السنوات التسع ؟

هذا تعليل لا نتردد فى رفضه ، ويزيدنا تأكداً من استحالته أن بشاراً لم يكن غريباً على المهدى ، فإنه كان يعرفه ، بل كان من خاصة جلسائه وأقرب ندمائه . وقد سمعت ما يقوله ابن المعتز فى صحبتهما ، نكرره هنا :

« وكان يمدح المهدى ويحضر مجالسه ، وكان يأنس به ويدنيه ويجزل له فى العطايا ، وكان صاحب صوت حسن ومنادمة ، وكان إذا حضر المهدى فى مجلس مع جواريه بعث إليه لأجل المسامرة والمحادثة . . . ولما توفي تذكره المهدى وحسن معاشرته له وكان أنيس مجلسه وقد كان معجباً به وبشعره وكان يدنيه » .

ليس بعد هذا النص تدليل على أن المهدى كان يعرف بشاراً معرفة جيدة ، وكان يعرف شعره كذلك معرفة جيدة ، وكان يقربه إليه ويستحلى منادمته ومسامرته ويعجب بحديثه وظرفه وملحه .

فكيف كان بشار ينادم المهدى ويسامره يا ترى ؟ وأى شىء كان ذلك الحديث وتلك الملح ؟ أكان يحادثه فى أمور التقى والورع وأخبار الزهاد والعباد ؟ أم كان يقصر سمره وملحه على الأحاديث البريئة والأخبار العفيفة والقصص ذات المغزى الأخلاقى الصالح ؟ القارىء الذى يعرف معنى المنادمة فى ذلك العصر ، وما كان يدور بين الخلفاء وشعرائهم الندمان ، ليس يحتاج إلى جواب .

فإن احتاج إلى جواب قلنا له : ليس هذا مجرد استنباط نظرى أو مجرد قياس قد يخطىء وقد يصيب . فإليك القصة الآتية تريك مثلا مما كان المهدى يستمع إليه من بشار ، بل يتطلبه من بشار . وهى قصة أعتذر إلى القارىء فى اضطرارى إلى سوقها كاملة بلا حذف ، ولكن لا مناص منها فى التدليل فى هذا الموضوع الهام ، ولا يحتاج القارىء بعدها إلى تدليل :

« دخل المهدى إلى بعض حجر الحرم ، فنظر إلى جارية منهن

تغتسل ، فلما رأته حصرت ووضعت يدها على فرجها ، فأنشأ يقول :

« نظرت عينى لحينى »

ثم أرتج عليه . فقال : من بالباب من الشعراء ؟ قالوا : بشار . فأذن له فدخل . فقال له : أجز :

« نظرت عينى لحينى »

فقال بشار :

نظرت عينى لحينى   نظراً وافق شينى
سترت لما رأتنى   دونه بالراحتين
فضلت منه فضول   تحت طى العكنتين

فقال له المهدى : قبحك الله ويحك ! أ كنت ثالثنا ! ثم ماذا ؟ فقال :

فتمنيت وقلبى   للهوى فى زفرتين
أننى كنت عليه   ساعة أو ساعتين

فضحك المهدى وأمر له بجائزة . فقال : يا أمير المؤمنين أقنعت من هذه الصفة بساعة أو ساعتين . فقال : اخرج عنى قبحك الله ! فخرج بالجائزة . »

انتبه جيدا إلى قول المهدى « ثم ماذا ؟ » يستزيده من مثل هـذا الشعر . وإلى الرواية « فضحك المهدى وأمر له بجائزة . » وليس فيما نعرفه من شعر بشار ما يفوق هـذه الأبيات تصريحا ، بل ليس فيه ما يقاربها تصريحا . على أن جملة بشار الأخيرة لا تقل عن الشعر دعارة

ومع ذلك لم يعاقبه المهدى عليها بأكثر من أن قال: اخرج عنى قبحك الله . وهى جملة أن تأملتها وجدتها مما لا يجرؤ بشار أو غيره على قوله للمهدى لو لم يكن بينهما من قبل مفاكهات كثيرة من هذا النوع .

فأين كانت غيرة المهدى وسخطه على ذكر بشار للنساء فى هذا الخبر ؟

أم تراه صحا فجأة من غفلته بعد سنوات تسع فأدرك شناعة هذا الشعر وأمثاله مما ظل بشار يقول طول حياته ؟

أضف إلى هذا كله أن هـذا التعليل يقوم على دعوى أن بشارا عصى المهدى وظل ينظم الشعر الغزلى فعاقبه المهدى على عصيانه بالقتل ، وهى دعوى غير صحيحة ، فقـد أطاعه بشار وترك الغزل . وهذا ما سنثبته حين ندرس شعره .

وأما ادعاؤهم أنه قتله لزندقته فهو ايضا لا يثبت امام التفـكير دقيقة واحدة ، فأين كان المهدى طول هـذه السنوات التى اشتهر فيها بشار بشكوكه ؟ ام تراه لم يسمع بزيغه إلا اخيرا ! ولـكن بشارا ما اخفى تشكـكه قط ، وقد ظل العلماء يحملون عليه سنوات عديدات

بل الحق الواضح الذى لا جدال فيه ان المهدى لم يقتله لأحد السببين ، لا لفسقه ولا لزندقته ، إنما لجأ إلى قتـله حين اشتد به لوم الناس ونقدهم ووصل درجة لم يعد يستطيع تحملها . فقد ازداد ببشار عداء اهل عصره ، واشتدت حملتهم على زندقته ودعارته ، والح فى مهاجمته بعض كبار رجال الدين من امثال واصل بن عطاء وسوار ابن عبد الله الأكبر ومالك بن دينار واخذوا يعنفون فى لوم المهدى

على صحبته بشاراً وتقريبه إياه واصطفائه مسامرا ونديماً وإعطائه المنح والجوائز . فخانته شجاعته الأدبية ولم يستطع الاستمرار فى تجاهل نقدهم ، وكان عداؤهم من نوع لا يخمده إلا قتل بشار ، ولقد صرحوا بهذا فى خطبهم التى حرضوا فيها الناس على البطش به ، فتلمس المهدى عذرا يقتل به بشارا إرضاء لهم وتخلصا من وطأة التقريع .

ولو كان هـذا منا استنباطا لـكان من الاستنباط القوى الذى يبلغ مرتبة اليقين ، فهذا يكون التعليل الوحيد المقبول لتحول المهدى على بشار وانقلابه ضده بعد طول التقريب والاصطفاء . على أنه ليس محض استنباط ، تأمل فى القصة الآتية :

« أبو غسان دماذ قال : سألت أبا عبيدة عن السبب الذى من أجله نهى المهدى بشارا عن ذكر النساء . قال : كان أول ذلك استهتار نساء البصرة وشبانها بشعره ، حتى قال سوار بن عبد الله الأكبر ومالك بن دينار : ما شىء أدعى لأهل هذه المدينة إلى الفسق من أشعار هـذا الأعمى ، وما زالا يعظانه ، وكان واصل بن عطاء يقول : ان من أخدع حبائل الشيطان وأغواها لـكلمات هذا الأعمى الملحد . فلما كثر ذلك وانتهى خبره من وجوه كثيرة إلى المهدى ، وأنشد المهدى ما مدحه به ، نهاه عن ذكر النساء وقول التشبيب ، وكان المهدى من أشد الناس غيرة . »

أما الجملة الأخيرة فقد رأيت فيها رأينا ، فغيرة المهدى الشديدة هذه لم تمنعه سنوات طويلات من تقريبه فى مجلسه والاستماع إلى شعره وفكاهته — وقد رأيت منهما مثالا — ولا هى منعته من إدخاله على

حرمه ، وقد سمعت له نادرة معهن أمام المهدى . ولـكن تأمل الآن القصة كلها ، تجد أن المهدى لم يلجأ إلى معاقبة بشار حين استهتر نساء البصرة وشبانها بشعره ، وإنما لجأ إليها حين اشتد رجال الدين فى مهاجمته ، وكثرت هذه المهاجمة ، وانتهى خبرها من وجوه كثيرة إلى المهدى . تأمل « كثر ذلك » وتأمل « من وجوه كثيرة » .

لو أنه اكتفى بإبعاده عن مجلسه ، أو نفيه من بغداد قصبة الملك لما لمناه أبدا . فمثله فى مثل مركزه لابد أن يعير الرأى العام أذنا صاغية ، وليست حياته الشخصية ملكا له وحده ، بل سلوكه محدود حدا شديدا بمستلزمات منصبه . ومثل بشار فى زيغه ومجاهرته بالشك وفى شهواته ومصارحته بالدعارة ليس ممن يرضى الجمهور بتقريبه إلى أمير المؤمنين وخليفة المسلمين . وربما كان يستطيع أن يظل فى تقريبه إليه ما دامت صحبتهما سرا أو لا يعرفها إلا القليلون من الخاصة ، أما حين افتضحت واستحر هجوم قادة الشعب على بشار فانه لم يكن للمهدى مهرب من أقصائه عنه . ولـكن أن يلجأ فى محاولته إرضاء الشعور العام إلى قتله ، ثم لا يكتفى حتى يأمر بقتله تلك القتلة الوحشية وهو شيخ فى السبعين ، هذا ما لا نسامحه فيه أبدا ، فانه يخرج تصرفه عن حد الاحترام المشروع للرأى العام ويدخله فى حد الجبن الخلق المرذول .

ويزداد تصرفه قبحا حين نعرف السبب المباشر الذى دفعه أخيرا بعد طول التسامح إلى التماس العذر لقتله . وهو أن بشاراً هجاه هجاء مفحشا لما حرمه المهدى عطاياه وأبى أن يثيبه على مدائحه مع أنه استمع إلى نهيه فترك الغزل فى شعره . وهذه هى القصة :

، ثم أنشده ما مدحه به بلا تشبيب ، فحرمه ولم يعطه شيئا . . . ثم أنشده قصيدته التى أولها ، تجاللت عن فهر وعن جارتى فهر ، ووصف بها تركه التشبيب ، ومدحه . . . فلم يحظ منه أيضاً بشىء ، فهجاه فقال فى قصيدته :

خليفة يزنى بعماته ... يلعب بالدبوق والصولجان
أبدلنا الله به غيره[1] ... ودس موسى فى .. الخيزران

وأنشدها فى حلقة يونس النحوى ، فسعى به إلى يعقوب بن داود ، وكان بشار قد هجاه فقال :

بنى أمية هبوا طال نومكمو ... ان الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم ياقوم فالتمسوا ... خليفة الله بين الزق والعود

فدخل يعقوب على المهدى فقال له : يا أمير المؤمنين ، ان هذا الأعمى الملحد الزنديق قد هجاك . فقال : بأى شىء؟ فقال: بما لا ينطق به لسانى ولا يتوهمه فكرى . فقال له : بحياتى إلا أنشدتنى! فقال : والله لو خيرتنى بين انشادى إياه وبين ضرب عنقى لاخترت ضرب عنقى . فحلف عليه المهدى بالأيمان التى لا فسحة فيها أن يخبره فقال : أما لفظا فلا ، ولكن أكتب ذلك . فكتبه ودفعه إليه، فكاد ينشق غيظا، وعمد على الانحدار إلى البصرة للنظر فى أمرها وما وكده غير بشار . فانحدر فلما بلغ إلى البطيحة سمع أذانا فى ضحى النهار ، فقال : انظروا ما هذا الأذان . فاذا بشار يؤذن سكران . فقال له يا زنديق يا عاض ...أمه!

(١) لهذا الشطر رواية أخرى أفحش فى الخالديين ص ١١٣

عجبت أن يكون هذا غيرك . أتلهو بالأذان فى غير وقت صلاة وأنت سكران ! ثم دعا بابن نهيك فأمره بضربه بالسوط ، فضربه بين يديه على صدر الحراقة سبعين سوطاً أتلفه فيها . »

تأمل هذه الحيل الدنيئة يحتالها يعقوب كى يزيد من تشوق المهدى والحاحه فى الاستماع إلى هجاء بشار ، وليس الذى يدفعه هو غيرته على المهدى أن يهجى هذا الهجاء البذىء ، بل ان بشاراً قد هجاه هو . ثم انظر المهدى يذهب إلى البصرة متصنعاً أنه يريد النظر فى شؤونها وليس قصده إلا أن يعثر ببشار ، ومن سخرية القدر العجيبة أنها واتته بعذر وجيه ليقتل بشارا .

فليدرك القارىء أنى لا ألوم المهدى فى قتله بشارا على هذا الهجاء القبيح ، فقوانين عصره كانت تبيح له أن يقتله لمثل الهجاء بل لأهون منه ، ولو أن شاعرا فى عصرنا هجا ملكا بهجاء مماثل لربما لا يكون مصيره القتل ، ولكن يكون مصيره دون شك أشد عقاب يستطيعه القانون دون القتل . ولسنا نستطيع أن نحكم على المهدى بغير قوانين عصره . إنما الذى نأخذه عليه هو أنه لم يصرح بالسبب الذى حمله على قتله ، لم يقل : أنت قد هجوتنى هجاء شنيعا ولذلك أقتلك ، فتنحل سببا آخر ، وادعى أنه إنما يقتله غضبا من خلاعته واستهتاره .

ولو أنه كان قد غضب حقا من استهتار بشار بالأذان وهو سكران فكان هذا الغضب هو الذى حمله على قتله لما اشتددنا فى لومه . ولكنه فى حياته الطويلة لابد أن قد عرف لبشار حوادث من الاستهتار لا تقل عن هذه . فالحقيقة الساطعة هى أنه لم يقتله لأذانه وهو سكران

ولا هو قتله بسبب هجائه وحده ، إنما كان هذا الهجاء هو الشرر الذى أضرم نيته المختزنة التى طال حبسه لها ، وكان الأذان هو العلة المنتهزة التى تعلل بها ، أما السبب الدفين فهو ضعفه أمام الناس جمهورهم وعلمائهم لما اشتدوا فى لومهم إياه على مصادقته بشارا وإغضائه العين على عيوبه .

ولا أدل على ماندعيه من أن نقرأ القصة التى يرويها القدماء عن ندمه على قتله . هذه رواية ابن المعتز لها :

« وحكى أن المهدى لما قتل بشار ندم على قتله وأحب أن يجد شيئا يتعلق به ، فبعث إلى كتبه فأحضرها وأمر بتفتيشها طمعا فى أن يجد فيها شيئا مما ضرب به عليه ، فلم يجد من ذلك شيئا . ومر بطومار (١) مختوم فظن أن فيه شيئا ، فأمر بنشره ، فاذا فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، أنى أردت أن أهجو آل سليمان بن على بن عبد الله العباس ، فذكرت قرابتهم من رسول الله صلى الله عليه وآله ، فمنعنى ذلك من هجوهم ، ووهبت جرمهم لله عز وجل ، وقد قلت بيتين لم أذكر فيهما عرضا ولم أقدح فى دين ، وهما :

دينار آل سليمان ودرهمهم ... كالبابليين شدا بالعفاريت

لا يوجدان ولا يرجى لقاؤهما ... كما سمعت بهاروت وما روت

فقال [أى المهدى] الآن والله صح الندم . »

لا يعنينا الآن مافى هذه القصة من دليل جديد على أن بشارا لم ينته قط إلى الكفر أو الالحاد ، إنما الذى يهمنا جملتاها الأولى : ندم على قتله

(١) الطومار : الصحيفة .

وأحب أن يجد شيئا يتعلق به - ثم جملتها الأخيرة : فقال الآن والله صح الندم . ما مغزى هذا الندم ؟ مغزاه بلا شك أن غضب المهدى من هجاء بشار إياه لم يكن بالقوة الكافية لأن يدفعه إلى قتله ، وإلا لما ندم بعد أن نفذ القتل ، ومغزاه أيضا أن المهدى لم يكن مقتنعا قط بما قيل له عن كفر بشار ، وإلا لما حاول أن يعثر على دليل يؤيد هذه التهمة ، فهو إذن لم يقتله لهجائه فى الحقيقة ، ولا قتله لأنه كان مقتنعا بكفره . فالحق أن المهدى فى قصة مقتل بشار يبدو لنا فى صورة رديئة جدا ، لا يخففها بعض الشيء إلا هذا الندم الذى يروى عنه ، ولكن لات حين ندم ، فان سلوكه يزداد قبحا حين نعرف أن بشارا لم يعصه حين نهاه عن الغزل ، بل أطاعه وانقطع عن نظم قصائده الغزلية ، ولم يفعل ذلك خوفا بل رعاية لصداقته القديمة وإدراكا لحرج موقف المهدى ، مع ما فى هذا الامتناع عن الغزل من إرهاق بالغ لطبيعته الفنية وحد عظيم لحريته الشعرية كان تأثيره عليه شديد الايلام ، كما سنرى حين ندرس شعره .

الحق أن هناك كلمتين اثنتين تصفان سلوك المهدى أصدق وصف: خيانة وجبن .

على أننا ينبغى ألا نخص المهدى باستنكارنا ، فهناك شخص آخر كان سلوكه فى هذه الواقعة المحزنة رديئا ، وهو واصل بن عطاء ، وهو أيضا كان فى الأصل صديقا لبشار ، زامله فترة فى المناقشة والدرس ، فلما انتهى بشار إلى الخروج على المدرسة المعتزلية لم يكن هذا الخروج ناشئا عن شيء سوى عجزه الصادق عن أن يجد فى فلسفتها الشرح المقنع

الكافى لشكوكه وأسئلته ، فسرعان ما انقلب عليه صديقه القديم انقلابا
لاشك أن سببه هو غضبه من خروج بشار عليه وإعلانه عدم اكتفائه
بهذه المدرسة . ثم دفعه هـذا الغضب إلى الحملة عليه والتشهير به فى كل
مجال ورميه بالالحاد وتحريض العامة عليه تحريضا طويلا مستمرا .
وواضح من رواية الأغانى أن بشارا لم يلجأ إلى هجاء واصل إلا بعد
أن عمد واصل إلى هـذا الاتهام والتحريض . وهذه هى الرواية :
« وبلغه عن أبى حذيفة إنكار لقوله وهتف به ، فقال يهجوه » بيتيه
اللذين يوضحان أن سبب خروج بشار على المعتزلة هو ضيقهم المذهبى
الشديد وتكفيرهم من يخالفهم من المسلمين فى آراء معينة :

مالى أشايع غزالا له عنق   كنقنق الدو إن ولى وإن مثلا
عنق الزرافة ما بالى وبالكمو   تكفرون رجالا كفروا رجلا

شهيد

حين نصف بشارا بأنه شهيد فانما نقرر حقيقة واقعة . سواء
أحببناها أم كرهناها ، وسواء أوافقناه على آرائه أم خالفناه فيها ،
وسواء أمدحنا سلوكه أم ذممناه . فالشهيد هو الذى يقتل لتمسكه برأى
يظنه الصواب ، أو لإصراره على رفض رأى لم يقتنع بصحته ، مهما
يكن رأيه خاطئا ورأى الآخرين صائبا . فلسنا نعنى من هذه التسمية
معناها الدينى ، وإنما نقصد معناها الفكرى. أما وقد اتضح أن بشاراً
لم يقتله إلا إغضابه الناس بزندقته وإباحيته ، فهو شهيد .

ولكنى لا أريد أن أبالغ فأرقيه إلى الصف الأول من شهداء
الفكر . فلا شك أن استشهاده لم يكن ضرورة واجبة ، ولاشك أنه
بعناده الزائد وإسرافه فى تحدى شعور الناس وتبغيضهم فيه قد اضطرهم
إلى قتله ، والمحتمل أنه لو خفف من إسرافه هـذا لتركوه حتى يموت
ميتة طبيعية . ولكن كل هذا لا يغير الحقيقة الباقية : أنه لم يقتل
لجريمة عادية ، وإنما قتل لنزوعه فى تفكيره منزعا خاصاً لم يرض
معاصريه .

لا يستطيع بشار أن يرتقى إلى الصف الأول من شهداء الفكر ،
فيلحق بسقراط مثلا . فإنه لم يقتل على زيغه الدينى والفكرى وحده ،
بل قتل على فسقه ودعارته كذلك . ولكن تحلله الخلقى هـذا لم يكن
وحده ليؤدى إلى قتله ، فلو أنه كان مؤمنا خالص الإيمان لتحمل الناس
إباحيته ، وهم قد تحملوا نظيرها وأشد منها من معاصرين له ، بل كانوا
يتحملونها لو أخفى شكوكه ولاذ بالتقية . فمقتله يعزى فى جانب كبير منه
إلى حرية تفكيره ، وهو إلى هذا الحد يستحق أن يسمى استشهاداً .
ثم أن استشهاده هذا ، وإن لم يكن ضرورة لا محيد عنها أو يكن
استشهاداً فكرياً خالصاً ، حدث بكيفية أبدت شجاعة فائقة ، لامفر
من أن تكسبه روعة . وهذه حقيقة لم أر أحداً إلتفت إليها قط ، مع
أنها لا تحتاج إلا إلى تفكير يسير . فإن القدماء فيما يروونه عن مقتله
لا يذكرون أنه بكى وأعول ، أو أنه لجأ إلى التوسل والضراعة
والابتهال أن يعفى عنه . بل يتضح أنه قبل الحكم رابط الجأش ساخراً
متحديا . فلما جلدوه سوطاً بعد سوط ، وهو شيخ فى السبعين ، لم يبالغ

فى الصراخ والنحيب ، ولا ألجأه ألمه إلى استعطاف أو استغفار ، بل اكتفى - فيما يرويه القدماء - بكلمة حَسِّ ينفس بها عن ألمه الهائل ، وحتى هذه الكلمة لامه عليها معاصروه ، ويلومه عليها نقادنا ! واحتفظ فى ذلك كله بفكاهته البارعة وتهكمه الحاد ، كما رأينا فى رده على أولئك المتنطعين الذين طالبوه بأن يقول بسم الله والحمد لله .

والحقيقة الأخيرة التى يجب أن ندركها عن استشهاده ، هى أنه وإن لم يكن ضرورة واجبة ، فان من الخطأ أن نظن أنه ذهب هباء . فإن بشاراً بأصراره على حرية فكره طول حياته ، وبتقبله الموت فى سبيلها ، مهد الطريق لمن تلوه من المفكرين والأدباء الأحرار فى تاريخ الإسلام . فقد كسب فى حياته لحرية الفكر معارك كثيرة ، وعود الجمهور فى سنيه السبعين على أن يسمعوا آراء لا تعجبهم ، وأرغم رجال الدين على أن ينصتوا لشكوك الشاكين فبدأوا يعيرونها اهتمامهم ونشأ بعد قليل العلم الذى يناقشها ويفندها بالجدل ولم يعودوا يكتفون بالسباب والاتهام وتحريض العامة ، وضرب مثلا رفيعا للأمانة الفكرية بأصراره على اعلان شكوكه حين عجز مخلصاً عن الاقتناع ، ورفض أن يلوذ بالتقية ، وضرب مثلا نادر الوجود حين حملته أمانته الفكرية هذه على أن يخرج عن مدرسة الاعتزال حين لم تعد تكفيه ، مع أنه كان من كبار رجالها وعظام قادتها . بل كان فى نظرى [1] من روادها الأوائل

(١) يوافقنى زميلى الأستاذ عبد المجيد عابدين على هذا الحكم ، ويضيف : « تأثر المعتزلة بعقيدة بشار فى التجربة والعيان وكان بشار يقول لا أعرف إلا ما عاينته أو عاينت مثله =

ومؤسسى منهجها الفلسفى ، فخروجه على هذه المدرسة التى شارك فى تأسيسها وخط نهجها لا بد أن اقتضى منه نزاعا عاطفياً شديداً تغلبت فيه النزاهة الفكرية على الوشائج العاطفية ، وليس هذا بالأمر اليسير .

ولا شك أن معارضته القوية لاستبداد العرب كانت عاملا هاما فى تقويض هذا الاستبداد ، وأن دعوته للموالى أن يعتزوا بكرامتهم البشرية كانت ذات أثر قوى فى إنهاضهم من ذلهم واستكانتهم وتشجيع ضعاف القلوب منهم ، حتى زالت تلك الوصمة من صفحة الدولة الاسلامية وتحققت المساواة الجنسية التى أقرها الاسلام من بدايته . ولا شك أيضاً أنه باعتداده بشعره وإصراره على مكانته الحقة فى الأدب العربى برغم أصله الأعجمى ، قد اضطر علماء العرب ونقادهم إلى الالتفات إلى هذه الظاهرة الجديدة : أن الأدب العربى لم يعد وقفا على العرب الأقحاح وأن الأعاجم قد يتقنونه إتقانا لا يقل عن إتقان أهله ، ثم بلغ الأمر أن صار عظام هذا الأدب من الموالى لا من العرب ، وصار حملة العلم فى الإسلام أكثرهم من العجم .

بشار هو الشهيد الأول فى تاريخ الفكر الاسلامى . فليفكر القارىء فى هذا الحكم مليا . . .

= وقد تلاه النظام — أستاذ الجاحظ — فقال : لا تشفينى إلا المعاينة وكان لهذا أثر كبير جدا فى اهتمام المعتزلة بالعلوم الطبيعية ، وخير شاهد على ذلك عناية الجاحظ بتأليف كتاب الحيوان » . وأن تكن مدرسة الاعتزال قد آلت إلى الاندحار فقد تركت آثارها العظيمة فى شتى فروع الثقافة الإسلامية .

البيئة وشخصية الأديب

لم نرد بكل هذا التعداد لمحاسنه أن ننكر عيوبه أو نغطى عليها ، فعيوبه لا تزال ظاهرة ولا تزال كثيرة . وبعضها جوهرى، إنما كان هدفنا أن نستتم تعرف شخصيته فى كل جوانبها حتى نستطيع اتخاذها مثالا على القضية التى نعرضها فى كتابنا هذا ، وهى مبلغ تأثير البيئة فى شخصية الأديب .

فهذا بشار ، ليس هناك أوضح منه فى شرح الأهمية التى قد تكون لعوامل البيئة فى تكوين الشخصية . وخير طريقة يفهم بها القارىء هذا الحكم ان يتصور وجوده فى بيئة مختلفة .

لو وجد بشار فى بيئة مختلفة لظلت فيه برغم ذلك عوامل ثلاثة طبيعية لا نستطيع إنكار أهميتها . هذه العوامل هى عماه ، ودمامته وحدته الشعورية والجنسية . فمهما تكن البيئة التى يعيش فيها فلا بد من ان يتعذب قدرا ما من العذاب بسبب حرمانه نعمة البصر ، وبسبب قبح منظره ، ولا بد ان تلجئه حدته الشعورية والجنسية إلى نشاط جنسى أعظم مما يكتفى به الرجل العادى .

ولكن تصور الآن أنه وجد فى يومنا هذا فى بيئة معاصرة مهذبة تتحاشى الأشارة إلى دمامته ، ولا تأخذ عليه عماه جريرة . وافرض أنه لم يكن فى هذه البيئة أجنبيا غريبا ، بل كان أحد أفراد الجنس السائد . فماذا كانت حاله تكون ؟

ما ان يفكر القارىء فى هذا الفرض حتى تتضح له الحقيقة فى شخصية بشار . ففى مثل هذه البيئة لم يكن بشار ليتعذب كل ذلك العذاب الذى لقيه . لم يكن ليجد من الناس اضطهادا أو إيذاء او احتقارا . ونتيجة هذا أن تكون نفسيته أعظم هدوءا ، ورضى ، وسعادة ، وان تحقق له عبقريته الشعرية ما كان يريد من التقدير والاحترام ومن المكانة المرموقة فى المجتمع . فتزول معظم الأسباب التى جعلته شقيا ، ساخطا ، ناقما على مجتمعه ، شديد الأيذاء له والأنتقام منه ، ولا ينتهى إلى ما انتهى إليه من الكره للبشرية .

صحيح أنه فى مثل هذه البيئة يظل بسبب شهوانيته خارجا إلى حد عما يألفه المجتمع ، ولكن مثل هذه البيئة تغتفر لعظمائها ـ وخاصة رجال الفن والأدب منهم ـ هذا الأفراط الجنسى وتغمض عينها عنه ، فيكون نتيجة هذا أن هذه الحدة نفسها لا تزيد فتطغى إلى الحد الذى رأيناه فى بشار . فقد وجدنا طغيانها فيه يرجع معظمه إلى محاولته التعويض عما لقيه من مجتمعه من الاحتقار والبغض والإيذاء ، محاولة دفعته إلى الأسراف عنادا ومكايدة وانتقاما .

وصحيح أن عماه كان يسبب له حسرة دائمة ، ولكن كثيرين من العميان عاشوا برغم عاهتهم عيشة سعيدة وتمتعوا بمنزلة محترمة عالية فى المجتمع ، وانتهوا إلى كبت حسرتهم تلك حتى لا تظهر إلا بين الفينة والفينة . والذى عذب بشارا أشد العذاب لم يكن عماه فى حد ذاته ، بل ما جره عليه من الإهانة والايذاء .

وصحيح أن دمامته كانت تسبب له كثيرا من المضايقة والألم، ولكن

ما أظنه كبيرا ، فما أكثر الرجال الناجحين السعداء ممن اشتهروا بالدمامة الفظيعة ، وخير دليل على هذا أن بشاراً نفسه ، فى نفس البيئة التى عاش فيها ، تحقق له برغم قبحه نصيب عظيم من النجاح ، إن لم يكن مع رجال مجتمعه فمع نسائهم . وهو لو عاش فى عصرنا لاستطاع أن يتخذ نظارة سوداء تخفى أشنع جانب من دمامته . بل فى عصره هو استطاع نفر من خاصة أصدقائه ومسامريه أن يتناسوا قبحه فى ظرف حديثه وحسن منادمته .

وصحيح أنه كان يظل لاذع النكتة ، فيسبب لنفسه بهذا خصوما كثيرين . ولكن لن يزيد الأمر فيه عن كثيرين آخرين من العظماء ذوى الخصوم ، فخصومه هؤلاء ما كانوا ليلجأوا إلى الاضطهاد المسرف ، إذ هو واحد منهم فلا يضطهدونه لأجنبيته ، وكذلك لا يضطهدونه لعماه او دمامته فقد بلغوا من التفكير والمستوى الخلقى ودرجة تربأ بهم عن هذا . فحين لا يلقى منهم اضطهادا يكون لهذا أثره فى التخفيف من وخز ردوده ، فلا تصل ذلك الحد من الإيلام والتسمم . فقد رأينا أنها إنما بلغته لفرط مالاقاه من إساءة الناس . وبعد فهذا برنارد شو له فى رواياته ومقدماته وفى مقالاته النقدية ونوادره الاجتماعية ردود لا تقل لذعا عن ردود بشار ، آلم بها رجال مجتمعه ايلاما عظيما ولكنهم اغتفروها له بل انتهوا إلى تقبلها منه راضين بها مدركين لاستحقاقهم إياها .

لو وجد بشار فى مثل هذه البيئة أذن لزالت معظم العوامل التى نغصت عليه حياته ، فيزول بزوالها معظم نواحى الشر فى شخصيته ، فقد

اتضح الآن أن معظم هذه النواحى لم يكن فيه أصيلا بطبيعة التكوين بل كان مكتسبا من آثار البيئة . فحين تزول معظم نواحيه الشريرة ينفسح المجال أمام نواحيه الخيرة الأصيلة التى رأيناها فيه ، فيتاح لها ميدان عظيم للنمو والزيادة والغلبة .

وهنا أنبه القارىء إلى الأهمية الحقة لفضائله تلك . فأهميتها الحقة ليست أنها « وجدت » فيه ، بل أنها « بقيت » فيه إلى ذلك الحد الكبير الذى رأيناه برغم كل ما قاسى ، فلنتصور الآن ماذا كانت تصير لو لقى حياة أسعد وتقديرا أعدل . إلام كانت تصل طيبة قلبه ، وبره بأهله ، ورقته وحنانه ، وكرمه وسخاؤه ، ووفاؤه للاصدقاء وإعزازه لصداقتهم ، وفكاهته وظرفه وحسن حديثه ، وماذا كانت تنمو فيه من محاسن أخرى كثيرة . . .

أى رجل مختلف كان حينئذ يصير ! ولكن لا داعى إلى تخيل وجوده فى بيئة حديثة ، بل كان يكفى فى إصلاح معظم عيوبه لو تأخر به الزمن جيلا واحدا أو جيلين على أكثر تقدير ، فعاش لا فى الوقت الذى كان يضطهد فيه العرب الموالى ، بل فى الوقت الذى انحدر فيه الجنس العربى وزال سلطانه على الامبراطورية الإسلامية ، فتحققت المساواة بين الأجناس المختلفة التى عاشت فيها ، مع نوع من الغلبة للجنس الفارسى ، وفى الوقت الذى كان فيه الناس أرحب صدرا بخلاعة أهل الخلاعة وتشكك ذوى الشكوك .

— بشار أذن شخصية تكونت معظم خصائصها بتأثير عوامل البيئة لا

بارغام عوامل التكوين الطبيعي . فان شاء القارىء أن يزداد لهذا تقديرا فليقارنه بشاعر صح عليه الحكم النقيض ، بابن الرومى .

فابن الرومى كانت معظم أسباب فشله ودواعى ألمه وشقائه من تكوينه الجسمانى والنفسانى ، لا من تأثير بيئته ، ولو تصورنا وجود ابن الرومى فى مثل تلك البيئة المعاصرة المهذبة التى تخيلناها لبشار ، لوفر عليه هذا كثيرا من أسباب ألمه دون شك ، ولكن أكثرها كان يبقى : من اعتلال صحته وضعف بدنه منذ الولادة ، وكثرة اختلالاته العصبية والجنسية والغدية ، وشدة مخاوفه وإفراط طيرته ، وشذوذ تصرفاته وغرابة أطواره ، وكثرة عقده الباطنة وصراعاته النفسية .

كل هذه العوامل التى وجدت بالطبيعة فى ابن الرومى تعذب صاحبها عذابا حقيقيا مهما تكن بيئته ، وتبقيه مضطربا شاذا عن مجتمعه شديد الشذوذ طول حياته ، فان عدت على ضوئها الى بشار وجدت أن ما عذبه من عوامل التكوين الطبيعى كان هينا بالمقارنة .

* * *

فى سنة ١٩٤٠ كنت أعرف زوجين من جزر الهند الغربية يعيشان فى كمبردج ، لهما غلام فى التاسعة من عمره . وكان هذا الغلام آية فى الذكاء وتوقد الفهم ، وكان ظريفا خفيف الروح ، وكان أيضا رشيقا وسيم الوجه جذاب الملامح ، وكان الناس يعجبون بملاحته وظرفه وذكائه ، فخيل لى أن مستقبله قد تم تحديده ، وأنه صائر إلى النجاح والفوز بحب الناس وتقديرهم طول حياته .

وفى صيف سنة ١٩٥٠ قابلته صدفة بأحد أندية لندن ، فأقبل على هاشاً محييا ، وذكرنى به ، وتأملته فإذا به يحتفظ بسابق وسامته ، وجلست أتحدث إليه فإذا به على عهدى به حلو الكلام ألوفا مصادقا، فقلت ها تنبؤى قد تحقق .

ثم دعوته إلى تناول الغداء معى فقبل شاكراً متهللا ، ولكن ما أن ذكرت له اسم المطعم الذى اخترته حتى بدا على وجهه تغيير عجيب لم أفهم سببه ، وخيل إلى لحظة أنه سيرفض ، ولكن سرعان ما علت وجهه ابتسامته المعهودة ، وهب من كرسيه بعزيمة ونشاط ، وصحبنى إلى الطعم المختار .

وكان عهدى بخدم ذلك المطعم مخلصين فى الخدمة ، مسرعين إلى التلبية ، حريصين على راحة الزوار ورضاهم . فخالطنى شىء من الحيرة حين وجدتهم فى هذه المرة على غير عهدهم من التحية الهاشة والاحتفاء والتلبية العاجلة . ولكن قلت فى نفسى : هم اليوم شديدو الانشغال ، والمكان زائد الازدحام ، ونسيت المسأله برمتها ، وأقبلت على ضيفى متحدثا محييا .

وفجأة أدركت أن الخادم قد تغيب إلى حد غير معقول ، فابتسمت لضيفى واعتذرت له ، وقلت أنه يبدو أننا اخترنا يوما شديد الازدحام .

وما كدت أتم اعتذارى حتى دهشت أعظم الدهشة للتغيير التام الذى طرأ على وجهه ، فقد تلاشى ذلك الوجه السمح المتهلل ، وتلك البسمة الحلوة المتوددة ، وحل محلها وجه كالح مربد ، وابتسامة قاسية متهكمة ، فلما نطق كذبت أذنى ، إذ سمعت ، بدل الصوت المرح

السعيد الذى أعرفه ، صوتا خشنا أجش شديد الفظاظة . قال لى بسخرية مؤلمة : أتظن أن السبب هو ازدحام المكان ؟ ما أطيب قلبك ! بل السبب أنهم يحتقروننى للونى ، ويتعمدون التباطؤ وإساءة الخدمة حتى لا أزورهم مرة أخرى ، فهذا مطعم راق لا يرحبون فيه بالسود وإن كان القانون لا يسمح لهم باغلاق أبوابهم دونهم .

ولما أجبت مستنكرا ، قاطعنى بحدة قائلا : إن أردت أن أقنعك فاسمح لى بأن أطلب من الخادم شيئا ، وانظر كيف يجيبنى . وكنت حتى ذلك الوقت أعطى الأوامر لأننى الداعى ، ولكنى لم أجد بدا من إجابة رجائه .

فنادى خادما واقفا إلى المائدة المجاورة ، فتصنع الخادم أنه لا يسمع ، ولكن صديقى ألح حتى اضطر الخادم إلى الاقبال ، فجاء وعلى وجهه علائم من الكراهية والغضب لم أستطع أن أخطئهما ، فبادر صديقى قائلا بسوء أدب شنيع : لست الموكل بمائدتك ، فانتظر حتى يحضر سفرجيك !

فالتفت إلى صديقى وقد انفرجت شفتاه بابتسامة شيطانية مرة وقال : أرأيت !

ثم أقبل على يحدثنى بتجاربه ، ويقص على أخباره منذ فارقته من سنوات عشر ، وطال بنا الحديث فعدنا إلى نادينا لنتمه ، وما حل المساء حتى كنت قد عرفت القصة بكمالها .

فذلك الصبى الظريف الخفيف الروح ، المرح الباش ذو المودة والرغبة فى مصادقة الناس جميعا ، قد صار شابا حاقدا عظيم المرارة ،

قاسى القلب ساخرا ، لا يشغل فكره سوى تدبير المكايد التى يغيظ بها البيض ويوقع بهم الضر دون أن يقع تحت طائلة القانون . وينتظر بنفاد صبر ذلك اليوم الذى سيتم فيه تعليمه فيندمج فى الحياة السياسية ، ولا حاجة بى إلى أن أذكر أنه لم يجد مذهبا يرضى تعطشه إلى الانتقام سوى الشيوعية الهدامة .

واستنكرت ما صار إليه ، وصارحته باستنكارى ، وبدأت أحاول مناقشته بالحجج المقنعة ، ولكنى سرعان ما أقلعت عن هذه المحاولة ، إذ تبدى لى من حرارته وانفجاره أنه غير مستعد للمناقشة والاقناع .

ورحت أفكر فيه وفيما قال ، فما استطعت أن ألومه . فهذا فتى يقبل على العالم متوددا باسما يود أن يصادق الجميع ، فلا يلقى إلا الاعراض بعد الاعراض ، والاهانة تلى الاهانة ، ويمتد به العمر سنة بعد سنة ، وهو كلما أدبر عن صباه وتوغل فى شبابه ازداد الناس عنه ازورارا وله مقاطعة ، فتفتر بالتدريج عزيمته فى محاولة اكتساب الأصدقاء ، ويزداد خيبة أمل ، حتى يبلغ اليأس التام ، ثم ينقلب إلى ذلك الحاقد القاسى الذى رأيته . والله وحده يعلم ماذا سيكون منه من الشر حين يستكمل رجولته ويستتم مقدرته على الايذاء والانتقام ، وحين يعود إلى بلاده بعد انتهاء تعليمه فينخرط فى حياتها السياسية .

هذا مع أنه قضى فترة مراهقته فى انجلترا ، وهى بلاد قد يكره أهلها الأجانب جميعا ويحتقرونهم ، ولكنهم فى العادة يكتمون هذا الكره والاحتقار فى صميم قلوبهم ، ويأخذون أنفسهم فى معاملتهم

بالأدب التقليدى ، فان ظهر منهم شىء فهو فى الغالب لا يزيد على قدر من الجفاء والعبوس ، أو هـذا على الأقل هو تصرف متعلميهم وأهل الطبقة الوسطى منهم ، فان عرض للاجنبى فى بلادهم إهانة فهى لا تصدر إلا من رعاعهم وجهالهم ، فهو يستطيع أن يغض النظر عنها ويترفع بكبريائه عن الاهتمام بها .

فماذا كانت حالته تصير لو أنه عاش فى بلاد كأمريكا أو جنوب أفريقا ، يحتقر فيها السود احتقارا صريحا لاخفاء فيه ، ويؤذون إيذاء فعليا ، ويلقون اضطهادا مدبرا مسموحا به من طبقات الأمة كافة ، اضطهادا يقره العرف ، ويغضى عنه القانون ، أو يحلله تحليلا رسميا ؟

إن تأمل القارىء فى هذه القصة فسيدرك عاملا واحدا من العوامل البيئية التى صاغت شخصية بشار .

القسم الثانى

الشاعر

الجانب الأول : ظلام

نقادنا وشعر بشار

لم يكن مناص من أن يمثل شعر بشار كلا الجانبين في شخصيته ، جانب الظلام وجانب النور . أما أولهما فيتجلى فى جزء من غزله نجده مفحشا . وأما ثانيهما فيتجلى فى سائر غزله ، ونجد فيه قدرا عظيما من الرقة والحنان .

وليس العجيب أن نجد كلا الجانبين فى شعره ، بل العجيب ان نجد نقادنا يسمحون لنفورهم من شخصيته بأن يفسد تقديرهم الفنى لشعره ، حتى لم يروا فيه سوى ما يؤذى ويبغض ، فإن رأوا فى بعضه اجادة فهى إجادة صناعية ليس إلا ، وهم فى ذلك قد ارتكبوا الخطأ الأول الذى يجب أن يتحاشاه الناقد الفنى ، وهو أن يدع رأيه الشخصى فى أخلاق الأديب يؤثر فى تقديره الفنى لأدبه ، وأقوالهم فى شعر بشار خير مثال أجده فى نقدنا الحديث على ضرر هذا الخطأ ووجوب حذر الدارس من الوقوع فيه .

فالشرط الأول فى النقد الفنى هو أنه مهما يكن رأيك فى الأديب كرجل ، وفى شخصيته كفرد إنسانى ، ومهما يكن نفورك عنه وذمك لأخلاقه ، ومهما يكن امتعاضك من سلوكه فى حياته واسترذالك

لتصرفاته ، فانه ينبغي عليك حين تأتى إلى أدبه الذى أنتجه أن تبذل أقصى جهدك فى تناسى رأيك وشعورك هذين ، والاقبال على أدبه بذهن مفتوح ونفس سمحة مستعدة لتقدير الجمال الحقيقى فيه ان وجدت فيه جمالا .

وسر هذا الشرط أن الفنان مهما يكن فى شخصه مرذولاً مبغضاً فقد تكون فى فنه الملهم قطع تسمو على نقائص شخصيته ورذائل حياته وتتلقى الألهام الجمالى من منابع الفن الصافية التى لم تكدرها مرارة ولم يفسدها ما تلوثت به حياته من أقذار الأرض ومصائب الدنيا وخصومات المجتمع ، صحيح أنه لا بد أن يكون فى فنه جانب يرى تأثره بهذه التجارب ، ولكن قد يكون فيه أيضا ذلك الجانب الذى وصفناه والذى يسمو على تجاربه الأرضية المحدودة ويتصل بالروح الجمالية الخالصة يهتز بها ويستمد منها وحيه الفنى .

أضف إلى ذلك أنه مهما تكثر عيوبه وتتعدد رذائله فاننا لا نستطيع أن نصدق أنه كان وحشا أو شيطانا ، بل لا بد أن كانت به محاسن من نوع ما مهما تكن قليلة العدد أو ضعيفة الأثر فى سيرته البشرية ، فهذه المحاسن ربما تنطلق فى بعض فنه وتستكمل أقصى حريتها وينفسح لها المجال حراً لا قيود فيه فتتجلى على أتمها وأروعها .

فالناقد الذى يسمح ببغضه الشخصى أن يؤثر فى تقديره الفنى قد يغفل هذا الجمال فى فنه إذ ينغلق أمامه قلبه فيفل من حدة حسه الفنى ويسمم ذوقه الجمالى . وان كان العطف لازما فى فهم الشخصية فهو أعظم لزوما فى تذوق الفن .

ولقد تحقق هذا الشرط النقدى البدائى فى كتاب « مع المتنبى » فوجدنا مؤلفه برغم كراهيته للشاعر الذى يدرسه واستثقاله لظله ونفوره من دعواه العريضة واحتقاره التام له كرجل ، ينسى هذه الخصومة الشخصية نسيانا تاما حين يأتى إلى شعره فيقدر ما به من جمال خير تقدير ويوفيه حقه الكامل من الأعجاب والاستجابة العاطفية بل ينجح فى أن يكتب عن المتنبى أصح تقدير فنى نجده عنه فى نقدنا الحديث .

ولكن ما استطاعه طه حسين حين درس المتنبى لم يستطعه حين درس بشارا ، ولم يستطعه ناقدانا الآخران العظيمان العقاد والمازنى . فاستمع الآن إلى بعض ما يقوله ثلاثتهم عن فنه الشعرى .

يقول طه حسين :

« كان شعره كله [لاحظ قوله كله] اغراء بالفجور وحثا على الفسوق وإفسادا حتى لأشد النساء حرصا على الشرف وأوفرهن حظا من الإحصان . . . وأحسب أن صوت نفس بشار ليس بالرخيم ولا بالرقيق ، كما أنه ليس بهذا الصوت الضخم الذى لا يخلو على ضخامته من حلاوة ولين ، وإنما هو صوت لا حظ له من الحلاوة ، ولعله يخيفك أكثر مما يستهويك ، ولعله ينفرك أكثر مما يرغبك ، ومهما تكن لبشار الأشعار الجياد البارعة فأنا لا أحبه ولا أميل إليه . والغريب أن كل ما حفظ لنا عن بشار لا يحببه إلينا ولا يعطفنا عليه ، فهو ثقيل حتى حين يضحك ، وهو ثقيل حتى حين يريد أن يضحكك ويرضيك . . . »

خلطه بين الحكم الشخصى والحكم الفنى واضح فى هذه السطور وضوحا لا يحتاج إلى تنبيه ، وستجد هذا الخلط فى سائر أحكامه وأحكام زميليه . فهو يقول أيضاً :

« أخبار بشار تمثله منافقا فى سيرته يدارى الناس ويتقيهم ليعيش ثم ينذرهم ويخيفهم لينعم بعيشته ثم يسخر منهم متى أتيح له ذلك . وأذن فهو أقل الناس حظا من صدق اللهجة والعاطفة ، وإذا قرأت شعر بشار فلا ينبغى أن تبحث فيه عن شعوره وعواطفه ولا عما يحس أو يؤمل فيما بينه وبين نفسه وإنما ينبغى أن تبحث فيه عما يريد أن يظهر أو عما يريد أن يتكلف للناس من العواطف والشعور والميل . ليس شعره شفافا كشعر أبى نواس والحسين بن الضحاك ومطيع وحماد عجرد ، وإنما هو شعر كثيف صفيق لا يدل من نفس صاحبه على شىء ، وهو كاذب أبدا لا يحفل بالكذب . . . »

رأيت كيف يحكم على شعره بحياته . يقول : كان فى سيرته منافقا كاذبا . إذن كان فى شعره منافقا كاذبا كذلك ! بل يدعوك إلى ألا تحاول أن تجد فى شعره عاطفة صادقة أو لهجة صادقة ، فيدلنا بهذا على أنه هو لم يحاول ، وجوابنا هو : لا غرابة إذن أن لم يعثر فى شعره على صدق شعور أو عاطفة ، فالذى يقبل على شعر شاعر بهذا اليقين السابق أنه لن يجد فيه خيرا فهو بالطبع لن يجد فيه خيرا .

ويقول أيضا :

« هو إذن [لاحظ إذن هذه] ليس بالشاعر المخلص ولا الصادق حين يمدح ولا حين يتغزل ولا حين يرثى » . ثم يعترف له بالصدق فى موضوعين اثنين لا غير ، فى الهجاء ، وفى شكوى سوء مكانه من

الناس وحرمانهم إياه وبخلهم عليه بما كان ينتظر ، ثم يقول عن غزله :

« بين يدى غزل لبشار ليس بالكثير ولكنه ليس بالقليل أيضا وهو سواء كان قليلا أم كثيرا لا يمثل عاطفة ولا شعورا صادقا . وإنما يمثل أمرين اثنين ، يمثل تهالكا على اللذة وإفحاشاً فى هذا التهالك وافتناناً فيه أيضا دون أن يراقب الشاعر فى ذلك خلقا أو أدباً أو ديناً ويكفى أن تعلم [لاحظ قوله يكفى أن تعلم] أن علماء البصرة من أهل الدين والوعظ والكلام ومن بينهم واصل بن عطاء والحسن البصرى ومالك بن دينار جميعاً قد هتفوا به وشكوه بعد أن وعظوه ونصحوا له ، ويمثل رغبة فى الفساد وإذاعة السوء » . ثم يتبع ذلك بالاستشهاد برائيته المفحشة ، ولكنه لا يتدبر سائر غزله . ثم يقول :

« هل أحب بشار حباً صادقاً ؟ هذا سؤال أحاول أن ألتمس الجواب عليه فى شعر بشار فلا أجد إلى ذلك سبيلا ، فقد قلت لك أن شعره كثيف صفيق لا يدل على عاطفة وأن الكذب فيه كثير والتكلف فيه لا حد له ، أريد تكلف المعانى . » ثم يستشهد بشعره فى عبدة ، وهو شعر لا شك أن معظمه متكلف ، ولكنه ليس كل غزل بشار ، ثم يأتى بأعظم الأمثلة تدليلا لنا على إفساد حكمه الشخصى لذوقه الفنى ، وذلك حين يعرض لقصيدة بشار الرائعة : « أيها الساقيان صبا شرابى » وسأنقل للقارىء كلامه عنها كاملا . يقول :

« وله أبيات زعموا أن الوليد بن يزيد بكى لها وهى لا تخلو من جودة ، وأنا أرويها لأن قصتها لا تخلو من عجب .

أيها الساقيان صبا شرابى ... واسقيانى من ريق بيضاء رود
ان دائى الظما وان دوائى ... شربة من رضاب ثغر برود
ولها مضحك كغر الأقاحى ... وحديث كالوشى وشى البرود
نزلت فى السواد من حبة القلـ ... ـب ونالت زيادة المستزيد
ثم قالت نلقاك بعد ليال ... والليالى يبلين كل جديد
عندها الصبر عن لقائى وعندى ... زفرات يأكلن قلب الحديد

« قالوا فطرب الوليد وقال من لى بمزاج كأسى هذه من ريق سلمى فيروى ظمأى وتطفأ غلتى ، ثم بكى حتى مزج كأسه بدمعه وقال ان فاتنا ذاك فهذا .

« فى هذا الشعر متانة وجودة ورقة ولكنى لا أحب أوله وربما استسخفته ، ولست أدرى كيف يستطيع الساقيان أن يسقيا بشاراً من ريق صاحبته ؟ . وأحسب أن هذه ليست صناعة السقاة . وإذا كانت هذه القصة صحيحة ، فهى إنما تمثل رقة هذا الشاعر الذى أحبه وأعطف عليه وهو الوليد بن يزيد الذى فاته ريق سلمى فمزج كأسه بالدمع يسفحه البكاء عليها . »

والطريف فى هذه السطور أن هذه الأبيات من أروع الشعر العربى وأرقه وأعظمه هزا للنفس وأعنفه تأثيرا فى القلب ، يأتى إليها ناقد لا شك فى إرهاف حسه الفنى وسلامة ذوقه الجمالى وشدة تأثره بالشعر الصادق الجمال ، ولكنه لا يحب قائلها ولا يعطف عليه ، ولا يريد أن

يرى فى شعره جمالا ، ولكن ذوقه الفنى الصافى يعصيه ويتمرد عليه ويحاول خلسة أن يتأثر بهذه الأبيات الفائقة ويطرب لها ، ولكنه يشتد عليه ويقهره ويرغمه على النفور منها واستسخافها ، وهذه المعركة الطريفة واضحة فى السطور الماضية ان تأملت فيها بضع دقائق ، فانك تجده يعترف مرغما مكرها بأنها « لا تخلو من جودة » ، وبأن فيها « متانة وجودة ورقة » ، ثم يكاد يقول بصريح العبارة : ولكنى لا أحب قائلها ولا أعطف عليه ، إذن فلا ينبغى أن أتأثر بها وأطرب لها ، فلأفتش إذن عن شىء قبيح فيها ، فيجد هذا الشىء فى بيتيها الأولين ، فيهاجمهما مهاجمة ليس أبعد منها عن النقد الفنى الصحيح ، والذى يستخف حديث بشار إلى الساقيين بهذه الطريقة يستطيع أن يستخف معظم ما يستعمله الشعراء من الأقوال المجازية والأخيلة الشعرية ، وليس يحكم على أمنيته العاطفية باستحالتها المادية ، وإلا فماذا كان يقول طه حسين لو قرأ بيتاً لشاعر انجليزى شديد الشبه ببيت بشار هذا ويفوقه استحالة تحقيق ، يقول فيه الشاعر لمحبوبته : اشربى نخبى بعينيك ! ثم تواجهه مشكلة ، وهى أن الوليد بن يزيد طرب لهذه الأبيات وبكى لها . وهو من هو سليقة شعرية وبصيرة فنية ، فيتخلص منها بأن يقول : هذا يدل على رقة الوليد — فأنا أحبه وأعطف عليه — لا على رقة بشار !

وأخيرا يأتى طه حسين إلى قصيدتين لبشار يستطع أن يستجيدها استجادة تامة وأن يسلم بصدق عاطفته فيهما ، ولكن ما هما ؟ هما الميمية :

أبا جعفر ما طول عيش بدائم   ولا سالم عما قليل بسالم

والبائية التي يقول فيها :

إذا الملك الجبار صعر خده   مشينا إليه بالسيوف نعاتبه

وتخصيصه هاتين القصيدتين بالأعجاب الخالص هو من أعاجيب نقدنا الحديث، فليس فيهما شيء إلا متانة الصياغة وطنطنة اللفظ ،وهذا عنصر من عناصر اللذة الفنية لا شك ، لكنه من أهونها وأصغرها قيمة وأشدها سطحية ، ونحن نسامح مشايخنا ذوى الأذواق البدائية والنظرات السطحية حين لا يروعهم فى شعر بشار سوى هاتين القصيدتين الرخيصتين وأمثالهما من شعره ذى الفخامة اللفظية الفارغة، فهذا وحده هو نوع الجمال الذى يستطيعون تقديره فى شعر بشار أو شعر المتنبى أو سائر الشعر العربى . ولكن تأمل أعظم نقادنا المحدثين وأعمقهم ذوقا وأصفاهم سليقة يرغمه بغضه لبشار على الانصراف عن شعره الصادق الجمال حتى يشارك مشايخنا فى تخصيصهم شعره الطنان بالاعجاب! وما فعله طه حسين هو ما فعله العقاد والمازنى أيضاً ، لم يريا فى شعره سوى رصانة اللفظ ، وجودة الصياغة . فالعقاد يقول :

« أما شعره فرصين صحيح فى الأكثر الأعم مما وصل إلينا منه، وهو يقسمه قسمين بدوى تغلب فيه الجزالة والجفوة وحضرى تغلب فيه الرقة والنعومة . . . وروح شعره هو الروح الذى يعرف به أمثاله من ذوى الطبيعة الحيوية والمزاج الدنيوى الذى يتخيل الأشياء كما يحسها فى عالم الواقع القريب ويراها كما تبدو فى صور المعيشة المعهودة وحقائق البيت والسوق ، فلا الهام فى شعره ولا حنين ولا أشواق ولا بدوات

ولا خيال، ولكنها تجربة الدنيا تملى عليه ما ينظم من الحكمة والوصف والغزل والهجاء فلا يمتاز فيها عن سواد الناس بغير اللسان اللبق والقدرة على النظم والتعبير . . . ولا ينتظر القارىء أن يسمع من غزل بشار تلك النغمة الساحرة التى ترتفع بالنفس إلى عالم الأحلام والأشواق وتسبح بها فى فراديس الأفراح والأشجان ، ولا يرج أن يطالع منه وصفا للحب كأوصاف أولئك الشعراء الكماليين الذين يجعلون المرأة المحبوبة أقنوما ماثلا للعيان يجمعون فيه كل ما خامر نفوسهم من المعانى الخفية والآمال الممنوعة والمحاسن التى لا أسماء لها فى لغة اللسان والمواجد العطشى إلى غير مورد . فكل أولئك غريب عن طبعه بعيد من مشربه كما قلنا فى الفصل السابق . وإنما كان غزل بشار وصفا للذات الحس التى يباشرها أو يشتاق إليها ، وكان حبه حبا « للنساء» لا حبا « للمرأة » . أو هو كان حبا للأنثى التى يراها واحدة فى كل امرأة على اختلاف الصفات وتعدد الأسماء ، فليس يحتاج الشاعر إلا لأن يكون « حيوانا » ذكياً لينظم مثل ذلك الغزل ويجيد فيه أحسن الاجادة . . . فهو يفهم «الأنثى الجسد » ذلك الفهم الخليق بطبيعته الحيوانية ولذاته الحسية ولكنك لا تقرأ له بيتا واحدا [بيتا واحدا !] يسمو به إلى إدراك « النفس » الأنثوية وما فيها من حلاوة صافية ورحمة سماوية وكنوز عطف تغذى بها وجدان الرجل وترضعه بها روح الحياة طفلا كبيرا كما أرضعته من قبل وهو طفل صغير . »

وهذا المازنى الذى بذل جهداً يشكر عليه فى إنصاف شخصيته عا ما من الإنصاف ، يأتى إلى شعره فلا يرى فيه إلا ما رأى زميلاه ،

بل يكرر أحكامهما بنفس لفظهما أحياناً ، فيدلنا على أنه إن كان حاول أن يقبل على شخصية بشار بذهن مفتوح ، فهو لم يفعل هذا حين أقبل على شعره ولم يحاول أن يدرسه دراسة جديدة بل رأى فيه نفس الفكرة السابقة واكتفى بترديدها :

« فما كانت المرأة عند بشار إلا أنثى يصبو جسد الرجل إلى جسدها، وأداة يرضى بها غريزته ، وندر أن يرتقى إحساسه بها إلى المعانى النفسية... وكل غزله حسى واقعى لا يرتقى فيه عن هذه المرتبة ولا يجاوز وصف المحاسن الملموسة أو ما يتخيله وراء اللمس أو السمع مما فاته بذهاب بصره ، ولكنه لا يرتفع إلا فى النادر ـ وعلى سبيل التقليد والمحاكاة ـ عن نطاق الحس . . . ولم يكن يعنى بالصدق فى الأعراب عن عاطفته ، وإنما كان معنيا بسيرورة الشعر وشهرته . . . وليس لبشار فى غزله صدق يعرف من كذب ، فقد كان الشعر عنده صناعة وكان همه أن يقوله فى أغراضه وأن يقال أحسن وأجاد ، لا أن يكون صادق السريرة فيه . . . فلم تكن مزية بشار سمو المعنى ، وقوة الخيال ، أو صدق العاطفة ، أو اخلاص السريرة ، أو نفاذ البصيرة ، وإنما كانت قدرته على الأداء الجيد الموافق للمعنى الذى يعالجه والغرض الذى يقول فيه».

انتقام

فما نصيب هذه الأحكام من الصحة ؟

إن كان نقادنا الثلاثة قد شطوا فى مهاجمة بشار فيجب أن نحذر من

أن نشط فى الدفاع عنه . فهناك حقيقتان لا بد أن نسلم بهما . أولاهما أنه لا شك كان على قدر عظيم من الشهوانية والشبق ، وثانيتهما أن جزءاً من شعره لاشك داعر فى ذاته ويحرض على الدعارة معاصريه .

ولكن هذا كل ما نسلم به — أما أن يصلوا بشهوانيته إلى حد « الحيوانية » فإسراف ، وأما أن يصفوا جميع شعره بما لا يصح إلا على جزء منه فتجوز لا يعذرون فيه .

فبشار لم يكن فى شبقه وحشا هائجاً بشعاً ، لا ولم يكن فى نظرته إلى المرأة وفيما يتطلبه منها محبوساً على ناحيتها الجسمانية المحضة ، بل قد استطاع أن يرى فى المرأة جمالا آخر يعلو على الجمال الجسمى وإن كان يبدأ منه ، وأن يستمتع منها بالمتعة الرقيقة المهذبة التى لا إفحاش فيها ولا غلاظة . وشعره الداعر الحاض على الفجور ليس كل شعره ، ولا هو معظم شعره ، بل هو لا يتجاوز قصيدة واحدة وعدداً من الأبيات المتفرقة لا يزيد على العشرين ، أما سائر غزله فعذب النغمة سلس ذو حلاوة صافية وحنان بالغ الرقة .

والذى صرف نقادنا عن إدراك هذه الحقائق هو أنهم أقبلوا على شعره بفكرة سابقة تم تحديدها من فهمهم لشخصيته وحكمهم على سيرته ، فلم يروا فى شعره إلا ذلك الجزء الذى بدا مؤيداً لفكرتهم السابقة المحددة ، فاختفى عنهم سائر شعره وراء الظل الأسود الغليظ الذى ألقاه عليه شعره المفحش .

وسنبدأ فى اثبات رأينا بعد قليل ، ولكننا لن نتغافل عن شعره

المفحش بحجة أن الآخرين قد وفوه دراسة وأشبعوه نقداً ، بل سنبدأ مناقشتنا بالتأمل فيه ، تأملا لا يحاول التهوين من شناعته .

هذا الشعر يشمل ، كما قلنا ، أبياتا متناثرة من مثل قوله :

قاس الأمور تنل بها نجحا   والليل أن وراءه صبحا
لا يؤيسنك من مخبأة   قول تغلّظه وان جرحا
عسر النساء إلى مياسرة   والصعب يمكن بعد ماجمحا

وقوله :

قالوا حرام تلاقينا فقلت لهم   ما فى التلاقى ولا فى قبلة حرج
من راقب الناس لم يظفر بحاجته   وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

وتأثير أمثال هـذه الأبيات فى إغراء فتيان عصره وفتياته كان شديداً ، وخبثها الحقيق أنها على نصيب عظيم من الصحة ، كما تشهد تجارب الحياة إلى يومنا هذا ، نضطر إلى تقرير هذا كارهين . لا ندعى أن كل مخبأة تنتهى إلى المياسرة كما ادعى بشار ، ولا أن الفاتك اللهج يفوز بغرضه فى كل حالة ، ولـكن يؤسفنا أن نعترف بأن مايدعيه ينطبق على حالات كثيرة جداً ، لا يغفل عن كثرتها إلا من يريد أن يغشى على عينيه ويصم أذنيه عن وقائع الحياة الـكريهة .

ولـكن هذه الأبيات الواضحة المعنى السافرة الدعوة ليست شيئاً إذا قورنت برائيته : « قد لامنى فى خليلتى عمر » . ولـكن الذى يدرس هذه الرائية دراسة متأنية سيستكشف منها حقيقة هامة : أن بشاراً لم يلجأ إلى نظم مثل هذا الشعر لمجرد شهوانية منه أو دعارة ، بل بدافع الانتقام . فهو قد وجد فيه متنفساً عظيما لما ابتعثه معاصروه فى نفسه من الحقد ينتقم من رجالهم باستباحة نسائهم ، وينتقم من شيوخهم بإفساد شبابهم .

فان أردت أن تتبين مدى سخطه وحقده فادرس رائيته هذه ، ولو أننى سئلت أن أختار أشد الشعر العربى تشبعا بروح الانتقام لما اخترت لامية تأبط شرا أو سواها من القصائد الجاهلية التى تهدد أعداء القبيلة أو تتشفى فيهم ، بل لاخترت هذه الرائية . ولو أننى سئلت عن أعنف الشعر العربى سخطا على الناس وكراهية للبشر لما اخترت قول المتنبى :

ومن عرف الأيام معرفتى بها   وبالناس روى رمحه غير راحم

أو ما يشا كل هذا من الشعر ، بل لاخترت رائية بشار . فشعر الجاهليين أو شعر المتنبى لا يزيد إذا قورن بها عن أن يكون غضب صبيان ورعونة أطفال ، ولو أننى سئلت عن أوغل الشعر العربى إفحاشا لذكرتها ولم أعمد إلى النقائض أو أمثالها من المهاجيات التى تصرح بأسماء الأعضاء المستورة أو تصف الاتصال الجنسى وصفا مكشوفا ، فهذه القصائد لا تزيد على بذاءة الرعاع فى الشارع و السوق ، بذاءة قد تؤذى الأذن ولـكن لا يتغلغل ايذاؤها إلى أعمق من مركز السمع .

وهذه هى الرائية . فليتأملها القارىء وليدرسها على مهل .

قـد لامنى فى خليلتى عمر   واللوم فى غير كنهه ضجر
قال أفق ، قلت لا ، فقال بلى   قد شاع فى الناس منكما الخبر
قلت : وإذ شاع ، ما اعتذاك مما   ليس لى فيه عندهم عذر
ماذا عليهم وما لهم ، خرسوا !   لو أنهم فى عيوبهم نظروا
أعشق وحدى ويؤخذون به !   كالترك تغزو فتؤخذ الخزر
يا عجبا للخلاف يا عجبـــا   بفى الذى لام فى الهوى الحجر

حسبي وحسب الذى كلفت به … منى ومنه الحديث والنظر
أو قبلة فى خلال ذاك وما … بأس إذا لم تحل لى الأزر
أوعضة فى ذراعها ، ولها … فوق ذراعى من عضها أثر
أو لمسة دون مرطها بيدى … والباب قد حال دونه الستر
والساق براقة مخلخلها … أو مص ريق وقد علا البهر
واسترخت الكف للعراك وقا … لت إيه عنى ! والدمع منحدر
انهض ! فما أنت كالذى زعموا … أنت ورب مغازل أشر
قد غابت اليوم عنك حاضنتى … والله لى منك فيك ينتصر
يارب خذلى فقد ترى ضرعى … من فاسق جاء ما به سكر
أهوى إلى معضدى فرضضه … ذو قوة ما يطاق مقتدر
ألصق بى لحية له خشنت … ذات سواد كأنها الإبر
حتى علانى ! وأسرتى غيب … ويلى عليهم لو أنهم حضروا !
أقسم بالله لا نجوت بها ! … فاذهب فأنت المساور الظفر
كيف بأمى إذا رأت شفتى … أم كيف إن شاع منك ذا الخبر
قد كنت أخشى الذى ابتليت به … منك فماذا أقول ، يا عبر !
قلت لها عند ذاك : يا سكنى … لا بأس ، إنى مجرب خبر
قولى لهم : بقـــة لها ظفر … إن كان فى البق ماله ظفر

* * *

بعض قرائها قد يتعجبون من تلك الأحكام التى أصدرناها عنها، تارة نصفها بأنها أقسى قصيدة فى الشعر العربى ، وطورا نصفها بأنها

أخش قصيدة ، وهم لا يرون فيها قسوة ولا فحشا يستطيعون أن يضعوا عليهما أيديهم ، ولكن هذا هو خبث هذه القصيدة ، أن قسوتها وفحشها ليسا ظاهرين مكشوفين كحديث الصبيان أو رفث الرعاع ، بل هما كامنان كمون السم الزعاف فى الحلوى المسمومة أو الحية الزاهية الألوان . فقد احتاط بشار أعظم الاحتياط وتخير لفظه ، حتى لو أن قاضيا أراد أن يحاكمه عليها لما وجد إلى إدانته سبيلا .

تتألف هذه الرائية من أقسام أربعة . فقسمها الأول بمثابة تمهيد للقصة وإعداد للجو ، وهو أبياتها الستة الأولى . وقسمها الثانى يصف الخطوات التدريجية التى اتخذها لإغراء الفتاة، وهو الأبيات الستة التالية . وقسمها الثالث ، وهو باقى القصيدة ما عدا بيتيها الأخيرين ، يتحدث عن حزن الفتاة وجزعها لما أصابها ، وبيتاها الأخيران يعطيان رد بشار عليها .

أما قسمها الأول فحوار يدعى بشار حدوثه بينه وبين صديق له ، يعاتبه هذا الصديق على إسرافه فى حياة اللهو ، ويذكره بتأفف الناس من سلوكه وسخطهم على حياته الداعرة ، فيتصنع بشار الغضب ويقول مالهم ومالى ! لم لا يتركوننى فى شأنى وينصرفون إلى شأنهم .

قلنا إن بشاراً « يتصنع الغضب » . وهذا بالضبط هو المفتاح الذى يقودك إلى حل العاطفة الحقيقية للرائية . فبشار حين نظمها لم يكن غاضبا ولا حزينا ، بل كان فرحا عظيم الجذل ، إذ قد استطاع أن يغرى فتاة عفيفة ، وهو بهذا يفرح فرحا خبيثا أن أتيح له الانتقام من الناس

باغتصاب فتاة من نسائهم العفيفات . فالغضب الذى يظهره بشار فى هذه الأبيات غضب متصنع ، حاول إذن أن تتصور هـذا الموقف الشعورى المعقد ، فليس الأدب بالبساطة التى يظنها الـكثيرون ، ليس مجرد شاعر فرح يصف فرحه ، أو شاعر حزين يصف حزنه ، بل تصور الآن رجلا هو فى صميمه فرح شديد المرح والاغتباط ، ولـكنه لسبب ما يتصنع الغضب والحنق ، وتخيل صوته المتهدج المضطرب بين العاطفتين ، العاطفة الحقيقية من السرور ، والعاطفة المدعاة من الغضب ، وهاك مثلا : أباً يصيح بطفله الصغير متصنعا الغضب ، لأن طفله هذا صب دواة الحبر على ضيف له ، ولـكن الأب فى حقيقته يريد لو ينفجر ضحكا وجذلا ، لأن منظر الضيف مضحك جداً ، ولأنه فى صميمه معجب بهذا « الفصل » الخبيث من طفله الصغير . فتذكر كيف يتقطع صوته إذ تتنازعه العاطفتان ، وكيف تتشنج أسارير وجهه بين الجذل المـكظوم والسخط المتكلف ، ثم اقرأ الأبيات الستة الأولى وحاول أن تستمع فيها إلى هذا الصوت المتهدج .

ثم انتبه فى قراءتك لهذه الأبيات إلى الوزن الذى اختاره بشار لها ، اختار لها بحر المنسرح ، وهو بحر شديد التقطع والاضطراب ، وهو بهذا يلائم ما يريد بشار أن يمزجه من انفعالين متناقضين ، ويلائم شيئا آخر ، هو الخلاعة المسرفة التى يريد أن يعبر عنها ، فهو بتقطعه وتدافع مقاطعه بين طول وقصر ، وتمهل ثم قفز ، وتحرك بطىء ثم تحرك متتابع مهتز ، يمثل بشارا يتخلع ويهتز اهتزازا متخنثا يقلد فيه امرأة داعرة تتـكلف الحياء ، وهـذا لا يتبدى لنا إلا إذا قرأنا الأبيات ببطء شديد

ثم بقفز مفاجىء ، وفصلنا بين مقاطعها مقطعا مقطعا ، واهتززنا نحن أيضا فى قراءة كل مقطع :

ولـكنه لم يكتف بالوزن ، بل انظر الآن إلى إجادة تقطيعه لعباراته وألفاظه تقطيعا يحكى تخلعه وتثنيه حكاية تامة .

قد لامنى فى خليلتى عمر　　واللوم فى غير كنهه ضجر

قال : أفق ! قلت : لا ! فقال : بلى

قد شاع فى النـاس منكما الخبر

ثم تأمل فى أسلوبه ، يأتى بالمعنى المألوف الذى تعاوره الشعراء من صديق يلوم صاحبه العاشق ويقول له أفق ، وصاحبه يرفض الاستماع إلى ملامته ، يأتى به بأسلوبه الخاص الشديد التخلع . (قال : أفق !) . وهو لا ينطق بهذا الأمر فى حزم ورجولة بل بتخنث عظيم كما تقول المرأة الخليعة « اصحى يا راجل ! » . (قلت : لا !) . وهو أيضا لا ينطق بكلمة النفى هذه بشدة وحزم ، بل كما تنطق بها نفس المرأة « لأ ياخويه ! » . (فقـال : بلى !) أو بأسلوبنا العامى : « الله بقى عليك ! » [1]

---

(١) لابد أن الـكثيرين من القراء سيدهشون من طريقتى هذه فى ترجمة الشعر إلى لغتنا العامية ، وقد ينفرون منها أو يرون أننى أسرفت فى استعمالها ، ولـكنى أعتقد أنها لازمة لزوما تاما إذا أردنا تمثل هذا الشعر تمثلا صحيحا ، فهذا شعر عامى كان شديد العامية فى عصره ، فلا نفهمه حق الفهم إذا اكتفينا بترجمته إلى أسلوبنا الـكتابى الحديث ، بل لامناص من أن نترجم الموقف كله إلى موقف شبيه به فى حياتنا المعاصرة ثم نتذكر ما يصدر عن الأشخاص فيه من حوار باللهجة الدارجة ، ولست أظن انزعاج بعض القراء من استعمالى هذا الأسلوب العامى فى دراسة هذه القصيدة والقصائد القادمة إلا ناشئا عن عدم تعودهم لمثل هذه الطريقة فى نقدنا الحديث ، فرجائى أن تضيع الغرابة شيئا فشيئا كلما مضوا فى هذا الـكتاب قدما .

ثم يرد على صديقه ردا ماهرا ، يقلب عليه حجته حين قال :
« قد شاع فى الناس منكما الخبر » . يقول : إذا كان خبرنا قد شاع كما
تدعى فما فائدة اقلاعى عن لهوى وقد حدث ما تخشى منه وانفضح الأمر
وليسوا بعد بعاذرى" ؟ ولكن انظر كيف يصوغ هذا المعنى :

قلت : وإذ شاع ! ما اعتذاك مما ليس لى فيه عندهم عذر ؟

تأمل قوله : وإذ شاع ! يلتفت بها إلى صاحبه مفاجئا كما نقول :
امسك ! قفشتك ! ثم تأمل الخلاعة الزائدة فى استعماله هذه الكلمات
القصيرة المتتالية : ليس ـ لى ـ فيه ـ عند ـ هم — ويختمها بكلمة ذات
مقاطع ثلاثة متدافعة : عُـذُرُ . وهو فى نطقه لكل منها يأتى بهزة جسمية
شنيعة تذكرنا بالنساء « البلدى » اللاتى نراهن فى الأحياء الوطنية أو فى
الأفلام المصرية الهزلية واحداهن « تردح » للأخرى أو تتغنج أمام
الرجل . واستعماله لحروف الجر والظروف «لى ـ فيه ـ عندهم» لابد أن
كان له فى عصره تأثير أشد مما قد يكون له فينا إذ كان لا يزال جديدا
ظريفا عجيبا ، أما نحن فقد طال تعودنا لعبث الشعراء بحروف الجر ،
سواء منهم المتظرفون الخلعاء والمتصوفة حين يقولون « منه له فيه »
وأمثالها .

ويستمر فى تخلعه ، وفى غضبه المتصنع ، وفى جذله الخفى ، فى
البيت التالى :

ماذا عليهم ، وما لهم ، خرسوا ! لو أنهم فى عيونهم نظروا

وتقسيم الشطر الأول لا يحتاج إلى تحليل ؛ وهو ينطق بسبابه

« خرسوا ! » كما تنطقها المرأة التى « تردح » محركة يديها مهتزة بكشحيها
غامزة بعينها . أما البيت القادم فهو أقرب الأبيات إلى إظهار السرور
الخفى الذى يحاول كتمه ويتصنع بدله الغضب :

أعشق وحدى ، ويؤخذون به كالترك تغزو ، فتؤخذ الخزر

يدعى الشكوى من تصرفهم ، ولكن تشبيهه الذى يأتى به يكشف
عن غبطته وجذله وشماتته ، يشمت فيهم لأنه هو يتمتع بلذة العشق وهم
ينالهم أذاه ، فهو كالترك تغزو المسلمين وتؤذيهم وتقتل منهم ، ولكن
لا ينالهم العقاب بل يقع على جيرانهم الخزر .

أما البيت القادم فخلاعته تامة الوضوح :

يا عجبا للخلاف يا عجبا بفى الذى لام فى الهوى الحجر

اقرأ الشطر الأول ببطء وتطويل شديد وبأقصى ما تستطيع من
التثنى فى خلال مقاطع « يا عجبا » ، ثم قارنه بازدحام الشطر الثانى
بكلمات قصيرة تمثل بتتابعها ضربة بعد ضربة ما يريد تصويره من
التخلع : بفى الـ ـ لذى ـ لام ـ فى الـ ـ هوى الـ ـ حجر ـ

هذا هو القسم الأول ، ومهما يكن رأينا فيه من الناحية الخلقية
فنحن مضطرون إلى الاعتراف بمهارته الفائقة فى تصوير المعانى التى
يريدها تصويرا يكاد يكون حسيا مجسما .

أما الأبيات التالية فيذكر فيها الخطوات التى اتخذها بحكمة وتدرج
حتى نجح فى إغراء الفتاة . فأولاها :

حسبي وحسب الذى كلفت به   منى ومنه الحديث والنظر

أنه حين بدأ بجلسها لم يتسرع تسرع الغر الأرعن ، بل تصنع أن كل ما يريد منها هو أن يستمتع معها بلذة الحديث البرىء والمؤانسة الشريفة ، فحادثها فى مختلف الموضوعات وفاكهها بالنوادر والأخبار حتى هدأت وأفرخ روعها وبدأت تطمئن وتحس بالأمن . فلما تم له ذلك :

أو قبلة فى خلال ذاك ، وما   بأس إذا لم تحل لى الأزر

بدأ يتجرأ على « قبلة فى خلال ذاك » . فحين تم هدوء الفتاة واطمئنانها وبدأت تجاذبه أطراف الأحاديث وتضحك لمراحه الذى لا يزال بريئا ، بل بدأت تبادله مزاحا بمزاح، تجرأ على أن « يخطف » منها قبلة سريعة عارضة ، « على الهامش » كما نقول ، ولم يقدم على تقبيلها بشدة وإطالة وإلا عاد إلى إزعاجها وإخافتها ، فلم تكد تحس الفتاة بقبلته حتى كانت قد انتهت فلم تدع لها مجالا للاحتجاج الشديد . ولكنه كرر هذه القبلات الخفيفات وهو مسترسل فى حديثه ومفاكهته فلم تشعر الفتاة بأن قبلاته أخذت تكثر وتطول ، ولم تدرك إلا وهى تقابله قبلة بقبلة ، ولكنه فى باقى البيت يذكر نفسه بضرورة الاستمرار فى الحذر والتدرج وعدم اللجوء إلى عمل طائش وإلا أفسد كل ما ظفر به .

فلما دام ذلك مدة كافية انتهيا إلى هذا الطور :

أو عضة فى ذراعها ولها   فوق ذراعى من عضها أثر

طالت إذن القبلة واشتدت حتى تحولت إلى عضة ، وأخذت الفتاة

تجاوبه فى هذا أيضا دون أن تدرك المرحلة التى صارت إليها ، وهى دون شك تجد فى هذا التقبيل والعض متعة كبيرة . ولكن بشارا فى تؤدته واحتياطه لم يتسرع بل اتخذ خطوات أخرى :

أو لمسة دون مرطها بيدى   والباب قد حال دونه الستر

ولكنها لا تزيد فى مبدئها عن أن تكون « لمسة » خفيفة سريعة سرعان ما سحب بعدها يده ورأى رد فعلها ، ويظهر أن رد فعلها هذا طمأنه فابتدأ يثق بنجاحه النهائى ، ولذلك يتأكد من أن الباب يسترهما وألا رقيب أو زائر يقطع عليهما حبل المغازلة .

والساق براقة مخلخلها   أو مص ريق وقد علا البهر

انتهت المسكينة الغريرة دون أن تدرى إلى المرحلة الأخيرة التى لن تستطيع بعدها ارتدادا ، فأخذت تبدى مفاتن جسمها وطالت القبلة فصارت مص ريق طويل شديد الأثارة وعلت أنفاسها المتقطعة المتهدجة بالشهوة وهو الدليل الذى لا يخطىء على أنها قد اكتملت استثارتها ولم يبق إلا التسليم الكامل :

واسترخت الكف للعراك . . .

كل هذا بدأ بجلسة بريئة وبقبلة هينة خفيفة لم تر الفتاة فيها بأسا ، ولم تدرك — فى جهلها بحيل الرجال — النار التى ستتأجج من ذلك الشرر الصغير[1] . وهذا كثيرا ما يكون مصير مثيلاتها من الجاهلات اللائى

---

(١) من العجب أن نجد أحد نقادنا الكبار لا يدرك المعنى الحقيقى لهذا القسم من القصيدة =

ظن أولياء أمورهن أن ابقاءهن جاهلات بحقائق الحياة يكفى لحفظ شرفهن .

ولكن انظر الآن دهاء بشار واحتياطه فى نظم القصة . فبعد أن يقول « واسترخت الكف للعراك » يقفز قفزا شديدا فيأبى أن يصف ما حدث ويثب مباشرة إلى نهاية الحادثة فيصف ما قالت الفتاة حين ثابت الفتاة من نشوتها وأدركت فداحة ما حدث لها . ولو أن هذا البيت يكتب بلغة أوربية تتخذ علامات الترقيم لكتبوه هكذا ، يضعون نقطا موضع الجزء الذى وثبه الشاعر :

واسترخت الكف للعراك . . . . .
. . . . وقا لت: إيه عنى ! والدمع منحدر

= فيغفل عن هذه الخطوات الماكرة المتدرجة التى اتخذها بشار حتى نجح فى اغراء الفتاة الشريفة ، ويظنها جاءت إليه عارفة بما سيحدث ولقيته فى بيت من بيوت الدعارة ، فالمازنى يقول عن هذه القصيدة (ص٧٦) : « والمرء يقرأها فيخيل إليه أن هذا بيت من بيوت الدعارة السرية . والصورة كلها صورة فتاة « بنت عشرين بكر » — فقد كان بشار يحبهن صغيرات — بضة لينة من حوريات الأمصار المستراد لأمثالهن يغازلها ويلاعبها ويقارصها ويهم بها رجل قوى متين الأسر خشن الشعر وهى ذليلة مطواع بين يديه ، تقر له ، وتعترف بقوته ويلذ لها — وان كانت عينها تذرى الدمع — أن تلهج باقتداره عليها ، ومساورته لها ، وظفره بها ، ولا يحيرها إلا عضة بشفتها لا تدرى كيف تخفى أثرها عن أهلها حين يعودون » . وبذلك يظلم هذه المسكينة البريئة الجاهلة أشنع ظلم حين يقول أنها ذليلة مطواع بين يديه تقر له ويلذ لها اللهج باقتداره عليها ، وسيرى القارىء أن شكواها من بشار شكوى خالصة لا تلذذ فيها ولا لهج ، وإنما هو دهاء بشار خدع ناقدنا الكبير للأسف الشديد .

وبشار يريد بذلك ألا يدع لأحد مجالا لمؤاخذته أو معاقبته . ولو أن لائما لامه لتصنع الدهشة وقال : ولكن أى شىء فى هذا يقارب ما تقبلونه من نقائض جرير والفرزدق وأراجيز الرجاز وشعر غيرهم مما يغص بالوصف المكشوف والألفاظ الصريحة ! أفتقبلون ذلك وتحفظونه وتروونه ثم تعيبون على هذا الكلام الهين البسيط الذى ليس فيه لفظ واحد مرفث ؟

وتأمل الآن فى القسوة البالغة التى تكمن فى هذا القسم من القصيدة . فبشار يريد الآن أن يصف جزع الفتاة ورعبها حين تفيق من شهوتها الوقتية فترى ماحدث لها وتدرك فرط الايذاء الذى وقع بها . وظاهر هذا القسم أن بشاراً لايزيد عن حكاية ماحدث ، ولكن حقيقته أنه فى وصفه لجزعها ولوعتها ساخر بها هازىء منها شامت بما حل بها متشف فيها ، وهذه هى الشناعة الحقيقية لهذه الأبيات ، يتصنع أنه يحكى حزنها ونحيبها ، ولكنه يحكيه بصوته هو ، هذا مايجب أن يتنبه إليه القارىء . لسنا فى هذه الأبيات نسمع صوت الفتاة تتفجع على ماحدث لها ، ولكن نسمع صوت بشار يقلد تحسرها متهكما ساخراً ، ويقلد صوتها الأنثوى فى خلاعة مسرفة . فإن شئت أن تفهم هذا الصوت المزدوج فهما صحيحا فتصور موقفا شبيها به . افرض أننى ضربت شابا ضعيفا منكسراً فبكى وصاح متألما شاكيا ، ثم جئت لك فحكيت لك ماحدث وأخذت أقلد صياحه وشكواه فى صوت يتلوى سخرية واحتقاراً وشماتة . هذا مايفعله بشار فى هذه الأبيات :

... ... وقا لت : ايه عنى ! والدمع منحدر

انهض! فما أنت كالذى زعموا   أنت وربى مغازل أشر

نقف هنا لنتأمل هذا اللفظ الماكر : انهض ! يصور به بشار موقفهما تصويراً غير مباشر، فهولم يصرح فى أى بيت سابق بأنه اعتلاها، ولو آخذه مؤاخذ على « انهض » لقال أنه إنما يحكى ما قالت حكاية صادقة ولا يقصد أكثر من هذا . و « الذى زعموا » يدلنا على أنه كان قد احتال عليها بنفر من الرسل الذين امتلأ بهم ذلك العصر رجالا ونساء ، أكدوا لها شرف مقصده وعفة ضميره حتى قبلت أن تلقاه . ثم يتجلى من الشطر الأول من البيت التالى :

قد غابت اليوم عنك حاضنتى   والله لى منك فيك ينتصر

دهاء بشار إذ أحسن اختيار اليوم لمغامرته ، فاختار يوما كانت فيه وحيدة غابت عنها الأمة المكلفة بحراستها ، أو لعله هو الذى تخلص منها بوسيلة ماكرة . أما الشطر الثانى فليس بعده فى التخلع والتثنى . تأمل فى تتابع حروف الجر : لى ـ منك ـ فيك ـ وتصور اهتزاز بشار مع كل واحد منها . ولكننا ان قبلنا خلاعته فى القسم الأول من القصيدة حيث كان لا يتحدث إلا عن نفسه ، فإننا لا نستطيع أبداً قبولها هنا ، فهو هنا يقلد تفجعها الأنثوى فى قسوة شنيعة لا تثير فينا سوى الكراهية والسخط .

يارب خذ لى ! فقد ترى ضرعى   من فاسق جاء ما به سكر

ولا بد أن هذا حدث فعلا ، لا بد أن هذه المسكينة المخدوعة المغلوبة على أمرها قد توجهت إلى الله فى ضعفها وعجزها بالشكوى وطلب

الانتقام ، ولكن شناعة البيت أن بشاراً هو الذى ينطق هنا مقلدا دعاءها وتضرعها فى سخرية فظيعة .

أما البيتان القادمان فربما كان لهما غرض بعيد :

أهوى إلى معضدى فرضضه   ذو قوة ما يطاق مقتدر
ألصق بى لحية له خشنت   ذات سواد كأنها الإبر

تذكر مرة أخرى أن المتحدث ليس الفتاة ولكن هو بشار على لسان الفتاة ، فهو هنا ينسب إليها كلاما ظاهره الشكوى من قوته وخشونته وباطنه الاعجاب والشغف بهذه القوة الذكرية الخشنة ، يريد أن يصور شعوراً أنثويا لا شك فى صدقه ، امتزاج ألم المرأة من خشونة الرجل بما تجده من لذة عجيبة مقترنة بهذا الألم بل لعلها صادرة عنه . فهذا الموقف هو أتم مثال فى التجارب الانسانية على اقتراب اللذة والألم إذا بلغا غايتهما . ولكن لعل بشاراً لا يقصد بهذين البيتين مجرد حكاية ماحدث ، بل يرمى إلى تشويق سائر النساء فى عصره إلى أن يتذوقن منه ماذاقته تلك الفتاة من عنف الرجولة .

حتى علانى ! وأسرتى غيب   ويلى عليهم لو أنهم حضروا !

حين يقول « حتى علانى » فهو يقترب من التصريح إلى أقصى حد يسمح به لنفسه ، ولكن لا يزال فى استطاعته أن يحتج بأنه لا يقول هو شيئا إنما ينقل ما قالته الفتاة . أما باقى البيت فشماتة ليس فيها خفاء ، ولا يحتاج القارىء إلى أن أنبهه أن الذى يتحدث هنا هو بشار لا الفتاة ، فبشار نفسه هو الذى يسخر ويتشفى قائلا : ويلى عليهم ـ أى ويل بشار ـ لو أنهم شهدوا ما حدث لفتاتهم . فوجهه هنا ينفجر فجأة

بالجذل الشديد يكاد لا يستطيع كبحه حين يتخيل رعب أهلها وسخطهم القتال حين يعرفون ما ألم بها .

أما البيت التالى فلعله أشدها إثارة لحزننا وحسرتنا عليها :

أقسم بالله لا نجوت بها !   فاذهب فأنت المساور الظفر

شطرا هذا البيت مختلفان فى النبرة اختلافا تاما . ففى الشطر الأول تتحول الفتاة من الجزع والنواح إلى الغضب الشديد على بشار فتهدده بأنه لن ينجو من مغبة جريمته . ولكن ما أن يخرج هذا التهديد من فمها حتى تدرك سخافته واستحالة تحقيقه ، إذ تدرك عجزها التام عن الانتقام . فكيف تستطيع المسكينة أن تعاقبه ؟ هل تشكوه إلى أبيها أو أخيها ؟ لو فعلت لعاقبوها قبل أن يعاقبوه ، فحين تدرك عجزها التام عن الانتقام تعود إلى الأذعان لسوء حظها الذى لا تستطيع له تغييرا : فاذهب فأنت المساور الظفر ، تنطق به مخذولة يائسة مستكينة راضخة لسوء حظها ، فتذهب نفسنا عليها حسرات ، ثم يزيد من إيلام البيت أن بشارا هو الذى ينطق به هازئا من توعدها شامتا باعترافها بعجزها مقلدا لاستكانتها بتخنث شنيع .

والآن وقد نفست الفتاة عن فجيعتها بعض الشىء ، وأدركت عجزها عن الانتقام وانتهت إلى أخذ نفسها بالاذعان للمصاب والرضوخ لطالعها المنحوس ، تلتفت إلى الناحية العملية من مشكلتها فتحاول أن تفكر فى مخلص منها . أما الضرر البليغ الذى حل بها فلا علاج له إلى الأبد ، ولكن ألا تستطيع على الأقل أن تخفى أثر هذه العضة التى تورمت لها شفتها ؟

كيف بأمى إذا رأت شفتى   أم كيف إن شاع منك ذا الخبر ؟

ما قصد بشار من حكاية هذا البيت ؟ قصده أن يحملنا على الضحك والسخرية بهذه الفتاة التى حدث لها ما حدث من الأذى البليغ ولكن لا يهمها سوى ما حدث لشفتها من الجرح والورم . ولكن هل ينجح فى قصده ؟ لا أظن . فنحن لا نضحك منها ولا نسخر بها بل نزداد لها رثاء وعليه سخطا . فمشكلتها مشكلة حقيقية ، فان ما حدث لها من الضرر تستطيع إخفاءه عن أهلها ، أو ذلك ما ترجوه ، ولكن لها الحق كل الحق أن تجزع من هذا الأثر الواضح البادى لكل من ينظر إليها .

أما فى الشطر الثانى فهى تعبر عن تخوفها من أن يلجأ بشار إلى فضيحتها افتخارا وشماتة ، وهو تخوف لا يحاول بشار فى بقية القصيدة أن يريحها منه ، لا يتعهد لها بأنه لن يبوح بسرها .

قد كنت أخشى الذى ابتليت به   منك ، فماذا أقول ، يا عبر

فى دراستنا لهذه القصيدة حتى الآن صببنا كل سخطنا واستشناعنا الخلق على بشار . ولكن واجب العدل يقضى بألا نخلى الفتاة من بعض المسئولية . فان صدق ما ينسبه بشار اليها فى هذا البيت — وما أظنه إلا صادقا — فصحيح أنها حين زارته لم تكن تقصد أن تمكنه من نفسها وكانت تعتقد أنها ستكون مجرد جلسة بريئة ، ولكنها لم تكن جاهلة تمام الجهل بالخطر الذى يجبهها . فان كانت قبل أن تلقاه قد خشيت شيئا من هذا فقد كان واجب الحكمة والاحتراس يقضى عليها بأن ترفض دعوته . فهى حين لبت دعوته آملة ألا يحدث ما تخشى إنما كانت تلعب بالنار . لست من الذين يوقعون معظم اللوم فى مثل

هذه الحادثة بالمرأة ، قائلين أنها هى التى ستخسر فهى إذن الطرف الذى يقع عليه العبء الأكبر من التحفظ والاحتراس . لست أوافق على هذا الحكم الخلقى الشائع الذى يصدره الناس دائماً فى كل بيئة وكل عصر، فهو حكم مغرض يضعه الرجال انتصارا لجنسهم ويرغمون النساء على قبوله، فترى المجتمع يخص المرأة فى مثل هذا الموقف بمعظم اللوم وبكل العقاب ، وينسى فى هذا ضعفها وقوة الرجل ، ولكنى لا أريد أن ألجأ إلى المبالغة فى الناحية المضادة فأخلى المرأة من كل مسئولية .

أما الكلمة الأخيرة من هذا البيت: « يا عُبُر » ، فليس من معانيها التى تعطيها القواميس ما يوافق هذا الموضع . ففى القاموس المحيط « ناقة عُبُر أسفار مثلثة قوية تشق ما مرت به وكذا رجل ، العبرة العجب واعتبر منه تعجب » ، وليس فى هذا معنى يصح هنا .

ولكن المفتاح إلى فهمها هو أن يتذكر القارىء أن المتحدث بشار لا الفتاة . فهذه كلمة ينسبها بشار إليها ولم تنطق هى بها . ويريد بها المبالغة فى التهكم والخلاعة ، فالظاهر انها كلمة سوقية شديدة العامية كانت شائعة بين النساء فى عصره وتعبر بها النسوة عن نظير ما تعبر عنه نساؤنا حين يقلن : يا دلعدى ! أو : ياعمر ! أو نظيرها او ما هو أفحش منها من الكلمات الأنثوية التى تنطق بها النساء خلاعة وينطق بها الرجال تخنثا . ولا بد أن بشارا فى نطقه إياها بلغ أقصى اسرافه فى التثنى والتخلع ، ولا بد أن مستمعيه من رفاقه ضحكوا لها ضحكا شديدا .

فكيف يرد بشار على سؤالها ؟ بم ينصحها للخلاص من ورطتها ؟ كيف يهدىء جزعها ؟

قلت لها عند ذاك : يا سكنى   لا بأس ، أنى مجرب خبر

تسمع الفتاة هذا الكلام فيسكن روعها بعض الشىء ، ويشع فى وجهها بريق من الأمل ، وتقبل عليه مبتسمة من خلال دموعها تنتظر منه حلا عمليا ينجيها من المأزق حقا . ولكن ماذا تسمع ؟

قولى لهم : بقة لها ظفر !   إن كان للبق ما له ظفر

ليس فى الشعر العربى كله بيت يقارب هذا البيت قسوة وحقدا ، ينفس به بشار تنفيسا كاملا عن كراهيته للبشر وتشفيه منهم وعدم مبالاته بمصائبهم، تزيد فيه السخرية إلى الحد الكريه السام الذى يسميه الانجليز Cynicism .

تصور أولا خيبة أمل المسكينة وانهيار تفاؤلها حين تسمع رده وعودتها إلى التفجع والنحيب بأشد مما كانت عليه . فليس فى اقتراحه حل عملى . إذ ليس من البق ماله ظفر ، ومثل هذه العضة مستحيل أن تصدر عن بقة ، ولكن بشارا يريد بهذا البيت أن يقول : اغربى عنى لعنة الله عليك وعلى أمك وعلى أهلك وعلى البشر أجمعين . ماذا يهمنى جزعك أو يضيرنى مصابك أو يعنينى ماذا سيحدث لك ؟ بل أنا سعيد كل السعادة أن أتيح لى أن أنتقم فيك من هؤلاء البغضاء الذين طالما عذبونى وألحوا فى أساءتى واضطهادى .

فبشار يعلن بهذا البيت أقصى سخطه وحقده على معاصريه وعلى

الناس جميعا . فان قرأته فانطق به فى حرارة شديدة وسخط هائل ينفجر فى هذه الكلمة الغليظة « بقة » ثم فى جمعها « البق » . اقرأها بحيث تتخذ من حرف القلقلة المشدد منفجرا لسخط شديد مكبوت .

الحكم الخلقى والحكم الفنى

فما رأينا فى هذه القصيدة الزاخرة ؟

فلنفصل فى رأينا فيها بين حكمين مختلفين ، ولنبذل كل جهدنا فى التمييز التام بينهما : الحكم الخلقى ، والحكم الفنى .

أما حكمنا الخلقى فنقرره دون تباطؤ ولا نظن فيه مجالا للخلاف . فهذه قصيدة تامة الشناعة الخلقية ، يفخر قائلها بارتكابه جريمة لا نستطيع قبولها ولا نجد لها مبررا واحدا ، ومهما يكن الحاح الناس فى تعذيبه واضطهاده فهذا « لا يجيز » له أن ينتقم بهذا النوع من الانتقام ، فان كان يظن أنه يحملنا على الإعجاب به وبانتصاره فلن ينال هذا إلا من أخسنا وأتمنا استهتارا بالحدود الخلقية ، وسائرنا يسخط عليه أشد السخط ولا يرى فى مانجح فيه من إغراء براعة تستدعى الأعجاب بل تغريراً يستثير المقت . وهو كلما أطال فى التهكم على المسكينة وتقليد تفجعها بسخرية وتخنث لم يحملنا على الضحك منها أو الاستهزاء بها بل زادنا لها تحسرا وعليه سخطا . فهو فى غرضه هذا قد فشل فشلا تاما .

كذلك قد فشل فى غرض آخر . أن كان يظن أنه بهذه القصيدة يغرى الفتيان بتقليده فقد نسى أنه دون أن يدرى يلقى على الفتيات

درسا بليغا مخيفا يحذرهن من الوقوع فى حبائلهم ويبصرهن بالمهاوى التى تنتظرهن أن لم يفرطن فى الحذر والاحتراس فيقعن فيما وقعت فيه تلك التعسة من فخ منصوب . فهو من ناحية يهدم ما بناه من ناحية أخرى ، فالفتاة التى تقرأ هذه القصيدة وتفهمها فهما صحيحا وتكون حريصة على عفافها تجد فيها دروسا فى صون شرفها لا تماثلها فى نفعها الدروس التى تجدها فى كتب الأخلاق المدرسية التى توزع عليها وعلى زميلاتها فى مدارسهن . ولو كانت لى ابنة وبلغت سن المراهقة لعرفتها بهذه القصيدة وشرحتها لها شرحا تام الصراحة مدركا أننى بهذا أبصرها بحيل المغرين فأصونها بالطريقة الوحيدة المجدية من الوقوع فى شباكهم .

فالخطر الحقيقى على الفتاة ليس أن يهاجمها مهاجم فيغتصبها عنوة ، فهذا نادر الحدوث جدا ، بل الخطر الحقيقى أن تقع فى هذه الحبائل الماكرة التى تتدرج من إحداها إلى الاخرى دون أن تدرى إلام تقود أو تفطن إلى التطور البطىء من المرحلة إلى المرحلة ، فالذى يصون عفاف البنت ليس أن تحبس فى عقر دارها لا تخرج منه ، ولا أن يغطى وجهها بنقاب كثيف كلما خرجت منه ، فلا شك عندى أن فتاة بشار كانت تلقى هذا النوع من الصيانة الذى لا صيانة فيه . بل الذى يصون عفافها أن تبصر بحقائق الحياة وتشرح لها حيل الرجال حتى تفطن اليها وتحذرها ، ولكن هذا موضوع يخرج عما نحن بسبيله ولو حاولت علاجه لاحتجت إلى كتاب يماثل كتابى هذا فى حجمه أو يزيد .

* * *

ولكن ما رأينا فى القيمة الفنية للقصيدة ؟

هذه مسألة أصعب بكثير ، فان أردنا الانتهاء فيها إلى رأى ذى قيمة فيجب أن نحذر من خطأين يسهل جدا الوقوع فى أحدهما .

يجب أن نحذر ، أولا ، من أن نسارع من الرفض الخلقى إلى الرفض الفنى . فالفن - رضينا بهذا أو لم نرض - لا يحكم عليه فى مجال النقد الأدبى بمقاييس الأخلاق . بل المقياس الصحيح الوحيد فى مجال النقد الأدبى هو المقياس الفنى المحض ، هل يرضى شعورنا الفنى أو لا يرضيه .

ولكن يجب أن نحذر أيضا من الخطأ النقيض : أن نسرع ، فى فرط تحمسنا لحرية الفن وإصرارنا على إطلاقه من قيود الخلق أو تقاليد المجتمع ، إلى قبول هذه القصيدة بصرف النظر عن قيمتها الفنية وتأثيرها الجمالى . وهذا ما يفعله للأسف الشديد كثير من الشبان المتحمسين أول ما يحررون أنفسهم من النظر الضيق المتزمت ، يطيرون إلى النقيض فيقبلون كل ما فيه خدش للخلق ظانين أن كل ما ينفر منه الخلق فهو بالضرورة فن ! ولا يدرون أنهم بهذا يقعون فى هذا الخطأ المنطقى السخيف الذى يسمى « عدم استغراق الحد الأوسط » : الفن لا يتقيد بالأخلاق ، هذه القصيدة لا تتقيد بالأخلاق ، إذن هذه القصيدة فن ! أو ضع هذا الخطأ فى صورة منطقية أخرى : بعض الفن يخالف الأخلاق ، إذن كل ما يخالف الأخلاق فن !

فان فكرنا فى المسألة فى تؤدة وهدوء ، وحذرنا من الوقوع فى أحد الخطأين ، وحكمنا على الرائية بالمقياس الفنى وحده ، فإلام ننتهى ؟

أول ما نقر به للقصيدة هو قوتها التعبيرية ونجاحها التصويرى البالغ ، فهذا شاعر به إحساسات معينة ، وهو يريد أن يعبر عنها ويمثلها لنا حتى نفهمها فهما تاما ، وقد نجح فى هذا تمام النجاح ، بما اختار من وزن يطابق حالته الشعورية مطابقة عجيبة ، وبما فعله من تقسيم العبارات وتخير الألفاظ ، وباتقانه اعداد الجو ثم التدرج من مرحلة فى القصيدة إلى مرحلة تالية ، فهو فى هذا كله أبدى براعة لا مزيد عليها فى شعر شاعر ، لا فى الأدب العربى ولا فى أى أدب آخر نعرفه ويحق لنا الحديث عنه .

وربما يعتقد بعض القراء أن هذا هو كل ما يطلب من شاعر ، وأنه إذا نجح فيه فقد أدى رسالته الفنية ، أولا يتطلب من الشاعر أن يشعر شعورا صادقا ، وأن يعبر عنه تعبيرا صادقا ، وأن يكون تعبيره هذا من القوة والكمال بحيث يصور لنا عاطفته تصويرا تاما ؟

بلى ، هذا ما نتطلبه من الشاعر ، ولكن ليس هذا كل ما نتطلبه ، بل نحن نتطلب منه أيضاً أن تكون عاطفته هذه عاطفة فنية ، أعنى أن تكون عاطفة يقبلها الذوق الجمالى ويجد فيها القارىء امتاعا جماليا . فان كانت كذلك قبلنا قصيدته كعمل فنى ، أما أن نفر منها ذوقنا - نعنى ذوقنا الجمالى المحض ، لا ذوقنا الدينى ، أو الخلقى - فأننا نرفضها ، ويكون رفضنا هذا رفضا فنيا محضا .

وتعليل هذا أن ليست كل الأحساسات البشرية بصالحة موضوعا للفن ، بل منها ما يجب أن يتحاشاه الأديب وسائر الفنانين ، لا لأنه

يخدش شعورنا الخلقى ، ولا لأنه يضر بالمجتمع (فهذه اعتبارات لا تدخل فى موضوعنا الحالى) ، بل لأنه يخدش شعورنا الذوقى ، أعنى أنه يثير فينا اشمئزازا جماليا ، فنجده قبيحا .

ولا فائدة فى شرح هذا الحكم من أن أطيل فى المناقشة النظرية ، كما تفعل كتب قواعد النقد الأدبى وكتب الدراسات الجمالية ، فهذه المناقشة النظرية قليلة النفع للقارىء ، وخصوصا إذا كان غير متقن لأدب أجنبى واحد على الأقل . بل خير ما ألجأ اليه هو أن أضرب له مثالا . فان وافقنى القارىء على ضرورة المثال فلا يجزعن أذن أن وجده مثالا قبيحا ينفر منه ذوقه ، فلست أستطيع أن أمثل على التجربة القبيحة بمثال جميل ، ولا حاجة لى بعد هذا التنبيه إلى الاعتذار .

افرض أن رساما بارعا رسم صورة رجل يجلس على المرحاض ويعانى عسورة الأخراج . وأفرض أن هذا الرسام أجاد إجادة تامة فى رسم عضلات وجهه وجحوظ عينيه وتشنج كتفيه وتساقط العرق من جبينه . حتى صار رسمه هذا صورة تامة الصدق لما يحدث فى الواقع ، ونجح نجاحا تاما فى حكاية التجربة الإنسانية التى يريد تصويرها . فهل تظن هذا وحده يكفى لجعل صورته قطعة فنية يقبلها الفن فى دائرته ؟ وهل تقبل احتجاجه لو احتج بأن هذه تجربة صادقة ، وبأنه صورها تصويرا صادقا ، وبأن تصويره تام الأجادة فى التعبير ؟ .

من هذا المثال تتضح للقارىء حقيقتان : أولاهما أن بعض التجارب البشرية لا تصلح موضوعا للفن ، وثانيتهما أن نفورنا عن تمثيل هذه

التجارب ليس نفورا خلقيا ، بل هو نفور جمالى . وهذا المثال يثبت هاتين الحقيقتين بما يغنينا عن انفاق صفحات طويلات فى المناقشة النظرية .

فلنعد الآن إلى الرائية . نسلم بأن بشارا نجح نجاحا تاما فى تصوير عاطفته وتجسيم التجربة التى يصفها ، وهى تجربة صادقة وقعت له حقا ، ولكن بقى أن نسأل : أهذه عاطفة يقبلها الفن ؟ أم هذه تجربة تدخل فى حدوده الفنية المحضة فتثير فينا متعة جمالية ولا تثير كراهة ذوقية ؟

هذا رجل يصف إغراءه لفتاة عذراء قليلة التجربة ضعيفة الحول، ويصف دهاءه فى اتخاذ الخطوات إلى إغرائها والتدرج فى إثارة شبقها حتى يتغلب على رهبتها وخوفها ، ولو اقترن وصفه هذا بشىء من الحب للفتاة والعطف عليها لربما قبلناه ، ولكنه لا يعطف عليها إطلاقا ، بل هو فرح بمصابها شامت فيها ، وهو يقلد تفجعها وحسرتها بأسلوب بالغ التهكم فظيع التخنث ، لا يدل على شفقة أو رثاء بل يعبر عن قسوة هائلة وحقد مريع . وهذه كلها عواطف إذا اجتمعت صارت شديدة الأيلام لنا زائدة الجرح لشعورنا ، لسنا نعنى الجرح الخلقى وحده ، بل الجرح الفنى أيضا .

فسر إيلامها الفنى هو اجتماعها وتعاضدها على إيذائنا حتى تصل حدا لا يطاق ، ولو كانت كل منها بمفردها فى قصيدة لربما استطعنا قبولها .

قد نقبل قصيدة يفخر فيها الشاعر بنجاحه الغرامى بل يفخر بإغرائه فتاة عفيفة ، ونحن نقبل فعلا قصائد من هذا النوع لشاعر عربى آخر، هو عمر بن أبى ربيعة . ولكن عمر فى قصائده هذه يعبر عن حب

حقيق لفتياته وعطف شديد عليهن وجزع صادق لمأزقهن وأن يكن هو سببه .

وقد نقبل قصيدة يعبر فيها الشاعر عن سخطه على الناس وكراهيته للبشر ، ونحن نقبل فعلا قصائد من هـذا النوع لأبى العلاء . بل قد نقبل قصيدة يزيد فيها الـكره إلى حد تمنى الأذى للبشر والدعوة إلى الانتقام منهم والبطش بهم ، ونحن نقبل فعلا قصائد من هـذا النوع للمتنبي . ونقبل أيضا قصائد للجاهليين يتم فيها هذا الانتقام من الأعداء ويفرح الشاعر به ويتشفى فيهم .

أما حين تجتمع كل هذه العواطف فى تجربة واحدة فانها أمض من أن نطيقها . لذلك نرفض الرائية حتى إن حكمنا عليها بالحكم الفنى وحده .

ويعززنا فى هذا الرفض اعتبار آخر هام جدا ، وهو أيضا اعتبار فنى محض : أن بشارا أخفق فى أن يثير فينا المشاركة العاطفية له .

فهدف الفن ليس أن يصور عاطفة الفنان فقط ، بل أن يحمل قارئه أو سامعه أو ناظره على أن يشارك الفنان عاطفته ، فيفرح لفرحه ، أو يألم لألمه ، أو يزهو لزهوه . أو يسخط لسخطه . وهـذا غرض أخفق بشار فى الوصول إليه إخفاقا تاما ، فلا نحن نعجب بمهارته فى الاغراء ، ولا نحن نسخر بالفتاة كما يريد منا أن نسخر بها . بل النتيجة الوحيدة لمحاولته هى أن نسخط عليه هو وننحاز إلى صف الفتاة انحيازا تاما لا استثناء فيه. والأديب الذى يعجز عن أن يثير فينا نظير عاطفته ، ولا يكون سبب العجز ضعف بصيرتنا الأدبية أو قلة مراننا النقدى ، قد أخفق فى أن ينتج أدبا .

الجانب الثانى : نور

الرائية وظلها الـكثيف

أخشى أن أكون بدراستى المصارحة للقصيدة الرائية قد هدمت على نفسى كل ما بنيته سابقا من حمل القراء على مسامحة بشار والعطف عليه ، فقد اضطرنى واجب الصدق النقدى إلى الـكشف عن كل قسوتها ، لم أخف منها شيئا .

ولست ألوم القارىء الذى تؤلمه الرائية فيضيق بصاحبها ويسخط عليه ويهم بأن يرتد إلى رأيه السابق فيه من الذم الخالص والأدانة الـكاملة . وأنا ما قرأتها إلا كدت أفعل ذلك . ولـكننا يجب ألا نسمح لسخطنا من قصيدة واحدة بأن ينسينا كل ما استكشفنا من الحقائق ، سواء فى تفهم نقائص بشار واستطلاع أسبابها ، أو فى تجلية جوانبه الخيرة الهامة ، وإلا أفسدنا الصورة الصحيحة العميقة الشاملة التى كوناها عن شخصيته وعدنا نتحدث عنه كما يتحدث سائر الناس الذين يكتفون بالنظر إلى عيوبه نظرا سطحيا لا يتعمق أصولها .

مهما تؤذنا الرائية فيجب قبل أن نصدر حكمنا النهائى على بشار أن نسكن من غضبنا ونستعيد هدوءنا ونعود إلى التفكير فيه وفى حياته تفكيرا شاملا واسعا لا يطغى عليه انفعال واحد ناشىء عن تجربة

واحدة. ولسنا نعنى الآن وجوب العطف والتسامح فى الدراسة الأدبية ، بل القاضى المحايد نفسه لا ينطق بحكمه وهو فى حالة عاطفية هائجة ضد المتهم ، ولو فعل لما كان حكمه الذى يصدر عنه فى هذه الحالة حكما عادلا ، بل هو يرغم نفسه على الهدوء والتروى وضبط الشعور مهما تكن جريمة المتهم من الشناعة ، بل كلما زادت شناعة الجريمة زادت حاجته إلى ضبط شعوره وتهدئة انفعاله . هذا ما يفعله القاضى المحايد التام الحياد فلا أقل من أن نكون مثله .

لا بد أولا من أن أنبه القارىء إلى أنه ليس فى كلامى الذى سيلى أى محاولة فى التخفيف من شناعة الرائية أو التهوين من قسوتها البغيضة وحقدها المذموم . ولا فيه أى محاولة لتبريرها بأى عذر من الأعذار . لن أحاول أن أخفف أو أهون ولن أحاول أن أبرر، ولكنى سأحاول أن « أفهم » . هذا كل ما سأفعله وهذا كل ما يعنينى .

فالحق أن ليس فى هذه القصيدة ما يدعونا إلى تغيير رأينا الذى كوناه عن بشار بعد ما مضى من الدراسة المتمهلة المستوفية. صحيح أنها تطلعنا فى بشار على قسوة مفرطة وكره للبشرية زائد ، ولكن لا تزال الحقيقة فى هذا الكره وتلك القسوة ما قررناه من قبل ، أنهما صفتان مكتسبتان وليستا خصلتين أصيلتين .

بشار لم يكن شريرا فى جبلته ولا قاسيا حقودا بطبيعته ، بل الذى أثار فيه شره وقسوته وحقده على الناس ظروف مجتمعه وتجارب سيرته التى فصلنا الحديث عنها ولا نريد أن نكررها هنا . فليتأمل القارىء

فيها مرة أخرى وليذكر نفسه وهو يقرأ الرائية بأن الناس قد جلبوا على أنفسهم هذا الشر بسلوكهم نحو بشار .

بل الرائية نفسها تثبت ما نقول . فالقارىء وقد درسها دراسة متملية قد تبدى له أن إفحاشها غير مقصود لذاته ، بل للانتقام . فما فيها من أسراف فى القسوة متعمد ، أعنى أنه ليس صادرا صدورا طبيعيا عن نفسه. بل هو الذى أرغم نفسه عليه مبالغة فى الانتقام والمكايدة. فلا بد أنه حين قالها كان فى أزمة نفسية حالكة السواد . فالقصيدة إنما تدل على هذه الحالة الوقتية ولا تدل على عموم نفسيته أو إجمال سيرته، اللهم إلا إذا وجدنا له شعرا آخر كثيرا من هذا النوع، وهذا ما لا نجده.

نستطيع إذن أن نعود فنكرر — وإن كان أغلب ظننا أن القارىء سيصعب عليه الآن أن يقبل كلامنا — أن بشاراً فى دخيلة نفسه وأصيل طبعه كان انسانا طيب القلب به استعداد للرحمة وتهيؤ للخير ، فإن كان قد انتهى إلى ما انتهى اليه فلسنا نريد أن نزعم أنه ليس ملوما، بل نريد أن نقرر أنه لم يكن وحده الملوم . بل هو برغم كل ما قاسى ظل إلى آخر أيامه محتفظا بنصيب عظيم من هذه الطبيعة الخيرة ، تجلى لنا فى نواحيه المضيئة العديدة التى استجليناها فى القسم الماضى من هذا الكتاب .

وهنا تتبدى لنا - مرة أخرى - الروعة الحقيقية لهذه النواحى المضيئة ، وهى أنه احتفظ بها برغم كل ما اجتمع عليه من ظروف خليقة بأن تبتعث فيه القسوة والحقد والشر العظيم . فالرائية لا تغطى على هذه النواحى المضيئة ولا تكسفها، بل تزيدها بالمقارنة تألقا وبهاء .

فنفس الرجل الذى اضطره مجتمعه إلى ما رأينا فى الرائية من الفساد والاجرام ، استطاع مع ذلك أن يظل بارا بأهل بيته ، محبا لأصدقائه عطوفا عليهم عظيم المودة لهم ، كريما سخى الكرم عليهم وعلى غيرهم ، حنانا رقيق القلب نحو بعض المحيطين به وإن لم يكن نحو جميعهم ، آخذا نفسه فى كثير من الأحيان بالصبر والعفو والأعراض ، فكها حلو الحديث لذيذ المسامرة ، بل قد احتفظ بفكاهته الجيدة حتى الساعات الأخيرة من حياته ، وهذا كله يرغمنا على التساؤل مرة أخرى: ترى ماذا كانت تكون حاله لو عاش عيشة أسعد ولقى معاملة خيرا مما لقى .

ولكن دعك من هذا السؤال النظرى وعد إذا شئت إلى الرائية نفسها ، مهما يكن فسادها وإيلامها ، أفتستغربها من رجل لقى ماذكرنا من المحن والآلام ، وعانى ما وصفنا من الاساءة والاضطهاد ، وذاق ما سجلنا من نكد الطبيعة ونكد البشر ؟ لعلك إن فكرت فى هذه المسألة انتهيت إلى هذا الرأى : ليس الغريب أن بشارا نظم هذه القصيدة القاسية ، بل الغريب أننا لا نجد فى شعره سواها من نوعها .

هذه هى الحقيقة التى أريد الآن أن ألح فى تنبيه القارىء إليها ، ليس الغريب أننا نجد فى شعره هذا السهم المسموم ، بل الغريب أننا لا نجد فيه سهاما كثيرة مثله . ولقد وجد كارهون للبشر سددوا إلى قلب الانسانية سهاما أكثر عددا ، ولم يكن لهم معشار أسبابه فى بغض البشرية ، لا من العاهات الطبيعية ولا من الظلم الانسانى .

للقارىء أن يوافقنى على ماقلت فى مناقشتى الماضية ، وله أن يخالفنى ، ولكنه لا يستطيع أن ينفى هذه الحقيقة التى ذكرتها ، أن رائية بشار فريدة فى شعره ، فمهما يكن حكم القارىء عليه فى هذه القصيدة ، فالواجب أن لا يدعها تغطى على سائر شعره ، وألا يقبل على هذا الشعر متأثرا بهذه القصيدة .

وهذا للأسف الشديد ما فعله نقادنا . فقد سممت عليهم الرائية نظرتهم فى سائر غزل بشار ، فلم يروا فيه إلا ما وجدوه فى الرائية من العنف الحيوانى والانتهاك الوحشى ، فحكموا بأنه كان كذلك فى جميع علاقاته مع جميع النساء ، وتبعهم - بطبيعة الحال - سائر المدرسين والدارسين فى هذا الظن ، والحق أنهم وقعوا فى خطأ منطقى بسيط . وهذا هو الخطأ : بعض شعر بشار شنيع . هذا شعر لبشار . إذن هذا شعر شنيع .

ولكنى لا أريد أن أتجنى عليهم ، فما سميته خطأ منطقيا بسيطا هو حقا خطأ بسيط ، ولكن الذى أوقعهم فيه حالة نفسية عظيمة الاضطراب شديدة التعقد ، وكذلك الشأن فى معظم أخطائنا المنطقية . إنما تبدو لنا بسيطة إلى درجة السخافة حين نضعها فى القالب المنطقى ، ولكننا فى حياتنا المرتبكة الانفعالات المعقدة العواطف لا نفكر فى معظم المسائل فى حدود القوالب المنطقية ، فهم قد رأوا لبشار قصيدة هاجت فيهم أتم بغضهم وأشد استشناعهم ، فحكموا بأن قائلها لا بد أن يكون على نصيب معادل من الفساد والشر ، ثم حكموا بأن مثل هذا الفاسد الشرير مستحيل عليه أن يكون فى أى مجال آخر طيبا رقيقا . وحالتهم

النفسية هذه نعذرهم عليها بل نوافقهم فيها ، ولكن أحكامهم التى نجمت عنها تامة الخطأ . فنعود نحن فنقول : بلى ، نفس الرجل الذى تصدر عنه هذه القسوة قد تصدر عنه آيات الحنان والرحمة فى مجال آخر ، فالعواطف الإنسانية المتناقضة تتراوحنا جميعا ، وما أكثر الرجال المتعففين الذين تنطق ألسنتهم أحيانا بهجر القول ورفث الحديث ، وما أكثر الذين يقسون على بعض الناس قسوة مفرطة ويرقون على بعضهم الآخر رقة مفرطة ، فوجود خصلة فى بعض الأحيان لا ينفى وجود نقيضها فى أحيان أخرى ، وقد قرأت من شهور قليلة عن رسام انجليزى كانت حالته مشابهة ، فله رسوم دينية غاية فى الطهارة والنقاء ، والناس لا يعرفونه إلا بها ولا يتحدثون إلا عن دينه وطهره وفضيلته ، فلما مات عثر أحد أصدقائه المقربين بين أوراقه على رسوم جنسية فظيعة الإفحاش !

ولكن بشارا لنحسه قد حدث له العكس ، فرائيته قد ألقت على شعره ظلا كثيفا شديد الحلكة ، لم يستطع الناس من خلاله أن يتبينوا فى أى غزلية أخرى له عاطفة رقيقة أو حبا مخلصا أو حنانا وادعا ، فان وجدوا فى غزله عذوبة لا يستطيعون انكارها ونغمة رقيقة لا يمكنهم تجاهلها قالوا هى عذوبة الخليع وسلاسة المتهتك الخبير الذى لا يقصد سوى أن يسهل شعره على الألسنة حتى يذيع وينتشر فيعم فساده بين الشبان والنسا . .

والحق أن هذا التعليل لرقة غزل بشار شديد الخطأ ، فالذى يستطيع أن يزيل عن غزله ذلك الظل الكثيف الذى ألقته عليه رائيته سيرغم

على أن يعترف بأن ما فيه من عذوبة ظاهرة ورقة بادية ليس متكلفا لمآرب عملى لا صلة له بينابيع الشعر ومصادر الفن ، بل هو ينبع عن نفسية عظيمة الحنان زاخرة الحب ، ويصدر عن قلب رقيق يهتز للجمال اهتزازا شعريا لا عن جسم يهتز له مجرد اهتزاز حيوانى . فلتلك الرقة اللفظية حلاوة صافية وعذوبة خالصة مستحيل أن تكونا صدرتا تكلفا عن وحش مفترس يلبس قناع البشاشة والابتسام ، أو أن تكونا نبعتا عن قلب صخرى صلد هو فى صميمه مغلق أمام عواطف الإنسانية الرحيمة ولكنه يتصنع الرقة ليخادع الناس ويفترس الضحايا ، وكل ما تحتاج اليه لاستجلاء هذا الضياء المنير فى سائر غزل بشار هو أن تزيح عنه ذلك الظل الكثيف الذى وصفناه . وهو عبء أكلف القارىء به وأنا أعرف جد المعرفة مبلغ صعوبته ، ولكنه شرط لا مناص من استيفائه أن أراد أن يحسن دراسة شعره ، فليحاول جهده وليكرر المحاولة ولينظر ماذا يرى .

صبيـــة

تأمل فى هذه القصيدة :

عجبت فطمة من نعتى لها   أيجيد النعت مكفوف البصر ؟

بنت عشر وثلاث قسمت   بين غصن وكثيب وقمـــر

درة بحـــرية مـــكنونة   ما زها التاجر من بين الدرر

أذرت الدمع وقالت ويلتى   من ولوع الكف ركاب الخطر

أمتا بـــدد هـــذا لعبى   ووشاحى حله حتى انتثر

فدعيني معه يا أمتا   علنا في خلوة نقضي الوطر
أقبلت مغضبة تضربها   واعتراها كجنون مستعر
بأبي والله ما أحسنه   دمع عين يغسل الكحل قطر
أيها النوام هبوا ويحكم   واسألوني اليوم ماطعم السهر

وإنما بدأناك بها لأنها قد تكون أشد قصائده تأثرا بظل الرائية الكثيف، فإن استطعت نفي هذا الظل عنها واستجلاء رقها وحلاوتها وظرف دعابتها سهل عليك باقي غزله فربما رأيت فيه رأينا .

فهنا أيضا أنثى تبكي وتذرى الدمع، وتشكو قسوة بشار عليها. وفي هذه القصيدة - وهي أيضا رائية! - حل للوشاح بل فيها ضرب عنيف. ولكن ما أعظم الخلاف بينها وبين الرائية السابقة! هذه في واد وتلك في واد. هذه نسمة من نسائم السعادة والرضى وتلك لفحة من لفحات الجحيم. فهذه الرائية الجديدة مرحة طروب لاهية، فيها نشوة حلوة لا مرارة فيها ومداعبة لا تصل حد الغلاظة والجهامة ومكر صبياني لم يتحول بعد إلى دهاء قاس مسموم .

وأول ما يجب أن تعرفه أنها من أول شعره في الغزل، فقد نظمها في صباه أو حين بدأ يدخل في عصر شبابه، ولم يكن الناس قد أطالوا بعد في تعذيبه، ولم يكن اضطهادهم إياه قد أوصله بعد إلى نهاية سخطه وحقده، ولذلك لا تجد فيها كرها للناس ولا نقمة عليهم، بل تجد رضى عن الحياة ومسالمة واستبشارا ومرحا، فالقدماء يقولون أنه نظمها في حبه الأول، والقصة التي تقصها القصيدة هي أنه لاعب صبية في الثالثة عشرة من عمرها فكان بينهما ما يكون بين الصبيان المتلاعبين

من مخاصمة ينسونها في صبيحة اليوم التالي. فبشار يصف افتتانه بها، بجمالها الطاهر البرىء وبسذاجتها الصبيانية المضحكة .

فان أردت أن تدرس هذه القصيدة لترى أصحيحة أحكامي هذه أم خاطئة، فلنبدأ بأن نتفق على حقيقة لا أظن فيها مجالا للخلاف: رقتها اللفظية العظيمة وما فيها من سلاسة عذبة. أفتخفي هذه الرقة قلبا غليظا أم تمتزج هذه العذوبة بسم نقيع؟ فلنتأمل أبياتها بيتا بيتا حتى نحقق هذه المسألة .

عجبت فطمة من نعتي لها   أيجيد النعت مكفوف البصر

يريد بهذا البيت أن يصور سذاجتها الناشئة من صغر سنها وضحالة فكرها، تسمع شعره في وصفها فتتعجب في حيرة شديدة من استطاعته وصفها وهو لا يستطيع أن يراها، لا تدرى أنه يستطيع أن يكوّن عنها في مخيلته صورة محببة جميلة مشتقة من استماعه لوصف الناس لها وفهمه هذا الوصف بترجمته إلى خياله الخاص، ومن إحساساته التي يتلقاها هو عنها عن طريق السمع. والشم، واللمس، يسمع صوتها الحلو البرىء، ويشم رائحتها العبقة الزكية، ويلمس في ملاعبته إياها جلدها النضر الرقيق، فيكوّن من امتزاج هذه الاحساسات، مضافا إليها الأوصاف العينية التي يسمعها ممن يرونها، صورة عن جمالها وعن شخصيتها تحببه فيها، فليس البصر هو طريق المعرفة الوحيد، ولكن أنى لهذه الصغيرة أن تعرف ذلك؟ فدهشتها في هذا البيت دهشة صبيانية حلوة تعجبنا بسذاجتها اللطيفة، وبشار حين يهزأ منها فهو

الضحك الممتزج بالحنان والأعجاب الذى يضحكه أحدنا حين يرى
تصرفا سخيفا من طفل له ، لا يصل درجة السخرية الأليمة أو التهكم
المر الذى وجدناه فى وصفه لحيرة الفتاة الأخرى كيف تخفى أثر العض
فى شفتها ، وتحويله لاسمها من « فاطمة » إلى الصيغة العامية « فطمة »
غاية فى الظرف ، وهو أيضا ناجم عن الحب والتدليل .

بنت عشر وثلاث قسمت   بين غصن وكثيب وقمر

هذا بيت راقص التنغيم ذو موسيقية مرحة . قسم كلماته تقسيما
ماهرا بحيث تستقل كل تفعيلة من التفعيلات الست ولا تندمج إحداها
فى الأخرى ، حتى تستطيع إذا تغنيت فى البيت أن تقف وقفات خمسا
فى خلاله تطلق فيها صوتك بالترجيع وتنوعه فى ألحانه كما تشاء بين
علو وهبوط واستئناف ومجاوبة : بنت عشر - وثلاث - قسمت -
بين غصن - وكثيب - وقمر . والتنوينات الأربع تسمح لك بترديد
الصدى حتى تربط بين جميع أنغامك ، وتسمح للمغنين الذين جاءوا
إلى هذا البيت فوضعوا فيه ألحانهم أن يستعملوا آلاتهم الموسيقية
لتجاوب أصواتهم البشرية . وكأن بشارا حين يقول إنها بنت ثلاث
عشرة سنة يعتذر عن سذاجتها فى البيت الماضى . ولكنك لا تقدر
جمال البيت تقديرا تاما إذا نظرت إلى تقسيمه إياها بين الغصن والكثيب
والقمر بالنظرة التى ينالها منا من يستعمل هذا الأسلوب فى يومنا هذا
من شعرائنا المعاصرين ، فهذا معنى قد ابتذل الآن لكثرة ما تعاوره
الشعراء وقلبوه ، أما فى عصر بشار فكان لا يزال جديدا ظريفا لما

تبتذله كثرة الاستعمال ، فانظر إليه نظرة معاصريه فلابد أنهم أعجبوا
بظرفه . وكذلك فى قراءتك لكل الشعر القديم جاهليه وأمويه حاول
أن تعثر على المعدن الأصيل الصادق الذى لم يرخص بعد بكثرة تداول
الأيدى له فى موضعه وفى غير موضعه . فان قرأت مثلا قول زهير
عن تنازع المها والدر والظباء فى شبه المحبوبة فتخيل دهشة معاصريه
وافتتانهم بهذا الأسلوب الطريف الغريب .

درة بحرية مكنونة   مازها التاجر من بين الدرر

وهذا أيضا وصف أصيل لم يكن قد ابتذل بعد ، فالذى يستعمله
فى ذلك العصر ليس بالضرورة مقلدا كاذبا كالذى يستعمله فى عصرنا
وهو لم ير فى حياته درة ولم يضمها بين أصابعه . وهو بيت يتلألأ تلألؤ
الدرة وتتراقص أنغامه تراقص أضوائها ، ويعبر عن عاطفة صادقة
أحسها بشار أمام تلك الصبية . فما هذه العاطفة ؟ ليست الحب وحده ،
ولا الاعجاب وحده ، بل الأجلال ، يراها درة مكنونة ، أى يراها
أنثى طاهرة الأنوثة لم تدنس طهارتها ولم تسترخص نفاستها ، فتبتعث
أنوثتها الطاهرة منه الخشوع والانبهار .

أذرت الدمع وقالت ويلتى   من ولوع الكف ركاب الخطر
أمتا بدد هذا لعبى   ووشاحى حله حتى انتثر

بهذين البيتين يبدأ القارىء فى مواجهة الصعوبة الشديدة التى يلقاها
كل من يحاول أن يقبل على غزله إقبالا نزيها لا يتأثر بفكرة سابقة
كونتها آراء الآخرين أو دراسة الرائية الأولى (التى نظمها بعد مايقرب

من نصف قرن من نظمه للقصيدة الحالية !) فلنفرض أن القارىء نجح فى محاولته هذه فلم ير فى البيتين إلا ما فيهما وحدهما . فماذا يجد فيهما ؟ ما القصة التى يقصانها ؟

القصة أن بشاراً الفتى كان يلاعب هذه الصبية. ولسنا نريد أن ندعى أن ملاعبته كانت رقيقة ناعمة، بل كانت فيها خشونة ، ولكن ما أبعدها عن خشونة الرائية الماضية ! تلك كانت خشونة الذكر الهائج المغتصب ، وهذه لا تزيد على ذلك القدر من الخشونة الذى تجده فى ملاعبة جميع الصبية . فقد بعثر لعبها التى كانت تلهو باللعب بها ، فهبت صائحة به تلومه وتحاول منعه ، فتجاذبا تجاذب الصبيين المتشاجرين ـ لا تجاذبا آخر ـ فانحل فى هذه « الخناقة » وشاحها . فهذا كل ما يدل عليه حل الوشاح فى هذه الحادثة . سيبادر القارىء بأن يسأل: ولكن ما معنى « ولوع الكف ركاب الخطر » ، وما معنى « نقضى الوطر » فى البيت الذى يلى ؟ وهذا سؤال سنتأمل الجواب الصحيح عليه بعد قليل ، ولكن لا بد أولا من أن نتابع القصة لننظر ماذا حدث بعد ذلك . الذى حدث أنها ذهبت باكية تشكو إلى حاضنتها . فهذه أيضا أنثى تذرى الدمع وتندب وتصيح، ولكن ما أعظم اختلاف هذا الموقف عن موقف الأخرى ! هذه دموع لا حرارة فيها ، دموع لاهية لا تعرف الكوارث الحقة فى الحياة، دموع الصبيان سرعان ما تجف وتحل محلها ابتسامة الرضى وتألق العين بالحبور واستئناف المرح والأقبال على الحياة ، فهى دموع لا تثير فينا حزنا ولا سخطا ، بل تحملنا على الضحك ثم العطف والحنان ثم شىء من الحسد نحسده هؤلاء

الصبية الأغرار الذين لم يتجرعوا بعد من الحياة ما يجلب إلى عيونهم الدمع المرير المحرق ، والذين أقصى مصابهم أن تنحطم دماهم أو تتمزق ملابسهم ، فنتذكر أيام كنا نحن أيضا لا نعرف من نقمة الحياة ونقمة الناس إلا هذا القدر الهين .

تفر الصبية إلى حاضنتها صائحة شاكية . ولكننا نعرف أن صياحها وشكواها ليس الشأن فيهما الا كسائر الصبيان ، سرعان ما تنسى وتريد العودة إلى بشار لتلاعبه ، ولكن يحدث ما لم تكن تتوقعه ، وهو أن أمتها تحرم عليها العودة إلى ملاعبته . وهنا نستكشف سر « ولوع الكف ركاب الخطر » وسر « فى خلوة نقضى الوطر » .

فهاتان جملتان لم تصدرا عن الصبية ، بل ينسبهما بشار اليها . وهو لا ينسبهما إلا بعد انتهاء « الخناقة » حين بلغه غضب الأمة وتحريمها على الصبية أن تعود اليه ، ولا يدفعه إلى ذلك إلا رغبة أن يغيظها ويزيد من غضبها ، وأن يضحكنا من هذه العجوز الحمقاء الغضبى التى تضرب الصبية على غير ذنب جنته ولسبب لا تستطيع أن تفهمه ، وهنا يجب أن نقف ونجتهد فى استكشاف ما حدث حقا لا ما يدعى بشار حدوثه حين ينسب إلى الصبية الجملتين الماضيتين .

الذى حدث هو هذا : عادت الصبية إلى حاضنتها تنوح وتبكى ، فقصت عليها ما فعله بشار . وما فعله لم يكن سوى تهارش الصبية ليس من ورائه قصد سىء . ولكن الحاضنة لا تسلم بهذا ، بل تظن فيه الظنون ، وتفسره تفسيرا سيئا، فتغضب لهذا غضبا شديدا، ونظير هذا يحدث كثيراً فى

قرانا حتى اليوم ، تعود الصبية من ملاعبة بريئة مع فتى فى القرية ، فتثور فى نفس أمها أو أخيها الظنون السيئة ويحاولان منعها من مثل هذه الملاعبة فى المستقبل . فلما غضبت الأمة لم تجد أمامها من نصب عليه غضبها سوى الصبية البريئة المسكينة ، فتلومها لوما قارصا . وتحرم عليها أن تعود إلى بشار أو تلاعبه بعد اليوم . فتدهش الصبية الجاهلة دهشة بالغة من هذا الانفعال الذى لم تتوقعه والذى لا تفهم له سببا . وتنسى فى الحال ما آذاها به رفيقها فتنتصر له وتسأل الأمة أن تدعها تعود إليه ، وتسألها وتلح فى سؤالها لم تمنعها من لقائه ، فتزداد العجوز غيظا لأنها لا تستطيع مصارحتها بالسبب الحقيقى لغضبها وهو سوء ظنها بغرض بشار ، وإلا نبهتها إلى حقائق الجنس التى لا تزال عنها غافلة ، فحين تلح الصبية فى سؤالها وتعلن تمردها على حكم لا تفهمه ، لا تتمالك الحمقاء غيظها فتقبل عليها بالضرب الشديد الخانق ، فتبكى الصبية أمر بكاء يعرفه الأطفال ، وهو حين يأخذهم الكبار بذنب لا يعرفونه ويرون منهم تصرفا قبيح الظلم لا يفهمون له مبررا .

وتبلغ القصة بشارا فيضحك ضحكا كثيراً ويسر من محنة تلك العجوز الحمقاء ، فيعمد إلى نظم قطعته ويتعمد فيها أن يزيد من غيظها بأن يدعى أن قصدهما من الملاعبة كان حقا ما تتوهمه الأمة بسوء ظنها . والدليل على أن هذا مجرد ادعاء منه أنه ينسب إلى الصبية مالا يمكن أن تكون قد قالته . فحين يقول :

أذرت الدمع وقالت ويلتى   من ولوع الكف ركاب الخطر

فهو ينسب إليها تعبيرا لفظيا غامزا إلى مغزى لم تكن تفهمه ، ويركب الكلمات تركيبا كانت عاجزة عنه . وحين يقول :

فدعينى معه يا أمتا   علنا فى خلوة نقضى الوطر

فالشطر الأول كلامها بلا شك ، ولكنه يأبى إلا أن يتمه بكلام يخترعه هو وينسبه إليها ، فمستحيل أن تكون قد قالت لأمتها الشطر الثانى أو ما فى معناه ، ويبعد جدا أن تكون قد فهمت بعد المغزى الحقيقى لقضاء الوطر فى الخلوة ، إنما هو الذى ينسب إليها هذا الأسلوب ليزيد من حنق الحاضنة . فاذا يفعل ذلك يثير ضحكنا الشديد من هذه العجوز الرعناء المجنونة حين يقول :

أقبلت مغضبة تضربها   واعتراها كجنون مستعر

ولكن ضحك بشار وسروره من حنق الأمة ليس قسوة خالصة بل يخالطه حنان على الصبية وحزن لما أصابها ، يبدو فى هذا البيت الجميل الذى لم نجد له مثيلا فى الرائية الأخرى :

بأبى والله ما أحسنه   دمع عين يغسل الكحل قطر

يزداد بها حبا ولها حنانا وعطفا حين يرى دمعها أو يتصوره ، وإن كان لا يملك أن يضحك من هذا « الفصل » ، فشأنه شأن الأب يرى طفله الصغير يتعثر فيقع فيبكى ، فيضحك من خطاه المضطربة ومشيته السخيفة ولكن ضحكه مقترن بالحب والعطف والأسى لجزعه الطفولى ، لا شماتة هنا ولا تشفى . فقارن بين استجابته لدمع هذه الصبية واستجابته لدمع الأخرى . . .

ثم يختم قصيدته ببيت ظاهره الحزن :

أيها النوام هبوا ويحكم   واسألونى اليوم ماطعم السهر

وفيه حقا نصيب من الحزن ، ولكنه ليس حزنا خالصا ، بل يمتزج به قدر كبير من البشاشة والنشوة والتفاؤل ، يتضح فى طرب موسيقيته وأريحية تنغيمه ، فشأنه شأن الحزن الرومانتيكى ، لا يخلو من تلذذ وعذوبة .

* * *

هذه هى القصيدة التى قلنا أنها أشد غزله وقوعا تحت ظل الرائية البغيضة ، ولذلك لم ير فيها نقادنا إلا ما فسروه على حسب فكرتهم المستمدة من تلك ، وهذا خطأ أقل ما يقال فيه أنه يخلط بين فترتين من حياة بشار يفصلهما ما يقرب من نصف قرن . لست أدعى أن معظم القراء سيرون فيها رأيى من القراءة الأولى ، ولا من القراءة الثالثة ، فانها قد تحتاج إلى تأمل ومحاولة مكررة حتى يستطيعوا أن ينظروا فيها نظرة لاترى فيها ماليس فيها ، ولكن دعنا الآن نستكشف فيها شخصية بشار حين قالها ، فان نجحنا فى هذا كان نجاحنا قيما ، لأننا بذلك نرى شخصية بشار كما كانت فى أول شبابه قبل أن تتكالب على تغييرها ظروف حياته وأحداث سيرته فتدمغها بالطابع الذى رأيناه فى آخر أيامه .

فأول ما يجب أن نبادر بتسجيله هو أن بشارا لم يكن قط إنسانا ناعما ضعيفا ، بل كان به منذ البداية ـ بطبيعة تكوينه ـ قدر من العنف والحدة والميل إلى المشاكسة ، يتجلى فى مداعبته الخشنة للصبية ، ولكن

هذا ما أقررنا به ، لم ندع قط أنه كان ملكا وديعا . ولكن لولا ظروف بيئته لما زادت هذه الصفات عما نجده فى الكثيرين من الرجال من عنف الذكورة وحدة النفسية والجرأة والاقتحام ، فالعنف والحدة قد تخفى تحتها رقة وجدانية وطيبة قلب ، ولما اتخذت قالبها الشرير الطاغى الذى انتهت إلى تلبسه .

وثانى ما نسجله عليه أن به نزوعا إلى الانتقام ومقابلة الخصومة بالخصومة ، يتجلى هذا فى تعمده أن يزيد من غيظ الأم وإيغار صدرها بما يدعى أن الصبية قالته ، وقد كانت هذه الصفة فيه السبب الأعظم فى تكاثر مصائبه وازديادها شدة بعد شدة . كلما أساء إليه الناس قابلهم بالأساءة ، وكلما أمعنوا فى الخصومة أمعن وتمادى ، حتى بلغ مرحلة الكيد المتعمد غير المبدوء .

ولكننا نرى فيه مع هاتين خصلة ثالثة ، هى الحنان على من يحبهم والرثاء لما يلم بهم ، نراه فى أساه الصادق من بكاء الصبية . وهذه صفة استبقاها إلى آخر أيام حياته برغم كل مالقى وقاسى ، فلو أن الظروف واتتها لربما نمت حتى تغلبت فى التكوين العام لشخصيته على شكسه ومبادرته إلى الانتقام ، فلم يزد على العبث المفاكه الذى قد يؤلم ولكن يكون ألمه وقتيا سطحيا ليس فيه حقد دفين أو رغبة فى الإيذاء القاسى. وما أكثر أصدقائنا المغرمين بما يسمى « المزاح العملى » ، نضيق به ونتبرم وقد يؤلمنا أحيانا إيلاما مغضبا ولكنه لا يصدر منهم عن خصومة لدود أو حقد مسموم ، فسرعان ما نغفره لهم ونعود إلى مصادقتهم وإن كنا نفضل لو لم يكونوا على هذا الميل الخبيث إلى المداعبة الحادة ...

هذه دراستنا النفسية لهذه القصيدة المبكرة ،فلندرسها الآن دراسة فنية لنرى فيها ميزات صنعته الشعرية ، فانها على تبكيرها ترى خصائص فنه الغزلى التى سنراها فى سائر غزله . فأول ما يلفتنا فيها سهولتها اللفظية العظيمة ، وسلاستها ورقة جرسها ، وهى صفة تزداد فى أذننا حلاوة وفى قلوبنا تمكنا كلما كررنا قراءتها وغنيناها وترنمنا فيها ،فهى فى الحقيقة لم تنظم للقراءة بل ليغنى فيها المغنون المعاصرون لبشار ، ولذلك اختار لها وزنا خفيفا وقافية رقيقة الجرس .

ثم نلاحظ قصرها وإيجازها ، فبشار يكتفى بأبيات قليلة تخلص إلى التجربة التى يريد وصفها خلوصا مباشرا بلا مقدمات ثم تنتهى حالما ينتهى من وصفها بلا تذييل ولا استطراد . فهى أبيات قليلة فى تجربة واحدة .

ولكن هاتين الميزتين لم يكن بشار هو مبتكرهما فى الشعر العربى ، فقد سبقه إلى استكشافهما واستغلالهما عمر بن أبى ربيعة ، فبشار فى الحقيقة يتبع السنة الشعرية التجديدية التى استنها عمر ، من الاقتصار على المقطوعات القصيرة ، وتحرى السهولة والخفة فى الأوزان التى يختارها والقوافى التى يكثر من استعمالها ، ويكفى أن نذكر أن ما يقرب من ربع ديوان عمر على روى الراء وحده ، ثم تحرى السهولة والرقة فى الألفاظ والتراكيب التى يصوغها .

ولكن مشابهة بشار لعمر تقتصر على هاتين الصفتين ، فان أتقنا دراسة هذه الرائية وجدنا بشارا يختلف عنه فى ميزتين عظيمتى الأهمية

فى الفن الشعرى ، وهما وحدهما كفيلتان بأن تجعلا شعره تام الاستقلال والتميز .

فبشار منذ هذه القصيدة - أى منذ بدايته الفنية - لم يكن يمارس الحوار الدرامى الخالص ، أى لم يكن كعمر الذى لا ينسب إلى المتحدثين فى شعره إلا ما قالوه ، ولا يتحدث إلا بلهجتهم الصافية يحكيها حكاية خالصة ولا يدخل عليها نبرته هو . لم يكن بشار كذلك ، بل ما يعطيه فى شعره من حوار يعطيه دائما بنبرته هو ، وكثيرا ما يدخل عليه من عنده عناصر لم تكن به أصلا ، كما رأيناه فى هذه القصيدة يضيف إلى الصبية جملتين لم تقلهما ، وحتى حين يقتصر على حكاية ما قيل يحكيه دائما بأسلوبه هو ويخلط عاطفته بعاطفة المتحدث ، وقد رأينا هذا أيضا فى الرائية السابقة ، فما أعظم الفرق بين حوارها والحوار فى شعر عمر . ففى شعر عمر نسمع نساء يتحدثن حديثا مباشرا الينا ، وفى تلك الرائية سمعنا رجلا لا نخطىء صوته الذكرى يقلد صوت النساء ، فان كان غرضه من ذلك التقليد مجرد المداعبة والتظرف أثار ضحكنا ومرحنا ، وإن كان غرضه التهكم الممض كان لنا فيه رأى آخر .

والميزة الأخرى نذكرها الآن ولكننا نترك تفصيل الحديث عنها إلى القصائد القادمة ، وهى أن بشارا لا يكتفى - كما يكتفى عمر - بالسرد العادى المطرد ، بل هو مغرم بأن يأتى فى أواخر قصيدته بقلب فجائى وتحوير شديد لمجرى الحديث وتغيير لنبرته التى كانت سائدة منذ أول القصيدة ، فبينما هو حزين أو شاك إذ به ينقلب إلى نكتة مرحة يتغير بها صوته تماما ، وبينا هو جاد أو متوله إذ يفاجئنا بمزحة مبتسمة ترغمنا

على الضحك الشديد . وهذا جاء به فى هذه القصيدة فى بيتها السابع فاضطرنا إلى أن نعيد قراءتها لنفهمها فهما جديدا ونرى غرضه الحقيقى من بيتيها الرابع والسادس فى الشطر الثانى من كل منهما .

فتـاة

غدا مالك بملاماته	علىّ - وما بات من باليه
تناول خودا هضيم الحشى	من الحور محظوظة عاليه
فقلت دع اللوم فى حبها	فقبلك أعييت عذاليه
وإنى لأكتمهم سرها	غداة تقول لها الجاليه :
عبيدة ، مالك مسلوبة	وكنت معطرة حاليه ؟
فقالت على رقبة : إننى	رهنت المرعث خلخاليه !
بمجلس يوم سأوفى به	وأن أجلب الناس أحواليه

هذه أيضاً مقطوعة بالغة الرقة عظيمة الخفة ، فألفاظها العذبة ذات التنغيم الرشيق ، وبحرها المتقارب بتتابعه السريع وتدفقه المسترسل ، وقافيتها السلسلة من الياء المتحركة والهاء الساكنة تسبقهما فتحة ممدودة بالألف ، كل هذا يشيع فيها عذوبة وبهجة كلما زدنا القصيدة قراءة ازددنا بهما إعجابا . وبشار يلتزم فى القافية مالا يلزم ليضاعف من موسيقية جرسها ، وحرف اللام من أعظم الحروف العربية سلاسة ومائية ، وكل هذا يظهر من القراءة الأولى للقصيدة ، ولكن الشأن فيها كالشأن فى كل الشعر الجيد والموسيقى أيضاً ، لا تظفر بمتعتهما الكاملة إلا إذا كررت قراءة الشعر أو الاستماع إلى الموسيقى حتى تلين الأنغام

على لسانك وأذنك وتستكشف فيها آيات جديدة من الانسجام والإتقان كلما عدت إليها .

وهذه أيضا قصيدة مرحة طروب ، لا حنق فيها ولا قسوة ، لم ينظمها بشار فى صباه بل نظمها بعد اكتمال رجولته وتمام نضجه ، وهذا يثبت لنا أنه برغم ما لقيه من مجتمعه ظل فى صميمه محتفظا برقة قلبه وحنان صدره ، وهى أيضا أبيات قليلة مباشرة فى تجربة واحدة ، ولكن دعنا الآن نتأمل نفس الظاهرة الفنية التى أشرنا إليها فى ختام عرضنا للقصيدة الماضية .

فبينا الحديث سائر سيراً عاديا مطرداً إلى البيت الخامس إذ ببشار يقلبه قلبا مفاجئا ليجىء بنادرة بارعة فى منتهى الظرف ، وأى قارىء يقدر الفكاهة لا يضحك ضحكا شديدا من قول الفتاة فجأة : « رهنت المرعث خلخاليه ! » .

تصور هذه الفتاة تعود إلى أمتها المتكفلة بزينتها وتطييبها القائمة على ملابسها وحليها ، فتحس الأمة بنقص فى أسباب زينتها تشعر به شعورا مبهما لم يتضح لها سببه بعد ، فتسأل الفتاة فى حيرة : أليس هناك شىء ينقصك ؟ فتجيب الفتاة ، ولكنها قبل أن تجيب تتلفت يمنة ويسرة لتتأكد من أن لا رقيب ، ثم تفاجىء الأمة بصراحة متحدية : بلى ! خلخالى ! تركته لدى بشار رهنا بأنى سأزوره مرة أخرى !

ولكنها لا تفجأ الأمة وحدها بل تفجأنا أيضاً بهذا الجواب غير المتوقع ، الذى لم يسبقه فى الأبيات الماضية ما ينذرنا به ، ولكننا لا نلبث

أن نستجمع فهمنا فننفجر بالضحك ، ويزيد من مرحنا تصورنا لرعب الأمة وفزعها حين يثوب إليها رشدها فتدرك معنى ما نطقت به الفتاة، وتقبل عليها مستنكرة ، ولكن الفتاة الطائشة الجموح تصر على التحدى ، وتكرر عزمها على الوفاء لبشار بوعدها مهما يصح الناس مستنكرين .

ولكن هذه القصيدة تختلف بعض الشيء عن سابقتها، فتلك كانت تامة اللهو تامة السعادة ليس فيها إلا رضى عن الحياة ورضى عن الناس، فان كنا وجدنا بها نبرة من الأسى فقد كانت هينة خفيفة وكان أسى لا يخلو من حلاوة وتلذذ . أما المقطوعة الحالية ففيها بعض التكدير حين يذكر بشار تعنيف مالك بن دينار إياه وتتبعه باللوم والمؤاخذة ، ولكنه تكدير ما يلبث بشار أن يتغلب عليه ويتناساه فى إصراره على مرحه واستبشاره .

هناك اختلاف آخر بين القصيدتين ، وهو اختلاف شخصيتى المرأتين ، أما القصيدة الماضية فتصور صبية جميلة صغيرة لا تزيد على الثالثة عشرة ، متدفقة بالمرح الصبيانى البرىء . صحيح أن حيويتها الأنثوية قد بدأت تتفتح وتثمر ، ولكنها لم تدرك ذلك بعد ولا تزال عن سحر أنوثتها غافلة، فهى لا تزال تلاعب الفتيان ملاعبة الصبية، فان جذبوها أو مزقوا وشاحها لم تفقه فى هذا شيئاً سوى جفاوة الأولاد فى اللعب، وعنفهم فى المنازعة، فتذهب إلى أمتها تشكوهم إليها فتغضب الأمة غضبا كأنه الجنون المستعر وتشتد عليها بالتقريع ثم الضرب ، فتدهش

الصبية وتستخزى وتبكى لأنها لا تفهم سر هذا الغضب الزائد .

أما هذه القصيدة فتصور بنتا أكبر سنا بعض الشيء ، فتاة نظنها فى الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمرها، بدأت تفهم سر الجنس ولذة مداعبة الرجال . صحيح أنها لم تتصل بهم اتصالا جسميا بعد ، ولكنها فى مداعبتهم إياها بدأت تفهم الدافع الكامن وراء ذلك وتفهم سبب المتعة التى تجدها فى هذه المداعبة، ولكنها فى حداثة سنها لا تزال طائشة مندفعة هوجاء ، يدفعها اغراء الشباب ورعونة الحيوية إليهم دون أن تدرك الخطر الذى ينتظرها ، فان حاول الناس تحذيرها وأخذها بالحكمة والاحتراس ثارت عليهم واستخفت بلومهم وتحدت أقاويلهم، بل هى تلقى بنفسها القاء على بشار لا تدرك تمام الأدراك عاقبة هذه الرعونة .

امرأة

وبيضاء يضحك ماء الشبا … ب فى وجهها لك إذ تبتسم

وجارية خلقت وحدها … كأن النساء لديها خدم

دُوار العذارى إذا زرنها … أطفن بحوراء مثل الصنم

يرحن فيمسحن أركانها … كما يمسح الحجر المستلم

ظمئت إليها فلم تسقنى … برى ولم تشفنى من سقم

وقالت : هويتَ فمت راشداً … كما مات عروة غما بغم

أصفراء ليس الفتى صخرة … ولكنه نصب هم وغم

صببتِ هواك على قلبه … فضاق وأعلن ما قد كتم

فلما رأيت الهوى قاتلى … ولست بجار ولا بابن عم

دسست إليها أبا مجلز !   وأى فتى أن أصاب اعتزم
فما زال حتى أنابت له   فراح وحل لنا ماحرم

أو تحتاج هذه القصيدة هى الأخرى إلى أن نطيل فى وصف رقتها العذبة ؟ بل سلاسة أنغامها ورشاقة ألفاظها وبحرها المرقص واضحة للقارىء من القراءة الأولى ، وسيزداد بها استمتاعاً كلما زادها قراءة .

والأنثى التى نراها فى هذه القصيدة مختلفة عن كل من سابقتيها ، فهذه امرأة ناضجة ما نحسبها إلا قد توسطت العقد الثالث من عمرها تم اكتمالها ورشدها ، واكتسبت خبرة بسلوك الرجال وفنونهم مع النساء فهى لاتلقى بنفسها عليهم كما فعلت الماضية بل تعرف قيمة التثاقل والتمنع والتظاهر بالصعوبة حتى تزيدهم بها هياما وفيها رغبة . استمع إلى هذا البيت الظريف :

وقالت : هويت فمت راشداً   كما مات عروة غماً بغم

وتصور هـذه الأنثى تتدلل وتتمنع ، تقول له فى إغراء ظاهر واحتجاج واضح الادعاء : أنت تزعم أنك تحبنى ؟ فلم لا تكتفى بحبى حباً بريئاً ، أفلاطونياً ، ! لم لا تكون كعروة العذرى محباً مثالياً عفيفاً؟ أم تريد منى شيئاً آخر ؟ انظر إلى الفخار الذى تكسبه إذا مت ميتة شريفة سببها الهوى العذرى الطاهر ! فيزداد بشـــار أمامها تضرعا واستعطافاً لايخلو من نبرة فارغة الصبر مؤداها : ما كل هذا الكلام عن الحب العذرى والموت الشريف ! « على مين ياست ! » .

وقد آن لنا أن نتأمل فى حب بشار ، أى حب كان ؟

كان بشار يحب النساء حباً تحقيقياً ، ليس فى هذا شك ، ولا نريد أن ندعى أنه لم يقصد منهن سوى الحديث البرىء والمتعة العذرية ، بل هو دون ريب كان يود لو حظى منهن بالاستمتاع الجسدى الكامل . ولكننا نخطىء أشد الخطأ إذا قفزنا من هذا إلى الحكم بأن هـذا الاستمتاع الجسدى كان كل ما أراده منهن ، لم يكن بشار حيواناً لا يعنيه من الأنثى إلا أنها أداة لإطفاء الشهوة الملحة ، ولا كان كالرجل الذى يطغى به الظمأ الجنسى فيذهب إلى المومسات المأجورات لايبغى لديهن سوى الإرضاء الآلى لهذا الظمأ . بل كان بشار يتطلب فى المرأة أكثر من هذا ، كان ينشد فيها ما يلتمسه الرجل ذو العاطفة المهذبة والظمأ الوجدانى ، من الحنان الانثوى ، والرقة والوداعة ، والحديث الحلو والمسامرة الهنيئة ، وكل ما يتنسمه الرجل الراقى فى كنف المرأة من روح الدعة والرحمة وظلال التعاطف والحنان . صحيح أنه لم تكن تتم له سعادته إلا إذا أتم هذه النشوة بالتحقيق الجسمى ، ولكنه فى هـذا التحقيق نفسه لم يكن حيواناً هائجاً أو ذكراً جلفا من أولئك الذين لايرون أنثى إلا حبسوا فكرهم وتشوقهم على ناحية واحدة منها .

ولا غرابة فى هذا . لا غرابة فى هـذا برغم كل ما قاله الناس عن بشار ، فبشار كان شاعراً ، شاعراً ممتازاً عظيما ، لا تنس ذلك أبدا ، والدليل القوى على أنه لم يقتصر فى المرأة على أشباعها الجسدى تجده واضحاً فى غزله الرقيق الذى يفيض حناناً ، تجده مثلا فى الأبيات الخمسة الأولى من هذه القصيدة .

فهذه أبيات ظاهرة الصدق تامة الأخلاص ، تعبر عن شعور نحو

المرأة لا يستطيعه ذلك الصنف من الذكور . انظر إلى البيت الأول المتهلل المرقص :

وبيضاء يضحك ماء الشبا　　ب فى وجهها لك إذ تبتسم

الذى لا يعنيه من المرأة إلا التحقيق الجنسى لا يهمه أتبتسم له أم تعبس ، ثم تأمل فى هذه البسمة الوضاءة المتلألئة . بسمة الجمال ، بسمة الشباب ، بسمة الوجه المحبب ، يجتمع فيها الجمال والشباب والحب فلا يعود وجه المرأة مجرد جزء مادى من جسم مادى ، بل يكتسى حلة عجيبة من البهاء ، أصله الجمال الجسمانى دون شك ، ولكنه يعلو عليه كثيراً ، فتتنزل إليه مسحة روحانية من الملأ الأعلى ، وليس فى الوجود كله أبهى من وجه الحبيب الشاب الجميل يبتسم لك هذه الابتسامة النورانية . وما أروع تعبير بشار : يضحك ماء الشباب فى وجهها لك إذ تبتسم ! وما أروع هذه الكلمة الواحدة : لك ! نعم لك أنت يضحك وجهها فيضحك الكون كله وترقص الحياة أمامك سعادة وطرباً حين ترى هذه البسمة النورانية المتهللة .

فإن ظننت أن بشاراً لم ير هذه البسمة على أى حال ، فهو إنما يقول كلاما تقليديا لا يدل بالضرورة على عاطفة صادقة ، أجبتك : إن صدق عاطفته يقطع به هذا البيت البديع إن كان القارىء ذا ذوق أدبى ناضج يميز بين كلام التقليد والتعبير الحار الصادق الحرارة . فهذا بيت يستحيل أن ينظمه مجرد مقلد ، بل قائله قد خبر هـذه البسمة وعرفها نوعا ما من المعرفة . فلنفكر إذن : أى معرفة أتيحت لبشار؟ الذى يرفض صدق البيت لأن قائله أعمى ، لا يدرك مبلغ حساسية العميان ، فإن شككت فى هذا فارقب أعمى تعرفه ، وارقبه أياماً متعددة تراقب

فيها تأثره بمن يلقاهم من الناس ، بعضهم يبتسم ، وبعضهم يعبس وجهه وإن كان حديثه متودداً مجاملا ، وابتسامة بعضهم صادرة عن صداقة مخلصة وابتسامة الآخرين تصدر عن النفاق الاجتماعى المألوف ، وابتسامة بعضهم سرور صادق وابتسامة الآخرين ممزوجة بالسخرية والاستخفاف ، وانظر هل يميز ذلك المكفوف بين كل تلك الوجوه أو تستوى أمامه ، ولا تسألنى عن الوسيلة المضبوطة التى يعرف بها الكفيف فإنى لا أدرى ، وإنما أكتفى بتسجيل الواقع الذى يستطيع كل قارىء أن يتحققه بنفسه . فأما إن كان من الماديين الذين يقصرون المعرفة على الحواس فإنه يستطيع أن يقول أن الأعمى قد استعاض عن البصر بتنمية الإحساسات الأخرى إلى درجة من الأرهاف لا يستطيعها المبصرون ولا يصدقونها ، وأما إن كان من غير الماديين فربما يستطيع تفسيراً آخر . وقد سمعت بموسيقىٍّ انجليزى كان يستطيع أن يحكم بعمر المرأة ونصيبها من الجمال أو الدمامة بمجرد الاستماع إلى صوتها ، وقد أكد لى من عرفوه أنه لم يخطىء فى حياته مرة واحدة . ومما يروى عن بشار نفسه أنه استمع يوما إلى امرأة فقال أنها جميلة الأسنان ، فلما سئل كيف عرف ذلك أعطى سبباً مادياً صرفا ، فقال إنها تكثر من الضحك حتى تبدو أسنانها ، ولست أدرى هل كان السبب الذى أعطاه بشار هو كل شىء ، فبشار نفسه كان لا يؤمن إلا بمعرفة الحواس . . .

أضف إلى هذا كله أن استعمال بشار لأسلوب المبصرين لا يطعن بالضرورة فى صدق عاطفته ، فإنه اضطر فى أحيان كثيرة إلى استعمال الأوصاف البصرية كى يقرب إلى سامعيه أو قرائه المبصرين كنه العاطفة

التى يحسها بترجمتها إلى اللغة التى يألفونها ، وإنك تجد نظير هذا فى كلام العميان جميعاً ، شعرائهم وناثريهم ، فى الأدب العربى وفى غيره من الآداب ، فليس استعمالهم لهذه اللغة طاعنا فى صدق الإحساس الذى يحاولون وصفه ، ولا نطيل فى هـذا فقد عرضنا له فى مكان سابق من هـذا الـكتاب ، حين تأملنا فى بعض الأبيات التى يثبت بها بشار قدرة المـكفوف على الاستجابة للجمال ، ولـكن تأمل الآن فى الأبيات الأربعة التالية :

وجارية خلقت وحدها   كأن النسـاء لديهـا خدم

دوار العذارى إذا زرنها   أطفن بحوراء مثل الصنم[1]

يرحن فيمسحن أركانها   كما يمسح الحجر المستلم

ظمئت إليها فلم تسقنى   برىّ ولم تشفنى من سقم

أتعرف رجلا لايهمه فى المرأة إلا مايريد الرجل من المومس يقول هذا الـكلام؟ بل هذا كلام واضح الصدق ظاهر الحرارة ، يقوله رجل يحب المرأة حباً غير منقوص ، حباً لا يقتصر على جسمها وما يقدمه له ، وإلا لم يميزها على سائر الأناث فاستوين عنده جميعهن أو معظمهن ، فبشار حين قال أنهـا خلقت وحدها وأن سائر النساء أمامها كالخدم كان يعنى مايقول بإخلاص ، صحيح أن هـذا كان منه شعوراً وقتيا سيزول بعد فترة ويتجه إلى امرأة غيرها ، ولـكن هـذا لا يطعن فى صحته مادام نحوها باقيا . والبيتان التاليان :

(١) دوار : صنم يدورحوله العابدون .

دوار العذارى إذا زرنها   أطفن بحوراء مثل الصنم

يرحن فيمسحن أركانها   كما يمسح الحجر المستلم

يعبران عن شعور لا يقتصر على الحب ، بل يسمو إلى الاجلال الذى يبلغ منزلة التقديس ، وصدق الشعور فيهما واضح لـكل ذى دراية فنية تميز الصادق من المتكلف .

وحين يقول :

ظمئت إليها فلم تسقنى   برىّ ولم تشفنى من سقم

فأى ظمأ هذا ؟ وأى رى يبغيه ؟ لست أدعى أنه كان ظمأ عذريا يبغى الرى الأفلاطونى ، فلا شك أنه يريد منها التحقيق الجسمى فيما يريده . ولـكن أهذه الشهوة الجسمية هى كل ظمئه وإرضاؤها الآلى هو كل ريه ؟ لوكان ذلك أما كان يجد رياً كافياً بغيرها من النساء ، أو بمومس يستأجرها لليوم أو للساعة ؟ أو كانت تصدر عنه الأبيات الماضية العظيمة الإكبار والتقديس ، أم كان يصدر عنه مانراه فى الأبيات التالية من الوله والتضرع حين يرى تمنعها ؟ :

وقالت : هويت فمت راشدا   كما مات عـروة غما بغم

أصفراء ليس الفتى صخرة   ولـكنه نصب هم وغم[1]

صببت هواك على قلبـه   فضاق وأعلن ما قد كتم

ولـكن بينا هو فى هذا الحديث الحار الجاد ، إذ به يقلبه علينا فجأة

(١) لعل الرواية الصحيحة « نصب غم وهم » ، لتجنب الأيطاء ، وقد مزجنا فى روايتنا لأبيات هذه القصيدة بين روايات شتى .

فيحملنا على الأعجاب الممزوج بالدهشة من فرط ولعه بالنكتة والمداعبة حتى حين يكون فى أشد جده :

فلما رأيت الهوى قاتلى ولست بجار ولا بابن عم
دسست اليها أبا مِجْـلز ! وأى فتى أن أصاب اعتزم
فما زال حتى أنابت له فراح وحل لنا ما حرم

النبرة فى هذه الأبيات الثلاثة مختلفة تماما . ويجب على قارىء القصيدة حين يأتى اليها أن يغير صوته فجأة من الشكوى الحارة المتضرعة إلى المداعبة المرحة المبتسمة ، يهمس بها فى ممازحة ومكر ، وبشار يرغمنا فيها على أن نضج بالضحك الشديد ، ويزيد من فكاهة الأبيات أن تلتفت إلى هذا الإسم المضحك الذى اختاره لديوثه ، يسميه «أبا مجلز» فكثير من القراء فى يومنا هذا لا ينتبهون إلى مدى فكاهة هذه التسمية إذ يظنونها اسما حقيقيا للرجل الذى أرسله بشار ، وهى ليست إلا كنية هزلية يخترعها بشار فيختار حروفا تصدر فى اجتماعها نفس الرنة المضحكة التى تسمعها فى بعجر ، وشنطح ، وزعرب ، وجعرب ، أو أمثالها ، والغريب أن بعض معاصريه فى ضيق أذهانهم واقفارهم من روح الفكاهة ظنوها اسما حقيقيا فأقبلوا عليه يسألونه من أبو مجلز هذا فإنهم لا يعرفونه ! وكذلك الشأن فى الكلمات الغريبة التى كان بشار مغرما بإقحامها فى شعره ، من أمثال « الشنفران » و « ابن قنان » وغيرهما ، ثم يعجز معاصروه ومن تبعوهم من رجال اللغة عن اكتشافها فى معاجم اللغة أو فيما يعرفون من لغات العرب ، فيقولون أنها حشو اضطر اليه حين أعوزه الوزن أو القافية ! وأعجب العجب أن نقادنا

المحدثين يتبعونهم فى ذلك ولا يلتفتون إلى أنها متعمدة لغرض المزاح والأضحاك ، مع أنهم يستعملون فى محادثاتهم أمثالها حين يسمون بعض أصدقائهم أو معارفهم أسماء هزلية ، ويعرفون نظائرها فى اللغات الأجنبية ، وفى الانجليزية منها المئات تفيض بها المسرحيات الهزلية .

وولع بشار بتغيير مجرى حديثه وتبديل نبرة صوته تبديلا مفاجئا يصدر عن روح الفكاهة التى وجدت فيه بأصالتها والتى يغفل الناس عنها أو ينكرونها ، فهى مستمدة من بصره بمتناقضات الحياة وإدراكه للمفارقات . وحيلته فى القلب معروفة بكثرة فى الأدب الانجليزى ويسمونها twist ، وهى تؤدى إلى هبوط فجائى فى عاطفة القارىء يسمونه anticlimax ، فبينما عاطفته فى تحرج واشتداد إذ تنفجر فى ضحكة غير متوقعة ، ومن أحسن الأمثلة التى أتذكرها ما يقوله أحد الأشخاص فى مسرحية لشكسبير ، وإنما أعطى هذا المثال لأنه فى موضوعه قريب الشبه من أبيات بشار الماضية . فهذا الشخص محب ولهان يتحدث إلى محبوبته فى ضراعة وشغف ، فيقول : سأحيا فى فؤادك ، وأموت فى حجرك ، وأدفن فى عينيك ، وأيضا سأذهب معك إلى بيت عمك ! (١)

وهو نوع من المداعبة يغرم به المصريون ، وهم مشهورون بولعهم بكل أنواع الممازحة ، وكم سمعت فى مظاهرات الطلبة من خطيب

---

(١) Benedick to Beatrice, « Much Ado about Nothing, » Act V Scene 11

متحمس ثائر ، ثم « تحزقه النكتة » فجأة فيضج مستمعوه بالضحك لما سمعوه من مزحة لم تكن منتظرة . ومن أجود الأمثلة التى لا أزال أتذكرها ما قاله لنا أستاذ جامعى جليل معروف بفكاهته البارعة كان يحاضرنا عن حسان بن ثابت ، فقال : وكان سيدنا حسان بن ثابت رضى الله عنه جبانا !

خليعة

إن كنا رأينا فى القصيدة الماضية امرأة متدللة متثاقلة ، فاننا سنرى فى المقطوعة التالية امرأة تزيد على هذا فتتثنى تثنياً شديد الإغراء :

قال ريم مُرَعَّث   ساحر الطرف والنظر (١)

لست والله نائلى   (قلت: أو يغلب القدر!)

أنت إن رمت وصلنا   فانج ، هل تدرك القمر

تدلل هذه المرأة يصل إلى درجة الخلاعة. يصورها بشار تصويراً ناطقاً بهذا الوزن الذى اختاره . فاقرأ الأبيات ، هى ثلاثة أبيات لا غير ، ولكن فيها صورة كاملة لهذه الأنثى الخليعة المغناج تتلوى بكل أجزاء جسمها وتهتز اهتزازاً يحاكيه هذا الوزن البارع ، فإن كنت لا تعرف هذا التثنى المثير من واقع الحياة فأنت لاشك تعرفه من تمثيل بعض ممثلاتنا المشهورات فى كثير من أفلامنا السينمائية !

وحتى فى هذه القطعة القصيرة يأبى بشار إلا أن يدخل قلبه الفكاهى الذى

(١) مرعث : يلبس فى أذنه الرعاث وهى الأقراط .

يبعث ضحكنا الشديد ، ولكنه لا يدخله هنا فى نهاية القطعة بل فى وسطها ، وهو الشطر الثانى من البيت الثانى : « قلت أو يغلب القدر ! » فهذا القول يقوله بشار سرا لا جهرا ، مناجيا به نفسه وهو يشهد تمنعها المدعى، ولذلك وضعته بين قوسين . تصور إذن هذا المنظر . بينا هذه الأنثى فى تدللها وتثنيها الخليع تتصنع الرفض والامتناع ، يقول بشار فى نفسه بابتسامة ماكرة : (سنرى ! تزعمين أنى لن أنالك ؟ «صبرك!») ثم يستمر فى تصور تخلعها وادعائها أنها ستعجزه ، لا تدرى ماذا قال سرا وعلام عقد العزم !

هذه أبيات خليعة بلا شك ، ولكننا لا نستطيع أن نرفضها رفضا فنيا . فتصويرها الفنى العظيم الصدق والقوة لا يمتزج به تصوير لعواطف أخرى كريهة من الحقد أو القسوة كما رأينا فى الرائية . وإن كان بشار قد عقد العزم على الظفر بها فهذا لا يثير فينا رثاء لها أو حزنا عليها ، فهى ليست فتاة بريئة غريرة بل هى امرأة ظاهرة الأفحاش ، ولا شك عندنا أن بشارا لن يكون أول من يظفر بها . ولذلك لا نجد فى فكاهته البارعة (قلت : أو يغلب القدر !) ما يؤلمنا بل نرى فيها الجزاء الذى تستحقه هذه المتهتكة التى تدعى التمنع .

شريفات

أما الحديث فى القصيدة التالية فعن نسوة من صنف تام الاختلاف :

لما طلعن من الرقيـ   ـق على بالبردان خمسا (١)

(١) كان لبشار مجلسان فى داره ، سمى أحدهما الرقيق وسمى الآخر البردان .

وكأنهن أهلة   تحت الثياب زففن شمسا
لما طلعن حففنها   وأصخن ما يهمسن همسا
فسألنني من في البيو   ت فقلت ما يؤوين إنسا
ليت العيون الطارفا   ت طمسن عنا اليوم طمسا
فأصبن من طرف الحديـ   ث لذاذة وخرجن ملسا (١)
لولا تعرضهن لي   يا قس كنت كأنت قسا ! (٢)

هؤلاء نسوة شريفات فاضلات ، ويظهر من وصف بشار لهن أنهن أيضا من الطبقة الاستقراطية الغنية ، زرن بشارا لا لغرض سوى الاستمتاع البرىء بحسن حديثه ، واحتججن لهذه الزيارة بأنهن جئنه ليقول لهن شعرا ينحن به ، وواضح أن هـذا مجرد احتجاج ، ولـكنهن يحتطن جداً قبل أن يدخلن منزله خوفا على سمعتهن لو رآهن رقيب ، ويظهر أن احداهن كانت أعلاهن مرتبة فهو يصف التفاف الأربع الأخريات حولها حتى يخفينها عن النظر وإصاختهن السمع قبل أن يدخلن حتى يتأكدن من خلو المكان . ثم يسألنه أفي منزله زوار آخرون ولا يدخلن حتى يؤكد لهن بالنفي .

وتجرؤهن على زيارة بشار برغم كل صفاته السيئة وسمعته المشينة يرينا أنه كان على قدر عظيم من حلاوة الروح وجمال المؤانسة ، حتى يواجهن في سبيل مسامرته الظريفة وحديثه الفكه كل الأخطار . ويرينا أيضا أن بشاراً لم يكن يهم بالفاحشة مع كل امرأة تزوره ، بل كان يقدر للعفيفات مركزهن وخلقهن ويكتفي معهن بلذة المحادثة وإمتاع المفاكهة وقصيدته هذه في نفس الخفة والرشاقة التي وجدناها في القصائد

(١) ملسا : طاهرات خاليات من العيب كما دخلن .
(٢) يخاطب الحسن البصري .

الماضية ، فلألفاظها عذوبة ورقة ولوزنها المجزوء نغمة ساحرة ، ولـكننا لا نجد فيها نفس المرح بل نجد عذوبتها ممزوجة بطعم حريف ، لأن بشاراً حين نظمها كان حزينا ساخطا . وسبب ذلك أن الحسن البصرى لما بلغه خبر زيارة هؤلاء النسوة له استغل القصة ليزيد من تشويه سمعته لدى الناس وتصويره بصورة الفاتك الخطر الذى لا يؤمن حتى على شريفات النساء وأخذ يحرض الناس على البطش به .

والذى يحزن بشارا هو أنه لم يحدث منه مع هؤلاء الزائرات إلا الجلسة البريئة والحديث الحلال ، أفيتتبعه أعداؤه بالتشنيع حتى في هذا القدر الهين من المتعة الشريفة ؟ وحزنه يتجلى في نغمة القصيدة كلها فرنينها مقرون بالأسى ، وروى السين الذى اختاره لقافيته أشد الحروف العربية تعبيرا عن الأسى والحسرة ، وهو وحده يشيع في القصيدة كلها، روحا كئيبة متشائمة . وهذا الشعور يتجلى على أوضحه في الأبيات الثلاثة الأخيرة ، حيث يتمنى أن تطمس عنه عيون المتجسسين ، ويحتج بأنهن لم يصبن إلا لذاذة من طرائف الحديث وخرجن طاهرات ملسا من العيب كما دخلن . ثم يأتى في بيته الأخير بقلبه المعهود !

لـكننا لا نجد هذا القلب مزحة خفيفة مرحة كما في القصائد السابقة ، بل نجده وخزة قاسية ، فالحسن البصرى كان يسمى بالقس لتعبده وزهده وهى تسمية كان يطلقها المسلمون على نساكهم المتقشفين . ولـكن بشارا يقلبها إلى اللقب الـكهنوتى المسيحى ببراعة لاذعة ، يقول له : ماذا تريد منى ؟ أتريد أن تحرم على حتى حلال الحديث البرىء والمؤانسة الشريفة؟ أتريد جميع الناس أن يكونوا رهبانا متقشفين مثلك ؟ أتريدنى أن أكون قسا مثلك ! تصور شيخا وقورا جليل الهيئة سابغ اللحية يقول له خصم له : يا قسيس !

طرب

ولكن بشارا الذى يستطيع نظم تلك القصيدة الكسيفة الآسية حين يرهقه خصومه ، يستطيع أيضا حين يصفو له مجلس الأصدقاء أن ينظم القصيدة الآتية العظيمة الطرب والانتشاء .

نروى أولا قصة نظمها : « وكانت بالبصرة قينة لبعض ولد سليمان ابن على ، وكانت محسنة بارعة الظرف ، وكان بشار صديقا لسيدها ومداحاً له ، فحضر مجلسه يوما والجارية تغنى ، فسر بحضوره وشرب حتى سكر ونام . ونهض بشار ، فقالت : يا أبا معاذ ، أحب أن تذكر يومنا هذا فى قصيدة ولا تذكر فيها اسمى ولا اسم سيدى وتكتب بها إليه ، فانصرف وكتب إليه القصيدة ، ووجه بالأبيات إليها ، فبعث إليه سيدها بألفى دينار وسر بها سرورا شديداً . »

كان هذا مجلس سعادة تامة لا نكد فيها كما لم يتح لبشار فى حياته كثيرا . فالمغنية ليست رخيمة الصوت فحسب بل هى محسنة بارعة الظرف ، فهى من النوع المثقف المتحضر الذى كان بشار يغرم بمحادثته. ويبدو أنها كانت تكرم بشارا وتحسن معاملته ولا يرى منها إلا المجاملة واللطف ، وسيدها صديق له ، يحضر بشار مجلس طربه فلا يطرده ، ولا يعبس له ، ولا يقبله كارها كاظما . بل يسر سرورا صادقا بحضوره، فانظر الآن أى مرح وسعادة يستطيعهما بشار حين لا ينغص عليه خصومه حياته :

وذات دل كأن البدر صورتها   باتت تغنى عميد القلب سكرانا :
« إن العيون التى فى طرفها حور   قتلننا ثم لم يحيين قتلانا »

فقلت: أحسنت ياسؤلى ويا أملى !   فأسمعينى جزاك الله احسانا :
« ياحبذا جبل الريان من جبل   وحبذا ساكن الريان من كانا »
قالت: فهلا فدتك النفس أحسن من   هذا لمن كان صب القلب حيرانا :
« يا قوم أذنى لبعض الحى عاشقة   والأذن تعشق قبل العين أحيانا »
فقلت: أحسنت أنت الشمس طالعة   أضرمت فى القلب والأحشاء نيرانا
فأسمعينى صوتا مطربا هزجا   يزيد صبا محبا فيك أشجانا
ياليتنى كنت تفاحا مفلجة   أو كنت من قضب الريحان ريحانا
حتى إذا وجدت ريحى فأعجبها   ونحن فى خلوة مثلت إنسانا !
فحركت عودها ثم انثنت طربا   تشدو به ثم لا تخفيه كتمانا :
« أصبحت أطوع خلق الله كلهم   لأكثر الخلق لى فى الحب عصيانا »
فقلت : أطربتنا يا زين مجلسنا !   فهات ! انك بالاحسان أولانا
لو كنت أعلم أن الحب يقتلنى   أعددت لى قبل ألقاك أكفانا
فغنت الشرب صوتا مؤنقا رملا   يذكى السرور ويبكى العين ألوانا:
« لا يقتل الله من دامت مودته   والله يقتل أهل الغدر أحيانا »

هذه الأبيات الستة عشر نادرة المثال فى طربها العظيم ونشوتها الزائدة ، أما فى جودة تصويرها لمجلس الغناء وما يحدث فيه من طرب وصياح فهى معدومة النظير ، فإنها تجسمه تجسيما يبلغ درجة الكمال . بشار تارة يصف غناء القينة وجمال صوتها وبراعة تلحينها. وتارة يصف تأثره هو بغنائها . ووصفه هذا لو قرأه أوربى لما فهمه ، لأن الأوربيين إذا استمعوا إلى الموسيقى أو الغناء لزموا الصمت التام حتى تنتهى القطعة، ثم لا يعبرون عن إعجابهم إلا بالتصفيق ، ولكن القارىء العربى يستطيع فهم القصيدة جيداً إذا تخيل ما يحدث بيننا إلى الآن فى مجالس

الغناء حين تأخذ النشوة السامعين فيصيحون ويقاطعون ويستزيدون «كان والنبى كمان !» .

وقارىء هذه القصيدة إذا أراد أن يحسن تمثلها فلا بد له من أن يتغنى فى أبيات الغناء ، وهى التى وضعناها بين قوسين ، ولا يكتفى فيها بمجرد القراءة ، ويكون خيراً لو اشترك فى القصيدة صديقان ، أحدهما يقرأ أبيات الحكاية والوصف والثانى جميل الصوت يغنى بأبيات الغناء ، فيكون بينهما ما يشبه الحوار .

تأمل الآن تدرج بشار فى الطرب وازدياده فى الهتاف بازدياد طربه . حين يسمعها أولاً تغنى :

« ان العيون التى فى طرفها حور   قتلننا ثم لم يحيين قتلانا »

يعبر عن إعجابه هكذا :

فقلت: أحسنت ياسؤلى ويا أملى   فأسمعينى جزاك الله إحسانا

كما يقول أحدنا : الله الله ! كمان والنبى كمان !

ولكن حين تزيده غناء يزيد صياحا ، وخصوصا حين يرى أنها بلباقتها البارعة تغنيه من شعره هو ، فيكون هذا تأثره :

فقلت: أحسنت أنت الشمس طالعة   أضرمت فى القلب والأحشاء نيرانا

فأسمعينى صـــوتا مطربا هزجا   يزيد صبا محبا فيك أشجانا

فيكون كأحدنا فى حفلات غنائنا حين يزيد طربه فلا يكتفى بالإعجاب بالغناء بل يعبر عن استملاحه للمغنية فيصيح : يافل ! ياوردا ! يا قمر ! آه يا قلبى ! ياحلاوتك ياخفة ! جننتينا خالص ! ونظير هذا من

صياح لا تظنن أنه يقتصر على عامتنا ، بل يشارك فيه جلة وزرائنا وكبار مثقفينا ، تنشر مجلاتنا الأسبوعية صورهم وقد استخفهم الطرب فى الحفلات التى تغنى فيها إحدى مغنياتنا المشهورات ، فهبوا من كراسيهم وفغروا أفواههم وتشنجت وجوههم بالتلذذ وبسطوا أيديهم بالضراعة والاستعطاف !

ولكن بشارا لا يكتفى بتصوير تأثره الظاهر وما صدر عنه من صياح ، بل يصور أيضاً الخوالج التى كانت تدور فى عقله ، ولا تنس أنه كان ثملا ، فقد اجتمعت عليه نشوة الغناء ونشوة الخمر :

يا ليتنى كنت تفاحا مفلجة   أو كنت من قضب الريحان ريحانا

حتى إذا وجدت ريحى فأعجبها   ونحن فى خلوة مثلت إنسانا !

وهذان بيتان لا نظير لهما فى وصف تخيلات السكران . لاحظ أن بشاراً لم يصح بهما بنفس الصوت الذى نطق به البيتين السابقين ، وإنما هذا ما تهيئه له مخيلته ، فان كان نطق بشىء فلم يزد على أن تلعثم ببضع كلمات غير مفهومة ، فعليك حين تقرأهما أن تتمتم بهما فى تخبط وخفوت وأن تقلد وأنت تنطق بهما تطوح السكران وتلعثمه المعروف . وفكر الآن فى هذا الخيال المضحك : يتخيل أنه انقلب إلى تفاحة مقسمة أو إلى عود من الريحان ، فتمر به المغنية فتجد له شذى عبقا ، فتحمله إلى حجرتها الخاصة حتى تستمتع بتشممه ، فاذا به ينقلب من التفاحة أو الريحانة إلى بشار بلحمه ودمه !

وهذا الخيال المبالغ فى الأغراب لا يصدر إلا عن سكران ، ولكنك لا تعدم أحلاما مشابهة له فى الصحاة حين يأخذهم الطرب ، فكم منا

انصرف عن حفلة غناء أو فيلم سينمائى وفى طريقه إلى بيته يدبر الصدف الخيالية التى ربما تجمع بينه وبين تلك المغنية المشهورة أو الممثلة الفاتنة فتقع فى حبه ويعجبها ظرفه وتطارحه الغرام !

ثم تغنى مرة أخرى ، فيزيد تأثره :

فقلت : أطربتنا يا زين مجلسنا !   فهات ! انك بالاحسان أولانا

لو كنت أعلم أن الحب يقتلنى   أعددت لى قبل أن ألقاك أكفانا

واسترساله فى هذا البيت الثانى يصور تصويراً تاما ما يحدث فى مجالسنا أيضا حين يزيد بأحدنا الطرب فلا يكتفى بالتعبير عن استحسانه للغناء أو تتيمه بالمغنية بل يدعى أنها قتلته ويصيح : آه يا ناس ! مت خلاص ! موتينا يا روحى ! ثم يلقى بنفسه على صديقه المجاور له ، أو يقذف بطربوشه إلى السقف !

فاذا استمر الطرب بلغ التأثر نهايته ، فوجدت بعض السامعين يجاوز الصياح والأعجاب إلى البكاء والنحيب إذ وصل إلى أقصى الميوعة العاطفية :

فغنت الشرب صوتا مؤنقا رملا   يذكى السرور ويبكى العين ألوانا

ولكن بشاراً فى هذا كله لا يصف حسن غنائها وجودة أنغامها فحسب، بل يصف أيضاً ما تمزج به غناءها من دلال وابتسام وانثناء ، تزيد بها من افتتان السامعين، وهو ما يحدث بعينه من مغنياتنا المشهورات ، فانك تجد جزءا عظيما من رواجهن يرجع، لا إلى جمال غنائهن وحده ، بل إلى ظرفهن وشخصيتهن المحببة إلى السامعين .

وهكذا يقسم بشار قصيدته تقسيما رائعا بين غناء الجارية وطربه هو وصياحه ، وإن عددت أبيات الغناء وجدتها لا تزيد عن خمسة ، ولو أنك أحصيت عدد الدقائق التى تقضى فى الغناء فى إحدى حفلاتنا وعدد الدقائق التى يشغلها صياح المستمعين وإعجابهم واستزادتهم ، لوجدت مطابقة عجيبة فى النسبة بين حفلاتنا وبين هذه القصيدة الفذة .

على أن بشارا لا يصف طرب المستمعين وحدهم ، بل يصف طرب المغنية أيضاً :

فحركت عودها ثم انثنت طربا   تشدو به ثم لا تخفيه كتمانا

فانها حين تجد تأثرهم وتسمع استحسانهم المفرط تزيد من جهدها فى التحسين وتبلغ أقصاها فى الاتقان حتى تتم المجاوبة والانسجام فكما نقول فى اصطلاحنا « تتجلى » فى النصف الأخير من الحفلة . وهل تستطيع أن تتصور إحدى مغنياتنا « تتجلى » لو لم يعطها مستمعوها هذا الهتاف فاستمعوا اليها فى صمت تام كما يفعل مستمعو المغنيات الغربيات ؟

* * *

وهكذا نجد بشارا برغم مالقى وقاسى وكل ما امتلأ به صدره من الحقد والنقمة يستطيع المرح الخالص والسعادة الصافية حين تواتيه الفرصة وتكمل له أسباب الغبطة فتصدر عنه مثل هذه القصيدة الطروب ذات الرضى التام والاستبشار المعجب . وهى صفة احتفظ بها حتى أواخر أيامه ، وبقاؤها فيه على الرغم من خصوماته ومصائبه يثبت لنا

أنه فى أصالة طبعه كان من الصنف المستبشر المرح الذى يريد مصادقة الجميع ، فماذا تراه كان يصير لو خلت حياته من آلامها ولم يسممها عليه خصومه ؟ لا شك أنه كان حينئذ لا يقل سعادة وصفاء عن عمر أو أبى نواس فلا نسمع فى شعره إلا ما نسمع فى شعرهما من أنغام السعادة المنطلقة الحرة ولا نذوق منه إلا ما نذوقه منهما من القراح الذى لا يخالطه ثقل ولا قذى . صحيح أننا كنا نسمع فيه بين الفينة والفينة نغمة حادة أو مزحة لاذعة ولكنها ما كانت تزيد فى إيلامها إلى الحد الطاغى الذى لا يحتمل بل كانت فكاهتها تخفف من لذعها وطيبة قلب صاحبها تسهل لنا قبولها . فان كان بشار لعماه ودمامته محتوما عليه ألا يخلو من قدر من المرارة فقد كان استعداده للفرح ونزوعه إلى الجوانب المضيئة الباسمة من الحياة لا يقلان عما نجد فى عمر وأبى نواس ففيه ما فيهما من القدرة على الاستمتاع العميق بمباهج الحياة وفيه ما فيهما من إيثار للتفاؤل وعزوف عن العبوس والتشاؤم . فانك لا تجد فى شعرهما قصيدة تفوق هذه القصيدة مرحا ونشاطا هذا مع أنهما كانا مبصرين وهو كفيف وكانا وسيمين وهو دميم وكانا محببين معززين وهو مبغوض محتقر . فليفكر القارىء مرة أخرى فى ذلك الفتى الهندى الذى قصصت قصته . . .

خشوع

يا ليلتى تزداد نكرا ‏ ‏ ‏ ‏ من حب من أحببت بكرا
حوراء إن نظرت اليـ ‏ ‏ ‏ ‏ ـك سقتك بالعينين خمرا

وكأن رجع حديثها ‏ ‏ ‏ ‏ قطع الرياض كسين زهرا
وكأن تحت لسانها ‏ ‏ ‏ ‏ هاروت ينفث فيه سحرا
وتخال ما جمعت عليـ ‏ ‏ ‏ ‏ ـه ثيابها ذهبا وعطرا
وكأنها برد الشرا ‏ ‏ ‏ ‏ ب صفا ووافق منك فطرا
جنيـة إنسـية ‏ ‏ ‏ ‏ أو بين ذاك أجل أمرا
وكفاك أنى لم أحط ‏ ‏ ‏ ‏ بشكاة من أحببت خبرا
إلا مقالة زائر ‏ ‏ ‏ ‏ نثرت لى الأحزان نثرا
متخشعا تحت الهوى ‏ ‏ ‏ ‏ عشراً وتحت الموت عشرا

بهذه القصيدة نعود إلى تأمل حب بشار للنساء : أكان شهوة جسمانية محضة ؟.

هذه قصيدة أخرى تنفى ذلك. فليلاحظ القارىء مرة أخرى أنى لا أدعى أن بشارا أحب حبا أفلاطونيا، لا أدعى ذلك الآن وما ادعيته قط ، فلا شك أن عاطفته فى هذه القصيدة تقوم على الاحساس الشديد بالجمال الجسدى للمرأة، ولكن أليس هذا هو شأن كل حب من الرجل للمرأة مهما يكن سموه وتحليقه ؟ بلى ، إن كنا ممن يخلصون التفكير ويصرون على نزاهة الحكم، ولم ننخدع بما قد يدعيه البعض من استطاعتهم تمثل الجمال المثالى المجرد . فالحب الأفلاطونى نفسه لا بد أن ينشأ عن جمال جسمانى يجده صاحبه فى المرأة أو يظنه فيها ، ثم يتسامى فى نظرته إليه حتى يستجلى فى صورته المادية انعكاسا من المثل الذى يؤمن به . فالمُثُل الأفلاطونية قد يكون لها وجود حقيقى قائم بذاته

فى عالم آخر، ولكننا معشر البشر لانستطيع إدراكها إلا إذا تجسمت لنا فى شكل حسى ، والذى يدعى القدرة على الأدراك التجريدى يخدع نفسه ويخادع غيره .

فلنبحث الآن فى هذا الحب الأفلاطونى ، أله وجود فى واقع الحياة؟ أهناك من يقتصرون فى نظرتهم إلى محبوبتهم على الاستمتاع الروحى المجرد لايبغون متعة سواه؟ لن ألجأ إلى ما يلجأ إليه البعض من الأنكار التام لوجود هذا النوع من الحب أو التكذيب البات لكل من يدعيه، فانه ربما يوجد ، ولكن وجوده مقصور على فترة من الميوعة العاطفية يمر بها الفتى فى بدء تفتحه العاطفى ، ثم يخلص منها حين يتم نضجه ، فان بقى فيها سائر حياته فهو من الشواذ الذين يحدث لهم اضطراب جسمى أو عقلى يعوق تطورهم ويبقيهم فى مرحلة ينتقل منها معظم الناس ، وهؤلاء قلة خرجت على القاعدة الطبيعية فهم لا يقاس عليهم ولا يستمد من سلوكهم حكم يطبق على سائر الناس أو مثال يطالبون بمحاكاته .

فالحق أن معظم حبنا البشرى يستلزم الاستمتاع الجسمى ويقوم على أساسه . ولكن ليس معنى هذا أنه يبقى فى جميع الناس محدودا فى هذه المتعة الجنسية ، فان بعضنا يستطيع أن يتخذها بداية لنشوة أعلى ومرقاة يصعد عليها إلى أفق أسمى . وهكذا كان حب بشار بلا مراء ، يبدأ بالجسد ثم يتسامى إلى الروح . ونقادنا الذين رأوا افتتانه بالجمال الجسمانى فحكموا بأنه لايعرف إلا النزوع الحيوانى وقعوا فى خطأ بدائى فحواه أن كل من افتتن بالجسد لا يستطيع الافتتان بالروح ، وكل من

تطلب متعة الجسد ينصرف عن نشوة الوجدان، فهم فى الحقيقة يقسمون الحب قسمين لا يرون لهما ثالثا : أما الحب المادى وأما الحب المثالى، وهو خطأ قد نغفره للفتيان فى فترة تهوسهم الخيالى ولكن لانسامحه فى نقاد ناضجين حصيفى التفكير صادقى الملاحظة لحقائق الحياة .

عد الآن إلى القصيدة وتأمل أولا رقتها البالغة ، بألفاظها وأنغامها ووزنها ورويها ، أكانت هذه الرقة تتحقق لرجل ليست المرأة عنده إلا أنثى يصبو جسد الرجل إلى جسدها ، وأداة يرضى بها غريزته ؟ أم هى رقة « ليس يحتاج الشاعر إلا لأن يكون « حيوانا » ذكيا » لتتأتى له ؟ أيمكن أن تكون رقة صناعية متكلفة يستطيعها أى صناع حاذق فلا تدل على حنين صادق وشوق مخلص؟

ثم تدبر وصف بشار لهذه الفتاة ، انظر أولا وصفه لها بأنها «بكر» ومايشيعه هذا اللفظ فى القصيدة كلها من معانى البراءة والطهر، والوداعة والحياء ، التى تقرنها أذهاننا بالعذراء، وهى لفظة تتخذها جميع الآداب التى نعرفها رمزاً لهذه المعانى ، فان قرنها أحدنا بالأفحاش والاغتصاب فهذا إثمه هو لا إثم بشار فى هذه القصيدة ، أو هو ظل الرائية الأخرى لا يزال يفسد عليه نظره فى غزل بشار ، فليس فى باقى القصيدة كلمة واحدة تعززه .

وهذه اللفظة تعطيك مفتاح هذه القصيدة ، فشعور بشار فيها نحو الفتاة شعور إجلال يصل حد الرهبة والخشوع ، خشوع البشر أمام السر الألهى المحجب .

ثم يصفها بشار وصفا يستمده من أسلوب المبصرين :

حوراء أن نظرت اليـ ـك سقتك بالعينين خمرا

ولكنه سرعان ما يعمد إلى وصف ناحية من جمالها يعرفها حق المعرفة ، جمال صوتها وفتنة حديثها :

وكأن رجع حديثها قطع الرياض كسين زهرا
وكأن تحت لسانها هاروت ينفث فيه سحرا

والذى يقول هذا الشعر الجميل قد شغف حقا بصوتها الجميل وحديثها الفاتن . والذى يفتنه فى المرأة حديثها ليس حيوانا همه الأشباع الجسمى .
وليس هذان البيتان هما كل ما قال بشار فى وصف شغفه بالحديث ، فله فى هذا المعنى أشعار كثيرة جمعها نقادنا المحدثون فلا نحتاج هنا إلى الاستشهاد بها ، والعجيب أنهم حين يجمعونها لا يلتفتون إلى المغزى الحقيقى لكثرتها فى شعره ، ولا إلى استحالة صدورها من رجل يقولون عنه أنك « لا تقرأ له بيتا واحدا [بيتا واحدا !] يسمو به إلى إدراك « النفس » الأنثوية وما فيها من حلاوة صافية ورحمة سماوية وكنوز عطف تغذى بها وجدان الرجل » . فلم شغف بحديث المرأة كل هذا الشغف وافتتن إلى هذا الحد من الافتتان ؟

وليس أقطع فى الدلالة على صدق افتتانه هذا من طريقته فى الوصف ، صحيح أن ثانى البيتين ليس إلا التشبيه التقليدى الذى لا يدل بالضرورة على إعجاب صادق ، وإن كان لا يطعن بالضرورة فى صدق

الإعجاب ، ولكن أولهما يحتاج إلى نظر ملى ، فأسلوبه تام الابتكار تام الجدة على الشعر العربى ، والشاعر الذى لا يكتفى بالتشبيه المعهود بل يجهد نفسه فى أن يعبر عن شعوره الشخصى تعبيرا شخصيا مستقلا يدل على صدق العاطفة التى يدعيها ، وخصوصا إذا لاحظنا أن هذه المحاولة تلجئه إلى أسلوب غريب لم يعهده سامعوه ، ولا يزال غريبا على الكثيرين منا برغم سيرورة شعره ، بل أحد نقادنا العظام يصعب عليه فهمه فيذهب فى تفسيره مذهبا لا يمكن أن يكون الشاعر قصده ، نعنى المازنى حين يقول (١) عن هذا البيت : « وأولى به أن يكون تشبيها لأنفاسها وطيبها ، وإن كان مقبولا بمعنى أن نسيم الرياض ينعش الجسم ويحيى النفس » .

فليس غرض بشار أن يصف أنفاسها وطيبها أى رائحة فمها حين تتحدث ، وإنما غرضه أن يحدد الصفة السمعية المحضة لصوتها . أى وقعه على الأذن ، أو قرع تموجات الصوت فى الهواء لطبلة أذنه ، وما لهذه التموجات من تكرر وأثر ينقطع ويستأنف ويسترسل برهة بعد انتهاء الوقع الحسى ، وهذا يتضح لك أن تأملت كلمة « رجع » . فبشار كان مفرط الحساسية بتأثير الصوت ، فلم يكن يسمع فيه نغمة واحدة أو نغمتين إحداهما عالية ، والأخرى منخفضة ، أو إحداهما رقيقة والأخرى ضخمة ، بل كان يسمع فيه أنغاما متجددة متناهية لا عدد لها ، لا يستطيع المبصر تمييزها احداها عن الأخرى اللهم إلا إذا كان موسيقيا موهوبا .

(١) صفحة ٦٨ من كتابه عن بشار فى سلسلة أعلام الإسلام .

وغرابة وصفه أن يشبه رجع الحديث بقطع الرياض المكسوة بالزهر ، وهذه لا تسمع ، بل ترى ، فهو ينقل تأثيره العاطفى من حاسة إلى حاسة ، والذى يدفعه إلى هذا هو أنه يحاول أن ينقل شعوره الدقيق إلى المبصرين بلغة يفهمونها . والمفتاح إلى فهم محاولته هو كلمة «قطع» ، فالرياض التى يختارها للتشبيه هى إذن قطع مختلفة الألوان ، لأن كلا منها ينبت زهرا مختلفا ، فهو يقول للمبصرين : إن الأنغام المختلفة التى أميزها فى رجع حديثها هى كالألوان المختلفة التى تراها عيونكم فى الرياض المزهرة . وشرحنا هذا ليس مجرد تخمين ، بل الدليل على صحته بيته الآخر :

وحديث كأنه قطع الرو ض فيه الصفراء والحمراء

فالأذن الموسيقية المرهفة يتتابع عليها رجع الحديث فتميز فيه بين عشرات الدرجات الصوتية ، كالعين المبصرة تميز بين عشرات الظلال اللونية ، وبشار يخاطب أناسا معظمهم لا يستطيعون هذا التمييز المرهف فى درجات الصوت ، ولذلك يختار لهم تشبيها قد يفهمونه ، ولو أنه كان يخاطب موسيقيا متخصصا لما احتاج إلى هذا التشبيه بل افهم غرضه مباشرة .

والعجيب أن الموسيقيين النابغين الذين نعرف سيرهم كانوا كثيرا ما يخلطون بين حاسة السمع وحاسة البصر ، فيتخيلون للأنغام ألوانا أو يرون الألوان فتستدعى إلى مخيلتهم الموسيقية نغمة معينة ، وهذا يستطيع علماء النفس تعليله بتداعى الخواطر واقتران نغمة معينة ولون

معين بتجربة واحدة فاذا تكررت التجربة استدعى أحدهما الآخر .

ولكن ماشأن بشار وهو لم ير ألوانا ؟ العلة هى أنه إن لم يكن اللون الأحمر مثلا فانه سمع الكثير من وصف الناس له وحديثهم عنه وشعورهم نحو الأشياء التى تتلون به ووصفهم لهذا الشعور فى نثرهم وشعرهم ، فكون لنفسه من هذه الأوصاف « كنها » خاصا للون الأحمر ، فحين تقرع أذنه نغمة يجدها بقريحته الموسيقية الحساسة تثير فيه عواطف مشابهة فطبيعى أن يربط بينها وبين اللون الأحمر . ولابد لنا فى متابعة هذا كله أن نتذكر ما تدل عليه أخباره من أنه كان شديد الشغف بالموسيقى والغناء ، بل يقولون أنه « كان صاحب صوت حسن » ، ومعنى هذا بالطبع أنه كان كثيرا ما يلجأ إلى التغنى فى مجالسه السعيدة ولا يكتفى بالتكلم أو الانشاد[1] . فاذا ضممنا هذا إلى تأثره الشديد بجمال صوت المتحدثات والمغنيات فقد يحق لنا أن نستنبط أنه لو أتيحت له فرصة التعليم والتدرب منذ صباه لكان موسيقيا متخصصا . فهذا إذن تفسير قرنه بين الأنغام والألوان ، وبيته العجيب الرائع :

وإذا دخلت تقنعى بالحمر ، إن الحسن أحمر !

يذكرنى بما روى لى عن ذلك الموسيقى الانجليزى المكفوف الذى ذكرته سابقا ، فقد قص على أصدقاؤه أنه كان يجلس إلى البيانو فيقول لهم : تظنون أنى لا أعرف الألوان التى تتحدثون عنها ! هذا

---

(١) أضيف إلى هذا أن مخطوطة كتاب طبقات ابن المعتز التى صورها ونشرها عباس إقبال نجد فيها هذه الجملة « وكان مفننا بارعا » ويغلب على ظنى أنه تحريف صحته « وكان مغنيا بارعا » .

هو اللون الأحمر — ثم يوقع على أصابع البيانو لحنا خاصا . وهذا
هو اللون الأزرق ـ ثم يوقع لحنا آخر ، وهكذا .

فبشار لم يقصد وصف رائحة أنفاسها وتشبيهها بنسيم الرياض فى
الطيب أو الأنعاش ، وإنما يريد أن يصور للناس اللذة السمعية التى
يجدها فى الاستماع إلى صوتها ذى الأنغام المتعددة الدقيقة ، فلجأ إلى
تشبيه يستطيعون أن يفهموه فشبه تعدد هذه الأنغام بتعدد الألوان
والظلال التى يرونها بعيونهم ويصفونها فى حديثهم وأدبهم الشعرى
والنثرى ، ولكن الذى نقصد إليه من هذا الاستطراد هو إثبات صدق
عاطفته ، فان الشاعر الذى يلجأ إلى هذا الوصف الغريب محتوم أن
يكون صادقا فى الشعور الذى يدعيه ، وهو افتتانه الخالص بحديث
المرأة . والذى يشغف بالحديث هذا الشغف لا يكون احساسه نحوها مجرد
إحساس الحيوان الذكر نحو أنثاه . على أن بشارا فى البيت القادم :

وتخال ما جمعت عليـ ـه ثيابها ذهبا وعطرا

يعطى الدليل الأعظم على أن انفعاله أمام جمال المرأة لم يكن مجرد
الشبق الجسمى ، بل هو هنا يمتزج بالخشوع والرهبة ، فالرهبة والخشوع
خير وصف للشعور فى هذا البيت . يفكر بشار فى جمال جسمها ،
هذا ما نسلم به ، لا ندعى أنه يفكر فى جمال روحها ، ولكن إذا بهذا
الجمال الجسمى سر خفى مرهوب يخشع له ويقشعر حين يفكر فيه كما
يقشعر العابد إذ يدنو من محراب إلهه الذى يعبده ، وهذه القشعريرة
تكاد تحس بها احساسا جسميا إذا تأملت رمزه « ما جمعت عليه ثيابها » .
لا يقول جسمها ، ولا يقول أعضاءها كذا وكذا ، بل ليس يقول

جمالها ، بل يرمز إليه بهذا الرمز المبهم « ما جمعت عليه ثيابها » . فالذى
جمعت عليه ثيابها شىء نفيس محجب لا يكتنه سره المستخفى ، ولكن
يصل منه إشاعات تنم عليه ، فهو شىء وهاج متألق له بريق الذهب
يكاد سناه يذهب بالأبصار ، وله شذى أرج شديد الفعل بالعقل يثير
فى رأسه دوارا ، ولأمر ما يحرقون فى محاريب العبادة أنواع العطور ،
ويوقدون الشموع والنجف ذات الضوء المتقطع المهتز ، حتى فى عصرنا
الكهربائى يؤثرونها على المصابيح الكهربائية ذات الضوء الثابت ،
واضطراب بشار ودواره تحس به أيضا فى قوله « تخال » فهو لا يدرك
تماما حقيقة انفعاله وإنما هذا ما يخاله . وتشبيهاه نجد أحدهما مرة أخرى
مستمدا من أسلوب المبصرين ولكن ثانيهما شىء هو به جد خبير .

ثم تأمل قوله :

وكأنها برد الشرا ب صفا ووافق منك فطرا

فلنفكر مليا فى هذا الشعور الذى يصفه ، أى شعور هو ؟

تكون شديد العطش بعد يوم طويل مرهق من أيام الصوم . ثم
يقبل إليك قدح من الماء البارد السائغ الشهى ، فتشرب فيروى غلتك .
فأى شعور تشعر به ؟ لا شك أن أول ما تشعر به هو الارضاء الجسمى ،
كنت تشعر بألم جسمى من فرط عطشك ، فقد انتهى الآن هذا الألم
وأعقبته لذة الرى ومتعة الراحة الجسمية . ولكن أهذا كل شىء ؟
بل يتبع ارتياحك الجسمى ارتياح نفسى عجيب ، تهدأ وتقر وتحس
بالرضى والبشر وتبتسم للناس والحياة ثم تنتعش روحك وتخالطها

الأريحية وتحس بنشوة من الاستبشار نسميها السعادة . هذا هو الشعور الذى يصفه نحو محبوبته ، يبدأ بأن يكون إرضاء جسميا وينتهى بأن يكون نشوة روحية .

وهذا هو الشأن فى كل المتع الروحية التى نستطيعها نحن أبناء آدم، حتى النشوة الفنية الصافية تبدأ باستمتاع حسى تستمتع به أذننا بكلمات أو أنغام جميلة الوقع على الأذن أو تستمتع به عيننا بألوان وأجرام جميلة الوقع على العين. بل هذا هو الشأن فى النشوة الدينية تبدأ بالطرب الحسى من تنغيم القرآن المعجز أو حلاوة ترنيم الأناجيل والمزامير أو شجى ألحان الأرغن أو الدفوف أو شذى عطر الأعواد والبخور. ذلك أقصى ما نستطيع معشر البشر فليقل أنصار الحب الأفلاطونى ما يقولون .

فإن بقى عندك شك فى سمو عاطفة بشار فاستمع إلى هذا البيت :

جنيـــة أنســـية أو بين ذاك أجل أمرا

أفقائله لايرى فى المرأة إلا « أداة يرضى بها غريزته » ؟ أم هو لايحتاج « إلا لأن يكون حيوانا ذكيا » ؟ أم هو رجل لايدرك مافى النفس الأنثوية « من حلاوة صافية ورحمة سماوية » ؟ ما معناه ؟ هى شىء عجيب محير لا يستطيع أن يفهمه ، والشىء الوحيد الذى يثق به هو أنها ليست مجرد مخلوق بشرى . أفجنية هى ؟ ولكن لاشك أن لها جسم الإنس وصفات الإنس . أم تراها نصف إنسى ونصف جنى ؟ أم تراها شيئا سوى هذا كله ، مخلوقا آخر من جنس مختلف تماما ،

لا هو بالأنس ولا هو بالجن ، بل يشبه كلا منهما فى بعض صفاته ، ولكنه يفوقهما تماما ويعلو عليهما معا ؟

الذى يشعر بهذا الشعور نحو المرأة لايمكن أن يكون اقتصر على أن يفهم « الأنثى الجسد » فهما حيوانيا ، بل لايمكن أن يكون اقتصر على بشريتها ، إنما تجلى له فيها مغزى يبدأ بالبشرية ويتصعد بها ، مغزى علوى ، مغزى إلهى .

أما الأبيات الثلاثة الأخيرة فيقص فيها بشار قصة هذه القصيدة ، وهى أنه انتظر محبوبته فى ليلة واعدته عليها ، ولكنها لم تأت ، ثم أرسلت إليه جاريتها تعتذر إليه بمرضها، فقضى زمنا يتنازعه ألمان ، تارة يتأجج شوقا وحرمانا وتارة يكاد يقتله الخوف عليها لما بلغه عنها من مرض سمع به ولا يعرف كنهه أو مقدار خطورته . والذى لايرى فى هذه الأبيات حرقة صادقة غير مدعاة قد صمم على ألا يرى ببشار لونا واحداً من الصدق :

وكفاك أنى لم أحط بشكاة من أحببت خبرا
إلا مقالة زائر نثرت لى الأحزان نثرا
متخشعا تحت الهوى عشرا وتحت الموت عشرا

أيها الساقيان صُبّا شرابى !

كل هذه قصائد جميلة مطربة ، وهى وحدها كافية أن تنزله فى الشعر العربى منزلا رفيعا ، ولكن أجمل شعره عندى، وأشده جميعا تأثيرا فىّ ،

هو أبياته الفائقة الشجية ، وددت لو كتبتها بماء الذهب إن كان فى هذا اكرام للشعر :

أيها الساقيان صبا شرابى   واسقيانى من ريق بيضاء رود
ان دائى الظما ! وان دوائى   شربة من رضاب ثغر برود
ولها مضحك كثغر الأقاحى   وحديث كالوشى وشى البرود
نزلت فى السواد من حبة القلـ   ـب ونالت زيادة المستزيد
ثم قالت : نلقاك بعد ليال   والليالى يبلين كل جديد
عندها الصبر عن لقائى وعندى   زفرات يأكلن قلب الحديد

لعلامتنا الجليل الأستاذ احمد أمين مقالة طريفة(١) يشرح فيها الرأى القائل بأن الذوق لا يعلل ، فيروى من أدلة أصحابه أن « الناظر ينظر إلى الصورة فيستجملها أو يستقبحها ، فإن أنت سألته : لم استجملتها أو لم استقبحتها ؟ لم يحر جوابا ، وإذا أجاب أجاب بكلمات منمقة ، ولكنها جوفاء ، لا تحوى علة ولا توضح سببا ، وإنما هى نفس الدعوى بألفاظ رشيقة جميلة ، وإذا رأيت طاقة من الزهر قلت : ما أجملها ! ولكن ان سئلت : لم كانت جميلة ؟ قلت : إنها منسقة ، أنها بديعة الألوان ، أن نفسى لترتاح إلى رؤيتها ، أنها لتسر النظر وتبهر العقل ، وأنت غنى عن أن أقول لك أن هذه ألفاظ وجمل قد ترضى البلاغة ، ولكن لا ترضى المنطق . . . لا شىء فى الحقيقة إلا الذوق الذى لا يعلل ، وهذا هو الشأن فى الأدب ؛ وأظهر مثل لذلك ما فعله عبد القاهر

(١) مقالة « كيف يرقى الأدب » فى الجزء الأول من فيض الخاطر

الجرجانى فى أسرار البلاغة ودلائل الاعجاز ، فماذا صنع ؟ أنه يأتى بالبيت الجميل ثم يقف ويتساءل : فيم كان جماله ؟ فما هو إلا أن يصوغ لك جملا رشيقة ، فيقول : أن هذا اللفظ يروقك ويؤنسك . وغيره يثقل عليك ويوحشك ، وهذا الوضع يبهرك جماله . وهذا النظم يأخذ بلبك ما فيه من نسج وصياغة ، ووشى وتحبير . . . »

ثم يمضى فى تفنيد هذا الرأى وإن سلم بأن فيه شية من الحق ، ويقول أنه إن كان الفن نتيجة الذوق لا محالة ، فان الذوق يمكن تربيته وترقيته . وتفنيده صحيح ، وادعاؤه عن إمكان تربية الذوق وترقيته مصيب ، للأسباب التى يذكرها ، ولأنه ليس من الحق أن يقال أن كل بضاعة الناقد الأدبى أن يقول ما أجمل وما أروع ، أو أن هذا ليروقنى ويؤنسنى ، وأن هذا ليبهرنى جماله . بل فى استطاعته — إن كان ناقداً مجربا — أن ينجح فى اقناع قارئه بوسائل فى التحليل عملية ، ونصائح وإرشادات إذا اتبعها قارئه وكان ذا استعداد فطرى حسن انتهى إلى أن يرى فى الشعر المدروس نفس الجمال الذى يدعيه الناقد .

كل هذا صحيح ، ولكنى أعود فأقول : ان فى الأدب قطعا معجزة الجمال ، يأتى إليها الناقد فينبهر ، فان حاول « تحليل » جمالها كان أقصى حيلته الادعاء الذى لا يقوم عليه تدليل ، وكان أقصى أمله أن يثير فى القارىء نفس الحالة العاطفية التى تخالجه ، بأن يسهب فى وصفها فلعل انبهاره تنتقل عدواه إلى القارىء .

فها أنذا أجد نفسى فى نظير هذا الموقف ، لا أدرى ماذا أقول لأشرح

للقارىء مبلغ تأثير هذه الأبيات فىّ ، وعزائى الوحيد أن أرى من نقاد الأدب ، عربيه وغربيه ، من هم أعظم منى مكانة وأرسخ قدما ، يجدون أنفسهم بين الفينة والفينة فى مثل هذا المأزق العسر ، حين تجبههم معجزات الأدب بأتم روعتها فيصعقون ولا يستطيعون كلاما « يرضى المنطق » .

ما ذا أقول ؟ هل أتحدث عن رقة الألفاظ وعذوبتها ، أو عن مافى التنغيم من حنان وإشجاء ، أو عن ملاءمة بحر الخفيف ، بهدوئه وجلاله ، لهذا الحزن الهادىء الجليل الذى يتملك الشاعر ، لا ثورة فيه ولا سخط ، بل أسى وجدانى وشجن وديع شديد التأثير فى القلب .

كل هذا صحيح ، ولكنه بأجمعه لا يكفى فى تعليل مقدار الشجى الذى تبتعثه هذه القصيدة ، فهذا « المقدار » أعظم بكثير مما يبدو أن هذه الألفاظ اللغوية المألوفة حقيقة بابتعاثه . فأنا أكتفى بأن أنبه القارىء إلى أن هذه المقطوعة أشد شعر بشار احتياجا إلى الغناء . فقراءتها لا تكفى أبداً ، بل يجب وجوبا أن يتغنى فيها ، وما أظن أسبوعا يمر بى إلا حاولت ذلك وتمنيت لو كان الله وهبنى صوتا جميلا من أجلها ، وتمنيت لو استكشفها بعض مغنينا البارعين ، فغنوها بدلا من هذه الأغانى السخيفة السقيمة التى يفسدون بها أذواق الناس كل يوم ، فانهم سيجدون فى هذه المقطوعة كل ماتشتهيه أنفسهم من العاطفية والجوى والحرقة ، ولكنها عاطفية صحيحة لا مرض فيها ، وجوى سليم لا ميوعة فيه ولا سقم ، وحرقة صادقة لا كذب فيها ولا مبالغة ، ولقد هممت مرات بأن أكتب إلى أشجاهم صوتا وأصدقهم نشوة فنية

أسأله غناءها وألحف فى السؤال ، مشترطاً شرطاً واحداً : أن يكون تلحينه فيها بسيطاً إلى أقصى حد من البساطة ، عربياً خالص العربية لا شية فيه من التقليد الأفرنجى أو « التجديد » المزعوم .

ولكن دعنا من هذا كله ، فلنتأمل هذا « الظمأ » ، الذى يتحدث عنه بشار والذى تنطق به القافات الثلاث فى البيت الأول ، فتمثل لنا ما يحدث للعطشان من تحريك الحلق انتظارا للشراب ، أو ما نسميه « بلع الريق » . أى ظمأ هذا ؟ .

أهو ظمأ إلى مجرد شراب مادى ، أم هو ظمأ إلى مجرد شراب بشرى؟ بل هو ظمأ روحانى رفيع ، وإن كان الشاعر لا يعبر عنه هذا التعبير . صحيح أن منشأه تعطشه إلى جمالها الجسمى ، إلى اللذة المادية لريقها البارد الشهى . وصحيح أن الشاعر يقول أن دواءه شربة من رضابها . ولكنه لا يقف عند اللذة المادية ، وهذا الدواء الذى يريده ليس إلا بدءا للنشوة العليا التى ستليه . وإلا فتأمل فى كل بيت من أبيات المقطوعة يلى البيتين الأولين ، تجده لا يريد تقبيلها فقط ، بل يريد أيضاً أن يستمع إلى ضحكها ، وان تداعب أذنه نغمات حديثها ، وهو هنا ينقل إحساس السمع ، لا إلى إحساس البصر كما فعل سابقا ، بل إلى إحساس اللمس ، فيجد لهذه النغمات على مسمعه نعومة ودقة وإرهافا يكاد يكون ملموسا كوشى البرود حين تتحسسه أطراف الأصابع(١) . ثم تأمل فى نزولها فى السواد من حبة قلبه ، ونيلها زيادة المستزيد .

---

(١) وهذا ما يفعله كبار الموسيقيين أيضا ، يجدون للانغام ملمسا ويتمثلون فى الألحان المختلفة درجات مختلفة من النعومة والملاسة أو المتانة والسمك أو الأحجام المستديرة والمربعة والمثلثة .

فالذى يتأمل بيته الرابع يقطع بصدقه ، فهذه اللهجة الحارة الشجية « نزلت فى السواد من حبة القلب » ، وهذا التعبير الدقيق « السواد من حبة القلب » ، وهذه النجوى الوالهة « ونالت زيادة المستزيد » ترن أنغامها بالصدق . أما لهفته ونفاد صبره فى البيت الخامس ، وزفراته اللائى يأكلن قلب الحديد فى البيت الأخير ، فهى أعظم بكثير مما تستدعيه رغبة جسمانية محضة .

وهاتان هما الحقيقتان اللتان لا أظن فيهما مجالا للشك . للقارىء أن ينزل الأبيات منزلة فى الشعر دون ما أدعى لها ، وأنا أدعى لها الذروة العليا التى لا منطلق بعدها ، فالخلاف فى قدر الأجادة مشروع فى النقد وربما تتحكم فيه عوامل شخصية لا يمكن التجادل فيها. ولكن ما أظن ناقدا منصفا يستطيع أن ينكر هاتين الحقيقتين : أن اللهفة فى هذه الأبيات تامة الصدق ، وأنها لهفة تعلو كثيرا على اللهفة المادية . فبهذه القصيدة وحدها أستطيع أن أواجه نقادنا الذين يتهمون بشارا بالنفاق والكذب فى كل شعره ، ويصفونه بالتكلف فى كل شعور يدعيه ، وينكرون أن يوجد فى شعره الهام أو حنين أو أشواق أو بدوات أو خيال ، ويدعون أن كل صبوته صبوة الجسد إلى الجسد ، فان لم نجد فى هذه الأبيات نغمة ساحرة ترتفع بالنفس إلى عالم الأحلام والأشواق وتسبح بها فى فراديس الأفراح والأشجان فلنستأنف التأمل فيها ، ولنعده كرة بعد كرة ، ولنتغن بها يوما بعد يوم وشهرا بعد شهر ، ولنعش مع قائلها ولنفتح له قلوبنا ولا نغلقها دونه ، ولنسمح لشجنه وحنينه بأن يتغلغل إلى السواد من حباتها ولا نقم فى سبيله العراقيل

والحواجز : ثم لننظر ماذا نرى ، فان ظللنا على رأينا فيها من الانتقاص فقد يكون لرأينا بعد هذه المحاولة المخلصة قيمة ، أما قبلها فلا . فالسبيل الواحدة إلى التقدير الفنى الصحيح أن تبذل جهدك فى المشاركة العاطفية ، فان لم تفعل فليس بمستغرب ألا تجد جمالا فى أى عمل فنى ، قصيدة كان أو صورة ، أو قطعة موسيقية أو تصويرا منحوتا .

على أنه لا يزال بيدى وسيلة فى الاقناع ألجأ الآن اليها ، وهى وسيلة كثيرا ما تكون فى النقد الأدبى خير الوسائل ، بل يدعى البعض أنها دائما خير الوسائل ، وهى المقارنة . فلعلها تقدم إلى القارىء معونة عظيمة فى تكوين رأيه الخاص عن قصيدة بشار . فأسوق اليه قطعة من أروع الشعر الانجليزى وأشهره . ثم أتأمل فى مقدار اتفاقها مع قصيدتنا العربية ومقدار اختلافها عنها . وهى القطعة الآتية للشاعر الاليزابيثى المعروف بن جونسون Ben Jonson :

Drink to me only with thine eyes,
And I will pledge with mine;
Or leave a kiss but in the cup
And I'll not look for wine.
The thirst that from t al doth rise
Doth ask a drink divine;
But might I of Jove's nectar sup,
I would not change for thine.

كلما تذكرت أبيات بشار تذكرتها ، وكلما أحزننى أن مقطوعة بشار لم يتغن فيها أحد كبار مغنينا تعزيت بأن زميلتها الانجليزية قد

وضعت فيها بضعة من أعذب الألحان . وهذه ترجمتى المتهافتة لتلك المقطوعة الفائقة :

بعينيك اشربى نخبى   أعاهدك بعينيا
ذرى لى قبلة فى الكأ   س تكفى عطشى ريا
فإن الظمأ الروحى   يبغى الشرب روحيا
ولو أنى رشفت الرا   ح من ربى الهيا
لما استبدلت من ذاك الـ   ـطلا القدسى إنسيا

هذا إذن هو السبب الذى يدفع بالشاعر إلى طلب الرى الإنسانى . هو فى الحقيقة يريد النشوة الالهية ، ولكن أنى للبشر بها إلا عن سبيل النشوة الأنسية ؟ ولذلك يريد أن يستمتع بالنظر إلى عينيها الساحرتين ويتذوق ريقها الحلو ، فهذا مسلكه إلى الانتشاء الروحى ، لايجد سواه .

لاشك أن المقطوعة الانجليزية أتم تعبيرا وأقوى تصريحا ، فالشاعر يصرح بتعبيرات « ظمأ الروح » و « رى الروح » . ولكن هذا هو كل الفرق ، وهو بعد فرق أسلوبى سطحى ، أما الفكرة الكامنة فهى هى والعاطفة المختزنة هى هى ، فان لم تجد بشارا يستعمل هذه التعبيرات فلا يصرفنك هذا عن تعمق فكرته الحقيقية التى يودعها كل بيت من أبياته الستة ، فانما منعه من مثل ذلك التعبير المحدد أنه لم يكن معروفا فى تاريخ الشعر العربى إلى عصره . فلا تحسبن أن وجه المشابهة بين الشاعرين يقتصر على أن كلا منهما يرفض الخمر ويطلب قبلة الحبيبة ، فان الشعور الذى يضمنه بشار هذه الكلمة الواحدة : « الظما » هو هو

الذى يطلب الشاعر الإنجليزى فى وصفه ببيت كامل : « الظمأ الذى يتصاعد من الروح » . بهما نفس الداء وهما يلتمسان نفس الدواء ، ولا يريان اليه وصولا إلا عن سبيل قبلة الحبيبة . فان كان بن جونسون يريد إلى جانب هذه القبلة أن ينظر إلى عينيها ، فان بشارا يريد أن يسمع ضحكتها وحديثها . وإن كان الشاعر الأنجليزى يصرح فى بيتيه الأخيرين بأنه لو وجد سبيلا إلى الخمر الإلهية لما احتاج إلى قبلتها ، والشاعر العربى لا يقول شيئا من هذا ، فلاحظ اختلاف العصرين والثقافتين .

النهاية

وداع الغزل؛ ووداع الحياة

هذا ـ أيها القارىء ـ هو الشاعر الذى قالوا عنه أنه لاينظم الشعر إلا تكلفا ومعابثة ، وإن ما بشعره من رقة لايمكن أنكارها إنما هى رقة تصنعها تصنعا وكان غرضه منها لا أن يعبر عن حنين صادق فى قلبه ، بل أن يسهل رواية شعره على الألسنة حتى يذيع ويعم فساده . على أن الدليل النهائى على مكانة الغزل من نفس بشار هو مبلغ حزنه حين نهاه المهدى عن إدخاله فى شعره . فلو كان لاينظم الغزل إلا للهو والتعابث أو لمآرب عملية لما حزن كل ذلك الحزن وتفجع إلى تلك الدرجة من التفجع حين منع منه ، فحسرته هذه تدل على أن الغزل كان له متنفسا صادقا عن حاجة نفسية ملحة غلابة .

والقارىء الذى درس ما مضى من قصائد غزلية صادقة العاطفة قاهرة الإحساس ورآه يفرغ فيها خالص شعوره ويعبر بها عن ظمأ جسمه وروحه يستطيع أن يقدر وقع هذا النهى على نفسه . فالمهدى إذ حرمه الغزل إنما حرمه الحياة دون أن يدرى ، ولعل هذا هو الذى حدا به إلى تقبل القتل برضى واستخفاف ، فأى خير بقى له فى الحياة ؛ وأى مطلب للشاعر الصادق الذى يحجز عن متنفس روحه وملاك وجدانه؟

وسندرس الآن قصائد خمسا يضمنها جواه ولذعته ، وهى من آخر القصائد التى نظمها فى حياته ، نبدأ منها بهذه القصيدة الرائعة المشهورة :

يا منظرا حسنا رأيتـه　　　من وجه جارية فديته

بعثت إلى تسومنى　　　برد الشباب وقد طويته

والله رب محمـد　　　ما إن غدرت ولا نويته

أمسكت عنك وربما　　　عرض البلاء وما ابتغيته

إن الخليفــة قد أبى　　　وإذا أبى شيئا أبيته

ومخضب رخص البنا　　　ن بكى على وما بكيته

ويشوقنى بيت الحبيـ　　　ب إذا ادكرت وأين بيته

قام الخليـفة دونه　　　فصبرت عنه وما قليته

ونهانى الملك الهمـا　　　م عن النسيب وما عصيته

لا بل وفيت فلم أضع　　　عهدا ولا وأيا وأيته

وأنا المطل على العدا　　　وإذا غلا علق شريته

أصفى الخليـل إذا دنا　　　وإذا نأى عنى نأيتـه

هذا حزن صادق يلتهب به كل بيت ، والقافية المذيلة بالهاء الساكنة تختم كل بيت بزفرة ملتاعة شـديدة اللفح للقلوب ، والياء الساكنة تصدر ما يشبه صرخة ألية من صدر مجروح

يعتذر بشار إلى صديقته عن إمساكه عن زيارتها ويؤكد لها أنه اضطر إليه ، ويقسم لها على ما نسلم له به دون حاجة إلى قسم منه : يقسم لها على وفائه للأصدقاء وتنزهه عن الغدر بل عن مجرد العزم عليه . ويشرح لها ـ ولنا ـ لم أطاع الخليفة . لم يطعه جبنا ، فمهما تكثر عيوب بشار

فليس الجبن أحدها ، والذى أفسد عليه حياته لم يكن الجبن بل الجرأة الزائدة يتحدى بها شعور الناس وعقائدهم طول حياته ، حتى جعل معظمهم أعداء له .

لم يطعه إذن خوفا ، فهو الطويل التحدى للأعداء :

« وأنا المطـل على العـدا »　　　...　　　...　　　...

فلم أطاعه ؟ :

لا ، بل وفيت ، فلم أضع　　　عهدا ولا وأيا وأيته (1)

إنما أطاعه رعاية لحق الصداقة القديمة وأن يكن المهدى قد نسيها أو تناساها ، ووفاء لذكراها وإن يكن المهدى قد خانها . وهذا ادعاء من بشار لاشك عندى فى صدقه ، فإن صح ادعاؤه وتصديقنا فهـذا يزيد غدر المهدى قبحا ، وقد تـكرر نفس الفصل مرة أخرى فى تاريخ الأدب العربى حين غدر الأمين بصديقه القـديم أبى نواس ، فحرم عليه شرب الخمر خوفا من لوم الناس ، فقبل أبو نواس هذا التحريم لعين الدافع الذى وجدناه فى بشار : وفاء للعهد القديم .

على أن الذى يؤلم بشارا أشد الايلام هو هجر المهدى اياه وأبعاده عن مجلسه وحرمانه صداقته بعد ما طال ما استمتع بها . وهذا يحمله على أن يقول فى أنفة واستهانة تدلان فى صميمهما على حسرة عظيمة:

(1) الوأى (بالواو ، وهى القراءة الصحيحة) الوعد والضمان .

... ... وإذا غلا علق شريته(١)

أصفى الخليل إذا دنا   وإذا نأى عنى نأيته

فان كان برغم هذا قد عقد العزم على أن يطيع المهدى حفظاً لواجب الصداقة القديمة فانه يضاعف من روعته . والعجيب أن نقادنا ينصرفون عن استكشاف هذا الوفاء حين يقفون — وقفات عابرة — أمام القصيدة ، كما يتجاهلون حرارتها وصدق التياعها ، فلا يرون فيها إلا محاولة خبيثة من بشار فى أن يعاود الغزل الذى نهى عنه ! فهذا كل ما تفوز به من أحدهم(٢) :

« ونهاه الخليفة المهدى عن الغزل والتشبيب وحبسه قليلا فأمسك وهو كاره وخائف ولكنه كان لا يزال يحتال فى القول . تأمل هذه الأبيات (ثم يروى ستة أبيات من القصيدة ، لا يوردها كلها) وإذا لم يكن هذا من الغزل الذى نهى عنه ، فلا ندرى ما ذا يكون الغزل ؟ » .

والجواب : يكون الغزل قصيدة مماثلة للقصائد الماضيات . فالحق أن ليس فى الأبيات — إذا أحسنا تأملها ولم نتأثر بالتفسير الشائع لها — غزل بالمعنى الذى نعهده فى بشار . فكل ما فيها ذكريات مؤلمة وتحسر شديد على الحرمان الذى فرض عليه فكان شديد الوقع على نفسه .

(١) شرى : باع . أى إذا تغالى على صديق بصداقته وظنها أنفس مما أستحق زهدت فيها.

(٢) المازنى ص ٩٥ .

والقدماء يروون قصة تؤكد صدق عزم بشار حين يقول :

ونهانى الملك الهما   م عن النسيب وماعصيته

وهى قصة وجدت نقادنا يهملون الإشارة إليها . فيروى صاحب الأغانى(١) أنه لما نهاه المهدى عن الغزل :

« حضر مجلسا لصديق له يقال له عمرو بن سمان ، فقال له : أنشدنا يا أبا معاذ شيئا من غزلك . فأنشأ يقول :

وقائل هات أسمعنا فقلت له   أنائم أنت يا عمرو بن سمان

أما سمعت بما قدشاع فى مضر   وفى الحليفين من بكر وقحطان

قال الخليفة لا تنسب بجارية   إياك إياك أن تشقى بعصيان »

* * *

والقصيدة الثانية التى نظمها فى هذه الفترة هى القافية الجيدة التى رويناها من قبل :

خليلى أن العسر سوف يفيق   وإن يسارا فى غد لخليق

وهى أيضا شديدة الحزن واضحة الصدق ، ومعظمها شكوى من قطع المهدى عطاياه ورفضه أن يثيبه على مدائحه ، ولكن حزنها لا يزال مختلطا ببعض الأمل لم ينته إلى اليأس التام ، وفيها نرى ظاهرة جديدة فى حياة بشار وفى شعره ، وهى إقباله على شرب الخمر بإسراف ، يحاول أن يغرق فيها أحزانه :

(١) طبعة دار الكتب ٣/٢٢١

ذرانى أشب همى براح فإننى … أرى الدهر فيه فرجة ومضيق

وما كنت الا كالزمان اذا صحا … صحوت وان ماق الزمان أموق

فالآن اذ حمق زمانه يريد أن يحمق هو أيضا بالاسراف فى السكر، وهى ظاهرة سنزيدها تأملا فى القصيدة القادمة .

* * *

أما هذه القصيدة فخالية من الأمل وخداع النفس بالأمانى ، فيها يتم استيلاء اليأس على نفس بشار ، وهى قصيدة عظيمة الأسى وصدق عاطفتها أظهر من أن يحتاج الى تدليل . ولكن اليأس قد انتهى بحزنها الى الهدوء والتسليم :

يابن موسى ماذا يقول الامام … فى فتاة بالقلب منها أُوام(١)

بت من حبها أوقّر بالكأ … س ويهفو على فؤادى الهيام(٢)

لم يكن بينها وبينى إلا … كتب العاشقين والأحلام

يابن موسى اسقنى ودع عنك سلمى … إن سلمى حمى وفى احتشام

رب كأس كالسلسبيل تعللـ … ـت بها والعيون عنى نيام

حبست للشراة فى بيت رأس … عتقت عانسا عليها الختام(٣)

نفحت نفحة فهزت نديمى … بنسيم وأنشق عنها الزكام

(١) الأوام : حر العطش.

(٢) أوقر . أسكن . وبلى هذا البيت بيت لاتستطيع روايته

(٣) بيت رأس : اسم القرية التى صنعت فيها الخمر .

وكان المعلول منها إذا را … ح شج فى لسانه برسام(١)

صدمته الشمول حتى بعينيـ … ـه انكسار وفى المفاصل خام(٢)

وهو باقى الأطراف حيث به الكأ … س وماتت أوصاله والكلام

وفتى يشرب المدامة بالما … ل ويمشى يروم مالا يرام

أنفدت كأسه الدنانير حتى … ذهب العين واستمر السوام(٣)

تركته الصهباء يرنو بعين … نام إنسانها وليست تنام

جن من شربة تعل بأخرى … وبكى حين سار فيه المدام

كان لى صاحبا فأودى به الدهـ … ـر وفارقته ، عليه السلام

بقى الناس بعد هلك نداما … ى وقوعا لم يشعروا ما الكلام(٤)

كجزور الأيسار لا كبد فيـ … ـها لباغ ولا عليها سنام

يابن موسى فقد الحبيب على العيـ … ـن قذاة وفى الفؤاد سقام

كيف يصفو لى النعيم وحيداً … والأخلاء فى المقابر هام

نفستهم على أم المنـــايا … فأنامتهم بعنف ، فناموا (٥)

لا يغيض انسجام عينى عليهم … إنما غاية الحزين السجام

تأمل فى الأسى العميق المذعن الذى يتخللها ، وقد اختار لها بحر الخفيف ، ولعله أكثر البحور العربية ملاءمة لهذا الحزن اليائس الجليل،

(١) برسام : علة تسبب الهذيان .

(٢) خام : انخذال وضعف.

(٣) العين : الذهب . استمر : مضى كمر. السوام : الإبل الراعية . أى أنفق فيها نقده ثم مايملك من الحيوان الراعى.

(٤) وقوعا : سقطا مهملا لاقيمة له ولاغناء فيه . ماالكلام : لاذكاء لهم ولالهم حسن منطق وبيان ومسامرة.

(٥) نفستهم : حسدتهم

وهو البحر الذى اختاره أبو العلاء لداليته العظيمة «غير مجد فى ملتى واعتقادى». ولقد يشتد به الحزن فيصيح: «فأنامتهم بعنف»، فنظن أنه عائد إلى ثورته القديمة، ولكنه سرعان ما يعود إلى التسليم والاذعان: «فناموا». ويقلع عن عناده القديم فيكتفى بالبكاء ويجد فيه أقصى ما يستطيع أن يفعل: «إنما غاية الحزين السجام».

ثم تأمل الآن هذه الظاهرة الجديدة فى حياته وفى شعره: يصف الخمرَ ويطيل فى وصف مجلسها وفعلها بالشاربين. والسبب واضح وقد ذكره هو، فهو يلتمس فيها عزاء وسلوى عن مصائبه التى تكاثرت، ويستعيض بوصفها عن الغزل الذى حجز عنه. كان بشار من قبل يشرب الخمر ويستلذها، ولكن لم تكن تنزل من نفسه منزلة ممتازة، ولم تكن إلا لذة واحدة من ضمن لذات متساوية، أما الآن فهو يسرف فى شربها يبغى النسيان، كما نرى كثيرين من المفجوعين يفعلون. وهو فى وصفه لها يأتى بهذا البيت الجميل نكاد نحس فيه بنشرها يهب على وجهنا:

نفحت نفحة فهزت نديمى   بنسيم وانشق عنها الزكام

استمع إلى اجتماع الحروف والتنغيم فى قوله: «نفحت نفحة» وقوله «نديمى بنسيم».

وقول بشار: «إن سلمى حمى وفى احتشام» يرينا مرة أخرى أنه لم يترك الغزل خوفا من المهدى بل رعاية للصداقة القديمة وتقدير الحرج موقفه. على أن الذى يضاعف من نكده فى هذه القصيدة أن القدر

اختار هذه الفترة الأليمة من حياته لينتزع منه نفرا من أعز أصدقائه إليه، يروون أن خمسة منهم ماتوا واحدا بعد واحد، وهو فى حالة نفسية هو أحوج فيها إلى الأصدقاء منه فى أية فترة مضت. ووصفه لحرقته على فقدهم عظيم الجمال شديد التأثير فى نفوسنا. ويبدو أن اجتماع هذه المصائب عليه فى وقت واحد هو الذى اضطره أخيرا إلى الأذعان، وهذا ما نراه فى القصيدة التالية.

***

وهذه القصيدة هى أيضا عظيمة الحزن تامة اليأس: (1)

وأخ فجعت به وكان مؤملا   فمضى فتذكرك الحوادث ما مضى
ولقد جريت مع الصِّبا طلق الصِّبا   ثم ارعويت فلم أجدلى مركضا
وعلمت ما علم امرؤ من دهره   فأطعت عاذلتى وأعطيت الرضى
فاشرب على تلف الأحبة أننا   جزر المنية ظاعنين وخفضا
ما كل بارقة تجود بمائها   وكذاك لو صدق الربيع لروضا
ومنيفة شرفا جعلت لها الهوى   إما مكافأة وإما مقرضا
حتى إذا شربت بماء مودتى   وشربت برد رضابها متبرضا
قالت لتربيها اذهبا فتحسسا   ما باله ترك السلام وأعرضا
ويلى عليه وويلتى من بينه   كان المحب وكنت حبا فانقضى

(1) الخالدين ص ٢٥و٢٦

قد ذقت ألفته وذقت فراقه   فوجدت ذا عسلا وذا جمر الغضا

وروى الضاد يكسبها مضاضة شديدة ويجعل لحزنها مذاقا مريرا ، وترى فيها اجتماع النكبات عليه ، من تحريم الغزل ، ووفاة الأصدقاء، وحرمان العطاء من المهدى يشير إليه فى البيت الخامس ، فلا غرو أن يقبل على الشرب بإسراف ، ولا غرو أن يقوده اليأس إلى الأذعان .

فهذا بشار الذى طال صخبه وضجيجه ، وامتد تحديه وعناده ، ينتهى إلى الرضوخ ، فيطيع العاذل ويعطى الرضى ، فقد أدرك بعد سبعين سنة ما كان خليقا بأن يدركه من قبل : أن فردا واحدا لا يستطيع تحدى المجتمع إلى الأبد :

وعلمت ماعلم امرؤ من دهره   فأطعت عاذلتى وأعطيت الرضى

أما أبياتها الخمسة الأخيرة فلا يظنها تحايلا على العودة إلى الغزل إلا من لا يعرف غزل بشار أى شىء كان ، فهذه ذكريات مؤلمة تعاوده على الرغم منه فلا يجد فيها لذة ولا إسعادا ، بل تزيد من تعسه وتوجعه، فأين هى من غزله القديم الطرب المرقص الذى رأيناه . . .

* * *

ولكن ما كان بشار لينتهى إلى الأذعان والتسليم إلا بعد صراع عنيف مع نفسه ، تهم بالتمرد فيقمعها ، وتثور جامحة فيكبحها ، وهذا الصراع العنيف نجده مصورا أدق تصوير فى القصيدة الفذة الآتية :

والله لولا رضى الخليفة ما   أعطيت ضيما على فى شجن

وربما خير لابن آدم فى الـ   ـكره وشق الهوى على البدن
فاشرب على أبنة الزمان فما   تلقى زمانا صفا من الأبن (١)
الله يعطيك من فواضله   والمرء يغضى عينا على الكمن (٢)
قد عشت بين الريحان والراح والـ   ـمزهر فى ظل مجلس حسن
وقد ملأت البلاد ما بين فغـ   ـفور إلى القيروان فاليمن (٣)
شعرا تصلى له العواتق والـ   ـثيب صلاة الغواة للوثن (٤)
ثم نهانى المهدى فانصرفت   نفسى ، صنيع الموفق اللقن
فالحمد لله لا شريك له   ليس بباق شىء على الزمن

تأمل أولا فى البحر الذى اختاره لها . هو المنسرح . أى نفس البحر الذى نظم فيه رائيته «قد لامنى فى خليلتى عمر» ! وهذا من أقسى سخرية الأقدار .

فنفس الوزن الذى وجد بشار ضرباته المتقطعة ومقاطعه المضطربة ملائمة لما أراد التعبير عنه من خلاعة وتمايل متخنث ، يجده الآن بنفس الضربات والمقاطع ، ملائما لاضطرابه الهائج ، وتزلزل صدره بين ثورة وكظم ، وتهدج صوته بين الغضب الذى يجيش به والصبر والهدوء الذى يرغم عليه نفسه .

---

(١) الأبنة : الشر والعيب .
(٢) الكمنة : ظلمة بالبصر ، أو جرب وحمرة فيه
(٣) فغفور : الصين
(٤) العاتق : الجارية أول ما أدركت والتى لم تتزوج . والثيب: المرأة التى دخل بها زوجها أو ضد البكر .

لعل بحر المنسرح أشد البحور العربية اضطرابا ، وسبب ذلك توالى مقاطعه القصيرة والطويلة بكيفية لا يكاد يكون فيها نظام . فالعروضيون يقررون أن أصل البحر «مستفعلن مفعولاتُ مستفعلن» فى كل شطر ، ولكنه لا يأتى على هذه الصورة التامة أبدا . فعروضه دائما مطوية (أى تتحول مستفعلن فيها إلى مفتعلن) ، وضربه دائما مطوى أو مقطوع (أى تتحول مستفعلن فيه إلى مفتعلن أو مفعولن) . أضف إلى ذلك أن « مفعولات » يكثر فيها الطى ، أى تتحول إلى مفعلات ، والخلاصة أننا إذا عبرنا عن المقطع القصير بعلامة « ب » والمقطع الطويل بعلامة (—) يكون هذا هو القالب الذى يكثر ورود الوزن فيه :

— — ∪ —   — ∪ — ∪   — ∪ ∪ —

والذى يتأمل فى توزيع هذه المقاطع لا يرى نظاما أو تناسقا فى تتابعها ، فليست منها مجموعة تتكرر فتكسب النغم ائتلافا ، بل ينتقل اللسان من أحدها إلى الآخر بما يكاد أن يكون حركات متنافرة لا مجاوبة فيها ولا ترديد ، ولعل هذا هو السبب الذى يجعل الوزن شديد الصعوبة علينا فى عصرنا الحديث ، فلست أتذكر قصيدة واحدة حديثة نظمت فيه ، وهو على أى حال يصعب علينا تقطيع أبياته تقطيعا صحيحا ويكثر فيه الخطأ . والقارىء الذى يقدر على النظم يستطيع أن يحقق هذا بنفسه بأن يحاول أن ينظم فيه بضعة أبيات ، فإنه قد يستطيع نظم البيتين أو الثلاثة ولكن أن زاد على هذا وجد صعوبة متزايدة واختلاطا كبيرا .

وقد رأينا كيف لاءمت هذه المقاطع المضطربة ما كان يصوره فى الرائية من تأثر خليع ومن سرور يكتمه ويتظاهر بدلا منه بالحزن . فاقرأ الآن هذه القصيدة الجديدة بعناية وتأن وانظر كيف تصير كل ضربة من ضربات هذا الوزن صرخة مجروحة وطعنة واخزة ، والسبب أنه مهتاج شديد الهياج ولكنه يكبح انفعاله بعنف فيخرج منه كل مقطع كأنه زفرة مختزنة تنفجر على الرغم منه فى حرارة كاوية أو كأنه صرخة طال حبسه لها فهى تنطلق بحدة تطعن الصدر كالمدية .

فى البيت الأول :

والله لولا رضى الخليفة ما   أعطيت ضيما على فى شجن

يكرر بشار أنه لم يطع المهدى جبنا أو خنوعا للضيم وإنما رغبة فى إرضاء صديقه القديم . وهو بيت شديد الضغن عظيم المرارة . انظر كيف تتراوح عاطفته فيه بين نزوع إلى التمرد على الضيم ، فليس ممن اعتادوا على قبوله وليس ممن يرضون بالإيذاء دون احتجاج ، وبين جهده فى قمع ثورته وقبول الضيم والشجن إرضاء للخليفة .

وفى البيت الثانى :

وربما خير لابن آدم فى الـ   ـكره وشق الهوى على البدن

هذا هو العزاء الوحيد الذى يستطيعه ، يريد أن يتعزى بمعنى الآية الكريمة « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم » . ومن منا لم يلجأ فى حياته أكثر من مرة إلى هذه الآية الرائعة الجميلة يجد فيها عزاءه الوحيد حين تشتد به مصائبه

فيعجز عن تغييرها ويعجز عجزا تاما عن فهم الحكمة فيها فلا يرى لجروحه بلسما إلا التسليم التام بقضاء الله وإن ثقل عليه والقبول التام لعدله وإن خفى عليه وجه العدل فيما ألم به .

ثم ينتهى بشار إلى اليأس المطلق فى البيتين التاليين :

فاشرب على أبنة الزمان فما ... تلقى زمانا صفا من الأبن

الله يعطيك من فواضله ... والمرء يغضى عينا على الكمن

ييئس الآن يأسا نهائيا من الناس جميعا ، لم يبق له فيهم أمل ، فلم تعد أمامه إلا وسيلتان يستعمل بعضنا إحداها حين ييأسون ويستعمل آخرون الأخرى ، ولكن بشارا فى فداحة رزئه يستعملهما معا ، يقبل على الخمر يحاول أن ينسى فيها شجنه ، ويقبل إلى الله يلتمس فضله وكرمه ورحمته ، يرجو إن كان العرف قد ذهب من الناس فلن يذهب من الله .

ثم فكر فى بشار يقضى سبعين سنة قبل أن يدرك هذه الحقيقة البسيطة ، أن المرء لا يستطيع أن يظفر بمراده فى كل حال ، وأن مامن زمان يخلو من الشر والأقذاء ، وأن كلا منا مضطر فى أحوال كثيرة إلى أن يقبل ما يكره ويذعن لما لا يستطيع تغييره . بشار الذى ظل طول حياته شديد الشغب عظيم الأنفة يضطر الآن إلى قبول نصيبه والأذعان لمقدوره . يدرك بعد طول العناد والتمرد أن فردا واحدا بالغا ما بلغت قوة احتجاجه وشدة صخبه لن يستطيع مقاومة المجتمع وتحدى الناس إلى الأبد ، فيرضخ ويذعن . وهذا سر ايلام هذين البيتين ، فسواء أأحببنا بشارا أم كرهناه ، وسواء أظننا أنه لقى جزاءه

العادل أم ظننا أنه لقى قسوة زائدة ، فإن من آلم التجارب علينا أن نرى عزيزا يذل ورجلا ذا إباء وشمم يضع أنفه فى الرغام .

ثم تأمل هذا الأسلوب المجازى الذى اختاره بشار : «والمرء يغضى عينا على الكمن» ، ترى أله معنى أعمق مما أراد بشار ، معنى لم يدرك هو مغزاه الحقيقى ؟ أصار بشار أخيرا إلى قبول عاهته الطبيعية العظمى فيما يقبل الآن من نكبات ؟

ولكن هذا اليأس والأذعان لا يدومان طويلا حتى يعود بشار إلى التحسر ، فيضاعف من عذاب نفسه بتذكر ما استمتع به حتى الآن من حياة لاهية طليقة لم يثنه عنها عذل العاذلين ، وما تغنى به من غزل حر نفس به عن خلجات صدره ولم يكبحه عنه شكوى خصومه من استهتاره وإفساده للنساء ثيبا وأبكارا :

قدعشت بين الريحان والراح والـ ... ـمزهر فى ظل مجلس حسن

وقد ملأت البلاد ما بين فغـ ... ـفور إلى القيروان فاليمن

شعرا تصلى له العواتق والـ ... ـثيب صلاة الغواة للوثن

وهذه أبيات عظيمة الاضطراب والتزلزل ، وادعاء بشار فيها عن ذيوع شعره لاشك فى صدقه ، ومهما يكن رأينا الخلقى فى بعض غزله فالذى لامراء فيه أنه صور جانبا هاما من المجتمع فى عصره تصويرا صادقا وفيا ، فكان هذا من أسباب رواجه ، وهناك من النقاد من لا يطالبون الأديب بأكثر من هذا ، ولكن انظر الآن كيف يعود بشار بعد هذه الصرخات المدويات إلى إرغام نفسه على الهدوء والتسليم فى البيتين الأخيرين ، وكيف يرتفع فيهما على كل أحزانه ومصائبه فيصل

ذروة السخرية الرفيعة التى يندر وجودها فى الشعر العربى ، فيزعم أنه الان قد ثاب عن غيه وأفاق من غفوته واتضح له نهج الهدى ونجا من هوة الضلال :

ثم نهانى المهدى ، فانصرفت   نفسى ، صنيع الموفق اللقن
فالحمد لله لا شريك له   ليس بشىء باق على الزمن

فإن ظننا أن قوله « فالحمد لله » معناه : الحمد لله على هذه الهداية ، فسرعان ما ياتى الشطر الثانى ليعطينا المعنى الحقيقى : الحمد لله على هذا المكروه ، لا يحمد على مكروه سواه . وهما بيتان يذكراننا بسخرية أبى نواس فى موقف عظيم المماثلة (١)

خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ، عسى الله أن يتوب عليهم .

---

(١) هذه أبيات أبى نواس :

أنت يابن الربيع ألزمتنى النسك   وعودتنيه ، والخير عاده
فارعوى باطلى وأقصر حبلى   وتبدلت عفة وزهاده
لو ترانى ذكرت للحسن البص   رى فى حسن سمته وقتاده
المسابيح فى ذراعى والمص   حف فى لبتى مكان القلاده
وإذا شئت أن ترى طرفة تع   جب منها مليحة مستفاده
فادع بى ، لا عدمت تقويم مثلى   وتفطن لموضع السجاده
تر أثرا من الصلاة بوجهى   توقن النفس أنها من عباده
لو رآها بعض المرائين يوما   لاشتراها يعدها للشهادة
ولقد طال ما شقيت ولكن   أدركتنى على يديك السعاده

للمؤلف :

ثقافة الناقد الأدبى

يقاوم بعض النزعات الضارة ويصحح عددا من الأخطاء الشائعة فى دراسة الأدب العربى وتدريسه ، ويشرح السبب فى تدهور نقدنا المعاصر ، ويصف للنقاد الثقافة التى تلزمهم حتى يتقنوا عملهم ، ويريهم كيف يربطون فى دراستهم بين الأدب والحياة ، ويدعم قضيته بدراسة مفصلة لشخصية ابن الرومى وفنه الشعرى .

لن يمضى وقت طويل قبل أن يكون له أثره فى تصحيح اتجاهنا نحو أدبنا « الذى ضيعه كل محافظيه ، وأفسده معظم مجدديه » .

الكتاب الذى قال كبير المستشرقين ، الأستاذ هـ . ر . جب ، فى رسالة إلى مؤلفه : « الصفة التى تميزه فوق كل شىء هى الإخلاص ، وهذه هى الدعامة التى لابدمنها لكل عمل جيد فى أى ميدان من ميادين البحث ، وهى تنبىء عن تفكير صادق لايقنع بالتقريرات السطحية المرتجلة أو الآراء التى يرددها الناس .

« انك باحتجاجك على هذه الطريقة الشائعة فى دراسة الشعراء والكتاب ، وباعطائك مثالا على التحليل المتعمق ، قد أديت خدمة جليلة إلى دراسة الأدب العربى . ولكنك لم تخدم الأدب العربى وحده .

تصويب

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٣	٥	الشره	الشر ،
٣	٧	يروعه	يردعه
٧	١٣	يقوم	يقدم
١٦	٩	بلى	بل
١٩	٩	الربج	الربح
٣٩	٢٠	سلاسته	سلامته
٥٥	٤	زراع	زارع
٧١	١٠	المزوج	الممزوج
٨٨	١	أعيظ	أغيظ
١٤٨	١٢	ودرجة	درجة
١٦٥	٢١	عا ما	نوعا ما
١٧٣	٥	ضخر	ضجر
١٨٥	٧	للبق	فى البق
٢٢٣	٢٠	11	ii
٢٢٨	٢١	حور »	حور